بسم الله الرحمن الرحيم

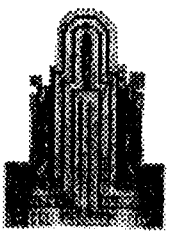

جامعة آل البيت

كلية العلوم والآداب

قسم اللغة العربية

توظيف الإسلام في قصيدة المديح في العصر الأموي

USING ISLAM IN PRAISING POEM IN UMAYAD ERA

إعداد الطالب

أحمد جمعة فهيد الخواطرة

الرقم الجامعي (٩٩٢٠٣٠١٠٠٣)

بإشراف

الدكتور محمد الدروبي

الفصل الدراسي الأول

٢٠٠٢/٢٠٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

توظيف الإسلام في قصيدة المديح في العصر الأموي

USING ISLAM IN PRAISING POEM IN UMAYAD ERA

إعداد الطالب

أحمد جمعة فهيد الخواطرة

الرقم الجامعي (٩٩٢٠٣٠١٠٠٣)

اسم المشرف

الدكتور محمد الدروبي

أعضاء لجنة المناقشة:		التوقيع
الدكتور محمد محمود الدروبي	(مشرفا ورئيسا)	.....
الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي	(عضواً)	.....
الأستاذ الدكتور شكري عزيز الماضي	(عضواً)	.....
الدكتور محمد موسى العبسي	(عضواً)	.....

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها في كلية العلوم والآداب في جامعة آل البيت.

نوقشت وأوصي بإجازتها بتاريخ: / /

الإهـــــداء

- إلى أمـــــي الحبيبـــة اعترافـاً بفضلـها علـــيَّ.
- وإلى زوجـــتي الـــتي صـــبرت واحتملـــت وأعـــانت.
- وإلى نـــور عيونـــي أبنـــائي وبنـــاتي.
- وإلى إخوتـــي وأخواتـــي.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الملخص	هـ
المقدمة	ز
التمهيد	١
الفصل الأول: إشكالية قصيدة المديح في العصر الأموي	٥
المبحث الأول: الدوافع النفعية	٧
المبحث الثاني: الدوافع السياسية والدينية	٢٥
الفصل الثاني: الثوابت الإسلامية ذات الطابع السياسي في قصيدة المديح في العصر الأموي	٤١
المبحث الأول: الخلافة وفكرة الجبر والاختيار	٤٥
المبحث الثاني: الإمامة والمهدية	٦٣
المبحث الثالث: إرث النبوة وشرعية الحكم	٧٦
المبحث الرابع: الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الإسلام	٨٧
الفصل الثالث: القيم الإسلامية في قصيدة المديح في العصر الأموي	١٠٢
المبحث الأول: التقوى	١٠٥
المبحث الثاني: العدل	١١٧
المبحث الثالث: محاربة الفتن والفساد	١٣٠
الفصل الرابع: الدراسة الفنية	١٤٣
المبحث الأول: الهيكل العام لقصيدة المديح في العصر الأموي	١٤٤
المبحث الثاني: البناء اللغوي	١٦٨
الخاتمة	١٩٤
المصادر والمراجع	١٩٧
الملخص باللغة الإنجليزية	٢٠٦

المُلخَّص

جاءت هذه الرسالة بعنوان "توظيف الإسلام في قصيدة المديح في العصر الأموي" فاحتوت على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، تناولت في المقدمة مسوغات اختيار الموضوع وأدبياته ومشكلة الدراسة ومنهجية البحث فيها.

أمّا الفصل الأول فهو بعنوان: "إشكالية قصيدة المديح في العصر الأموي" وقد اشتمل على بيان الدوافع التي أدت إلى ازدهار قصيدة المديح في العصر الأموي، وانتهى القول إلى أن هذه الدوافع تتمثل في أمرين رئيسين هما: الدوافع النفعية من ناحية والدوافع السياسية والدينية من ناحية أخرى.

وأمّا الفصل الثاني فهو بعنوان: "الثوابت الدينية ذات الطابع السياسي في قصيدة المديح في العصر الأموي" وقد جاء في أربعة مباحث، اشتمل المبحث الأول على تناول موضوع الخلافة واقترانها بفكرة الجبر والاختيار التي روج لها الأمويون، واشتمل المبحث الثاني على الحديث عن الإمامة والمهدية وعلاقة ذلك بتثبيت دعائم الحكم، ودور الشعراء في توظيف هذين المفهومين في شعر المديح الأموي، وضمَّ المبحث الثالث توظيف الشعراء إرث النبوة وعلاقة ذلك بمن يتولى الحكم من المسلمين، كما تمَّ في المبحث الرابع دراسة توظيف الجهاد في شعر المديح الأموي وجعل ذلك وسيلة لإبراز جهود الممدوح في الدفاع عن حرمات الإسلام والمسلمين.

أمّا الفصل الثالث فهو بعنوان "القيم الدينية في قصيدة المديح في العصر الأموي" وقد وقع في ثلاثة مباحث، اشتمل المبحث الأول على توظيف التقوى في شعر المديح الأموي وبيان ملامح التقوى التي يتحلى بها الممدوح، واشتمل المبحث الثاني على توظيف الشعراء قيمة العدل ومدى ارتباطها بالممدوح الذي يُفضَّل أن يتصف بهذه الفضيلة، كما اشتمل المبحث الثالث على توظيف محاربة البدع والفتن والفساد وما يتحلى به الممدوح من هذه الفضيلة وأثرها في تدعيم الحكم.

أمّا الفصل الرابع فهو بعنوان "الدراسة الفنية" وقد انعقد في مبحثين، تمّ في المبحث الأول بيان الهيكل العام لقصيدة المديح في العصر الأموي، كما اشتمل المبحث

الثاني على دراسة البناء اللغوي لهذه القصيدة، بما في ذلك الصورة الفنية والأساليب والأوزان والقوافي.

أمّا الخاتمة فقد اشتملت على أهم نتائج البحث، ومن هذه النتائج:

أولا: أن الثوابت الإسلامية والقيم الدينية وظفت توظيفا واضحا في قصيدة المديح في العصر الأموي من أجل مآرب دنيوية.

ثانيا: أن الثوابت الإسلامية والقيم الدينية كانت رافدا جديدا أدى إلى ازدهار شعر المديح في العصر الأموي.

ثالثا: أن المديح الذي يحمل الطابع السياسي كان يلقى رواجا واسعا، كما أن بعض الشعراء استغلوا الإسلام استغلالا واضحا في شعر المديح السياسي.

رابعا: اضطرار بعض الشعراء إلى المبالغة؛ لإظهار الممدوح بمظهر الإمام التقي الورع.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢))[سورة سبأ] والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين، ورحمة الله للعالمين محمد البشير النذير وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ..

فإن موضوع هذه الرسالة هو "توظيف الإسلام في قصيدة المديح في العصر الأموي". وفن المديح قديم في الشعر العربي قِدَم الشعر نفسه، إذ وجد الشعراء في هذا الغرض الشعري طريقاً إلى قلوب الممدوحين، فوظفوه توظيفاً ذكياً في سبيل الوصول إلى مآربهم ورغباتهم العامة والخاصة، فمنهم من مدح إعجاباً، ومنهم من مدح تكسباً، ومنهم من مدح عصبية، ومنهم من مدح لأغراض سياسية ودينية بعد بزوغ فجر الإسلام. وقد لاقت هذه البضاعة رواجاً عند الممدوحين، فأخذوا يتسابقون لاستقطاب الشعراء إلى قصورهم وأنديتهم، مغدقين عليهم الأموال، رافعين من شأنهم، متجاوزين عن هفواتهم، مقدمين لهم الدعم والحماية.

وقد حرص الشعراء في العصر الأموي على إحاطة ممدوحيهم بهالة من القداسة الدينية متخذين من المبادئ الإسلامية مادة شعرية يتوجهون بها إلى هؤلاء الممدوحين الذين يرحبون بهذه المبادئ، وتنشرح صدورهم عند مدحهم بها.

ولم يكن الهدف من هذه الدراسة الحديث عن علاقة الإسلام بالشعر، ولا عن الأثر الذي أحدثه الإسلام في شعر المديح الأموي، بل كان الهدف منصباً على توظيف الإسلام في قصيدة المديح الأموية، في محاولة استجلاء جوانب هذا الموضوع.

ورأيت أثناء قراءاتي أن قصيدة المديح من القصائد التي نالت حيزاً كبيراً في مضمار الشعر العربي، وخاصة في العصر الأموي، لما تميز به هذا العصر من انقسامات حزبية وعودة إلى العصبيات القبلية ونزاع مرير على السلطة بين أبناء الأمة الواحدة. كل هذه العوامل أتاحت للشعراء مسرحاً واسعاً ومرتعاً خصباً، يصولون فيه ويجولون، محتطبين في حبل الخلفاء والولاة وزعماء الأحزاب السياسية، موظفين كثيراً من المبادئ

والقيم الإسلامية لإرضاء ممدوحيهم وكسب ودهم، مؤيدين لهم في مواقفهم السياسية، ومدافعين عنهم خصومهم الذين ينازعونهم عرش السيادة الدينية والسياسية، وقد أثارت هذه الملحوظات الأسئلة الآتية:

١- لماذا يلقى المديح ذو الطابع الإسلامي رواجاً عند الممدوحين؟

٢- ما أسباب ازدهار شعر المديح في العصر الأموي؟ وهل لذلك علاقة بالإسلام؟

٣- ما القيم الدينية التي تناولها الشعراء في مدائحهم؟

٤- ما الثوابت الدينية ذات الطابع السياسي التي اعتمدها الشعراء في تدعيم مواقف ممدوحيهم السياسية؟

هذه الأسئلة وما أثارته، مضافاً إليها أن الموضوع لم يحظ بدراسة مستقلة -في حدود بحثي- كل ذلك جعل الموضوع مستحقاً الدراسة.

لا توجد دراسات سابقة مستقلة في هذا الموضوع على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت المديح في العصر الأموي، سواءٌ في ذلك المؤلفات التي تعرضت للتأريخ الأدبي لشعر هذه المدة، أو الدراسات التي أفردت لشعر المديح في العصر الأموي.

ومع أن الباحث لم يهتد إلى دراسات سابقة مستقلة تناولت الموضوع، إلا أن هنالك بعض الدراسات التي تضمنت إشارات جزئية لما سيخوض فيه البحث، ومن هذه الدراسات:

- دراسة وهب رومية بعنوان: "قصيدة المديح حتى نهاية العصر الأموي بين الأصول والإحياء والتجديد" وقد وجهت هذه الدراسة جلّ اهتمامها إلى تتبع قصيدة المديح منذ ظهورها إلى نهاية العصر الأموي، وحاولت تفسير نشأتها وتطورها وتغيّر رسالتها واتجاهاتها الفنية، وكان تركيز هذه الدراسة على هيكلية قصيدة المديح في مراحل تطورها، مولية عنايتها بالمقدمة والرحلة، ولكنها أشارت إلى مضمون قصيدة المديح؛ إذ يستطيع المتتبع أن يلمح بعض الإشارات الدينية التي كان يشير إليها الكاتب، ولكنها إشارات سريعة.

- دراسة مي خليف، بعنوان "التيار الإسلامي في القصيدة الأموية"، وقد تعرضت هذه الدراسة إلى أثر الإسلام في القصيدة الأموية عامة، مشيرة إلى علاقة الإسلام بالسياسة وأثرها في قصيدة المديح، وخاصة فكرة الجبر والاختيار، كما أشارت سريعاً إلى بعض القيم الدينية التي برزت في قصيدة المديح، ولكن هذه الدراسة تبقى غير متخصصة في الموضوع، إذ شملت جميع الأغراض الشعرية في العصر الأموي.

وعليه أستطيع القول إن هذا الموضوع لم يحظ بالدراسة الكافية الشافية على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت شعر المديح في هذه المدة، وجلّ هذه الدراسات جاءت في كتب تاريخ الأدب.

تتلخص مشكلة الدراسة في الإجابة عن الأسئلة الآتية:

أولاً: ما أسباب ازدهار قصيدة المديح في العصر الأموي؟

ثانياً: كيف وظف الشعراء الثوابت الإسلامية ذات الطابع السياسي في قصيدة المديح في العصر الأموي؟

ثالثاً: كيف وظف الشعراء القيم ذات الطابع الإسلامي في قصيدة المديح في العصر الأموي؟

رابعاً: هل كان للإسلام تأثير في الهيكل العام لقصيدة المديح في العصر الأموي وفي بنائها اللغوي؟

وأمّا منهجية البحث فقد قامت على الأسس الآتية:

أولاً: استقراء قصائد المديح التي وردت فيها الثوابت والقيم الإسلامية، واستخراج الأشعار ذات العلاقة بموضوع الدراسة.

ثانياً: تقسيم هذه الأشعار إلى مجموعات تشكل فصول هذه الدراسة ومباحثها، ثم دراستها دراسة تحليلية موضوعية، وفقاً لخطوات المنهج الوصفي التحليلي.

ثالثاً: تتبع آراء العلماء والنقاد الذين درسوا شعر المديح، وتحليلها ومناقشتها للإفادة منها.

رابعاً: تبيّن أهم الملامح الإسلامية التي ظهر صداها واضحاً في قصيدة المديح في العصر الأموي.

خامساً: تبيّن مدى تأثير العناصر الإسلامية فنياً في قصيدة المديح في العصر الأموي.

أمّا أهم المصادر التي أفادت منها الدراسة، فهي معظم دواوين الشعراء في العصر الأموي، خاصة دواوين كل من جرير والفرزدق والأخطل والكميت وعبيد الله بن قيس الرقيات وعدي بن الرقاع وكثيّر عزة. وقد أفادت الدراسة أيضاً من بعض كتب الأدب القديمة، أهمها كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وكتاب الكامل في الأدب لأبي العباس المبرد، وكتاب العمدة في محاسن الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، والشعر والشعراء لابن قتيبة. وأمّا المراجع الحديثة التي أفادت منها الدراسة فيأتي في مقدمتها كتب تاريخ الأدب، خاصة كتب شوقي ضيف وكتاب تاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب وكتاب أدب السياسة في العصر الأموي لأحمد الحوفي وكتاب في الشعر الإسلامي والأموي لعبد القادر القط وغيرها.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الوفير لأستاذي الدكتور يحيى وهيب الجبوري، المشرف الأول على هذه الرسالة الذي كان خير معين لي، إذ أخذ بيدي وذلّل أمامي العقبات والصعاب، كما أتقدم بالشكر لأستاذي الدكتور محمد الدروبي الذي كرمني بتفضله وقبوله الإشراف على هذه الرسالة، وعلى ما أمدني به من نصح وإرشاد وتوجيهات سديدة، كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى أساتذتي في قسم اللغة العربية جميعهم؛ لما كنت ألقاه منهم من تقدير واحترام.

وكذلك أتقدم بالشكر إلى أساتذتي الأفاضل الذين تفضلوا بقبول مناقشة الرسالة:

- الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي
- الأستاذ الدكتور شكري عزيز الماضي
- الدكتور محمد موسى العبسي

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

ظهر فن المديح مرتبطا بالإعجاب تارة، وبالمنفعة تارة أخرى،" وعرفه البدائيون يوم رفعوا صلواتهم إلى أربابهم، وأثنوا على أصنامهم، وتغنوا بأمجاد آلهتهم، وعرفوه يوم وضعوا أنفسهم تحت وصاية زعمائهم وأبطالهم، وامتدحوا هؤلاء الأبطال وتحدثوا عن أعمالهم ومآتيهم الكبرى" (١).

والعرب كغيرهم من الأمم، عرفوا المديح؛ لأن البيئة الجغرافية التي عاشوا فيها فرضت عليهم أن يتصفوا بصفات حميدة؛ منها الكرم والشجاعة والنجدة والعفة والشهامة والغيرة على الأعراض وحماية الجار وإغاثة الملهوف وغير ذلك من الصفات الحميدة التي أقرها الإسلام. بسبب هذا كله، كان العربي يحب أن يظهر بمظهر الكريم الشجاع الغيور، ويحب أن يُثنى عليه بالحلم والمروءة والأنفة والعدل.

وبسبب شظف العيش وقسوة الحياة في الصحراء العربية،ظهر الفقر والغزو والسلب والنهب، وكانت الحاجة ملحة للتقرب إلى الكرماء والشجعان وأصحاب المروءات، طلبا للعون أو النجدة أو الحماية. ونظرا لأن الشعر كان ديوان العرب في الجاهلية، يتبوأ منزلة مرموقة في المجتمع الجاهلي، فقد وظف الشعراء الشعر لمصلحتهم ومصلحة قومهم، فتوجهوا إلى زعمائهم وكرمائهم وحلمائهم وفرسانهم، فأحاطوهم بهالة من الصفات التي يحبون أن يُحمدوا بها؛ إمّا إعجابا، وإمّا تكسبا، وإمّا تحقيقا لمآرب أخرى. وكان هذا المديح يروق الممدوحين،فكانوا يحرصون على استقطاب الشعراء إلى أبوابهم، باذلين الغالي والنفيس، حريصين على ألا ينفر منهم الشعراء فيتوجهوا إلى خصومهم، ولذا أغدقوا عليهم الأموال، وأجزلوا لهم العطايا، وأكرموا وفادتهم.

وكان الشعر عامة وشعر المديح خاصة يفعل فعل السحر في الإنسان العربي؛ فهذا زهير بن أبي سلمى يسجل مآثرهرم بن سنان، والحارث بن عوف؛ لأنهما تحملا ديات قتلى حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان، وكانا سببا في وقف هذه الحرب

---

(١) أحمد أبو حاقة، فن المديح وتطوره في الشعر العربي، ط١، بيروت، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م، ص٧.

الدامية[١]. وهذا الحطيئة يعلي من شأن بني عبد المدان ببيت من الشعر[٢]. وهذا الأعشى يعد قصيدة ليمدح بها الرسول ﷺ ، فتعترضه قريش وتعطيه مائة ناقة ليعدل عن مدحته تلك[٣]. وكذلك كان الأعشى سببا في زواج بنات المحلق؛ لأنه مدح أباهنّ بقصيدة بعد أن اطلع على فقر المحلق وكثرة بناته[٤].

ويمضي العصر الجاهلي، ويأتي الإسلام، وتشرق شمس الهداية على جزيرة العرب، وتتبدل المعتقدات، وتتغير النظم، وتظهر قيم مختلفة، وتبرز عادات جديدة أيضا، ويعالج الدين الجديد قضية الشعر والشعراء منطلقا من قوله تعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ(٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ(٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ(٢٢٧) ﴾[٥].

فالشعر الجيد ما وافق تعاليم الإسلام، والرديء ما خالف هذه التعاليم. وقد وظف الرسول ﷺ الشعر لمصلحة الدين الإسلامي، وشجع الشعراء المسلمين على النيل من المشركين، وكان ﷺ يدعو لهم بالغلبة على أعدائهم[٦]، ويستمع إلى الشعراء وهم يمدحونه، ويمدحون المهاجرين، فيشجعهم لتوظيف الشعر في سبيل الدعوة. ويستمر الأمر على هذه الحال في عهد الخلفاء الراشدين: أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ جميعا. وتطل الفتنة برأسها في أواخر عهد الخليفة عثمان ﷺ ، ويشرئب عنقها في

---

(١) زهير بن أبي سلمى ت(٣١ق.هـ/٥٨١م)، شعر زهير بن أبي سلمى ، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، ط١، حلب، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص٥ وما بعدها.

(٢) الحطيئة، ت(٤٥هـ/٦٦٥م)، ديوان الحطيئة، تحقيق: د. نعمان أحمد أمين طه، ط١، مكتبة الخانجي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٥ وما بعدها. والبيت هو:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

(٣) الأعشى، ميمون بن قيس، ت(٧هـ/٦٢٨م)، ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق: د. محمد محمد حسين، ط٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٨٥،١٨٧.

(٤) الأعشى ميمون بن قيس، ديوان الأعشى، ص٢٧٥.

(٥) الشعراء، الآيات ٢٢٤-٢٢٧.

(٦) محمد بن سلام الجمحي ت(٢٣١هـ/٨٤٥م)، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، السفر الأول، ص٢١٧.

عهد علي بن أبي طالب ﷺ ، وتستعر المعارك بين المسلمين في موقعة الجمل[١]، ثم تتبعها موقعة صفين التي تنتهي بالتحكيم، وتنشق فرقة الخوارج عن علي ﷺ احتجاجا على التحكيم، ويحاربهم علي ﷺ ، ويقتل منهم مقتلة عظيمة[٢]. ثم يُقتل علي ﷺ، ويتنازل الحسن بن علي ﷺ لمعاوية حقنا للدماء، وحفاظا على وحدة الأمة الإسلامية.

وفي أثناء هذه الفتنة تستعر الحرب الكلامية بين الفريقين، وتتأجج نار الشعر، فيدلي الشعراء بدلوهم في هذه الفتنة، معارضين ومؤيدين. ثم تستقر الأمور بعض الشيء، ويعتلي معاوية عرش الخلافة، ويأتي فريق من الشعراء مهنئين ومادحين، وتفتح أبواب البلاط الأموي للشعراء، وصارت الخزائن تتفق في مصلحة الحكام، وتغدق على الشعراء، بينما كانوا في زمن الخلفاء الراشدين يُعطون من المال الخاص، وهو جزء ضئيل جدا دراهم معدودات. وقد حول معاوية الخلافة إلى نظام وراثي حين أخذ البيعة لابنه يزيد في حياته. فأيد عدد من الشعراء هذه الدعوة، ودافعوا عنها. ثم يعتلي يزيد عرش الخلافة الأموية، فتكثر الفتن والثورات والحروب في عهده، وتعود الفتنة من جديد. ثم تنتقل الخلافة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني، ويستمر الشعراء في تأييد حق الأمويين في الخلافة، ثم تؤول الأمور إلى الخليفة، عبد الملك بن مروان، فيوطد أركان دولته بالقوة، فيقضي على الزبيريين،ويكسر شوكة الخوارج، ويقرب الشعراء، ويوظفهم في الدعوة إلى الحزب الأموي، ويسير على نهجه ابناه: الوليد وسليمان. ثم تؤول الخلافة إلى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذي حجب الشعراء، ولم يسمح إلا للقليل منهم ممن ظن فيه الصلاح وقال خيرا، ويسير بالناس سيرة جده الفاروق ﷺ، فتصلح أمور الرعية، ويعم الخير، ويسود العدل، وتستقر أمور الدولة. ثم يمضي عمر بن عبد العزيز، ويتولى يزيد بن عبد الملك، فتعود الأمور إلى مجاريها، فيقرب الشعراء، ويسير على هذا النهج أيضا الخليفة هشام بن عبد الملك. ثم يأتي بعد ذلك خلفاء ضعفاء أمثال الوليد بن يزيد الذي وصف بالمجون[٣]، فيضعف سلطان الخلافة، ويبدأ نجمها بالأفول، ويسدل الستار على حكم الأمويين

---

(١) ينظر ابن الأثير الجزري ت(٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، المجلد الثالث، ص٩٩.

(٢) المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص٢١٨ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص٤٨٥ وما بعدها.

في خلافة مروان بن محمد على أيدي بني العباس، بعد أن دام حكم الأمويين قرابة تسعين عاما.

والمتتبع تاريخ الدولة الأموية، يلاحظ أن الأحزاب السياسية، والتعصب الديني، قد تبوأا دورا كبيرا في ازدهار شعر المديح في العصر الأموي، فالحزب الأموي كان بحاجة إلى من ينافح عنه أمام هجمات الأحزاب الأخرى التي لا ترى أحقية الأمويين في الخلافة.

والأحزاب الأخرى كالعلويين والزبيريين والخوارج، كانوا بحاجة إلى الشعراء لتأييد حقهم في الخلافة والوقوف في وجه الحزب الأموي الحاكم، فأصبح لكل حزب من هذه الأحزاب شعراء يرون رأيه ويذبون عن مبادئه.

وإذا أضيف إلى الدوافع الدينية والسياسية حاجة الشعراء وميلهم إلى التكسب، فيمكن القول؛ إن من أسباب ازدهار المديح في العصر الأموي الدوافع السياسية والدينية والمنفعة عامة. وهذا ما سيتم بسط القول فيه في الفصل القادم إن شاء الله.

الفصل الأول

إشكالية قصيدة المديح في العصر الأموي

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الدوافع النفعية

المبحث الثاني: الدوافع السياسية والدينية

الفصل الأول

إشكالية قصيدة المديح في العصر الأموي

يمكن القول إن بدايات ظهور شعر المديح في الشعر العربي، كانت في العصر الجاهلي، كما يمكن القول إن شعر المديح ظهر مرتبطاً بالمنفعة المتبادلة بين الشعراء وممدوحيهم، كما يمكن القول إن اتجاه المديح بدأ يجنح إلى المنفعة المادية عند بعض شعراء العصر الجاهلي، أمثال النابغة والأعشى وحسّان بن ثابت.

ثم جاء عصر صدر الإسلام، فغربت شمس المديح إلا قليلاً؛ لانشغال الناس بالقرآن الكريم الذي بهرهم بإعجازه، وهم سادة البيان، وفرسان القول؛ فضلاً عن انشغال الناس بهذا الدين الجديد وبتعاليمه، وبالجهاد في سبيل الله، وفضلاً عن نهي الإسلام عن التكسب بالشعر، قال رسول الله ﷺ :"**إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**"(١).

واستمرت هذه الحال إلى مجئ العصر الأموي بأحزابه السياسية وعصبياته القبلية، وأطل على الأمة برؤية جديدة في الحكم؛ فقد تحولت الخلافة من نظام يقوم على مبدأ الشورى بين المسلمين إلى نظام يقوم على الوراثة بين أبناء الأمويين، "وتحولت الخلافة في عهدهم إلى ملك مستبدٍ عضوض، تبدو فيه الفوارق بين الصفات مميزة واضحة"(٢). وفي ظل هذه الظروف عادت قصيدة المديح إلى الظهور على مسرح الشعر الأموي، مستمدة قوتها من مظاهر الحياة السائدة في ذلك العصر.

والمتتبع قصيدة المديح في العصر الأموي يمكن أن يحدد الدوافع التي أدت إلى تطور هذه القصيدة في العصر الأموي. ولتوضيح ذلك يمكن إدراج هذه الدوافع في اتجاهين كبيرين، أولهما: الدوافع النفعية، وثانيهما: الدوافع السياسية والدينية.

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل ت(٢٤١هـ/٨٥٥م)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣١٣هـ/١٨٩٥م، المجلد الثاني، ص٩٤.

(٢) درويش الجندي، ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص٢١.

المبحث الأول

الدوافع النفعية

لا يستطيع الباحث أن يغفل الدافع النفعي القوي الذي دفع شعراء العصر الأموي إلى أبواب ممدوحيهم، إذ يمكن القول إن المنفعة ليست مقصورة على الكسب المادي وحده، وإنما تتعداه إلى منافع أخرى؛ كأن يمدح الشاعر ممدوحه اعترافاً بفضله بسبب يدٍ سلفت من الممدوح إلى الشاعر، أو أن يمدح ممدوحه خوفاً من غضبه ودفعاً لأذاه، متخذاً من المدح وسيلة للوصول إلى قلب الممدوح وكسب وده. وقد يكون للظروف السياسية دور في أن يلجأ الشاعر إلى الممدوح فيمدحه تملقاً ونفاقاً.

وأول دوافع المنفعة التي ساقت الشعراء إلى أبواب ممدوحيهم هو دافع التكسب. وغني عن القول إن ظاهرة التكسب ليست وليدة العصر الأموي، وإنما ترجع آثارها إلى أواخر العصر الجاهلي. يقول ابن رشيق:"وكانت العرب لا تتكسب بالشعر، وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يدٍ لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها"[1]. فابن رشيق ينأى بشعر المديح عن سخافات التكسب وإراقة ماء الوجه قبل زمن النابغة الذبياني، ولكنه يعزو ظهور التكسب بالشعر إلى النابغة الذبياني، فيقول في معرض حديثه عن التكسب بالشعر:"حتى نشأ النابغة، فمدح الملوك، وقبل الصلة على الشعر، وخضع للنعمان بن المنذر"[2]. ويشير ابن رشيق إلى أن زهير بن أبي سلمى تكسب بالشعر، ولكنه تكسبٌ يسير ناله من هرم بن سنان[3]. إلا أن الشاعر الذي جعل من الشعر عروضاً تباع وتشترى هو الأعشى ميمون بن قيس. كما يقول ابن رشيق:"فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلدان"[4].

ويمكن موافقة ابن رشيق فيما ذهب إليه بشأن النابغة والأعشى، أما زهير فيمكن إخراجه من دائرة التكسب بالمعنى الذي استعمل عند النابغة والأعشى؛ فالرجل لم يكن همه التكسب بقدر ما كان همه تسجيل مآثر هرم بن سنان والحارث بن عوف؛ لأنه يرى أنهما يستحقان المديح، لما أسدياه من يدٍ لقومهما بحقنهما دماء القبيلتين، ولعل مما

---

(١) الحسن بن رشيق القيرواني ت(٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٣٥٤هـ/١٩٣٤، ج١، ص٨٠.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٨١.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٦٤.

يؤيد ذلك نبرة الصدق التي يلاحظها القارئ في شعر زهير مادحا هرم بن سنان.

أما في العصر الأموي، فالأمر مختلف تماما، فقد غلبت النفعية على معظم شعراء المديح في هذه المدة؛ نظرا لما يتسم به هذا العصر من ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية مهدت السبيل للشعراء للوصول إلى الخلفاء والولاة ورجال الدولة الأموية. فالعصر الأموي كان أكثر من غيره دموية، نتيجة للانقسامات السياسية، وعودة العصبيات القبلية جذعة كما كانت في الجاهلية. وأصبحت الفتن تنهش جسد الدولة الأموية كلما وجدت إلى ذلك سبيلا. وما كان الأمويون ليذروا هذا الأمر من غير علاج، وهم أهل السياسة والحنكة والدهاء، ولم لا؟ وكل هذه الأحزاب كانت ترمي إلى إدالة دولة بني أمية، وتقويض سلطانها، من أجل ذلك هبّ الأمويون مدافعين عن حقهم في الملك والخلافة، متخذين من الشعر أداة لتأييد وجهة نظرهم السياسية، وسلاحا في وجه خصومهم السياسيين؛ فقربوا من الشعراء من جاءهم طائعا راغبا، واستمالوا من أعرض منهم "وكان معروفا من سياسة بني أمية مع الشعراء أنهم يحرصون على تأليف قلوبهم بالجوائز السنية والعطايا السخية، فلا غرابة أن هفت قلوب كثير من شعراء الفرق الأخرى إلى أموالهم، وإن جفت قلوبهم"[1].

وكانت الحرب بينهم وبين أعدائهم تدور على جبهتين: جبهة المواجهة الحقيقية بالسلاح والرجال، وجبهة الدعاية السياسية، وما كان الأمويون لينسوا هذا الجانب الأخير من جوانب المعركة؛ فقد أولوه عناية كبيرة، ووظفوه توظيفا ينم عن عقلية سياسية فذة. وكانت أفضل وسيلة للدعاية السياسية في تلك المدة هي الشعر، وذلك للمنزلة العظيمة التي كان يتحلى بها الشعر، فاتجه الأمويون إلى الشعراء ينفقون عليهم بسخاء، ويرفعون من قدرهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وكان الخلفاء يسمعون الشعراء ويطربون لشعرهم، وكذلك كان يفعل ولاتهم ورجال دولتهم. ومن الأمثلة على سخاء بني أمية وإكرامهم للشعراء ما روي عن الحطيئة عندما حضر مجلس سعيد بن العاص[2] متنكرا، ولم يعرّف بنفسه في بداية الأمر، فقال له سعيد: قد أسأت في كتمانك

---

(١) صلاح الدين الهادي، اتجاهات الشعر في العصر الأموي، ط١، القاهرة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٨٤.

(٢) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، أبو عثمان، تولى الكوفة في خلافة عثمان، ثم تولى المدينة غير مرة لمعاوية، وهو أحد كتاب المصحف لعثمان ﷺ. (صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ت(٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، الوافي في الوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج١٥، ص١٤٢، ١٤٣)

إيانا نفسك منذ الليلة، وقد علمت شوقنا إليك وإلى حديثك ومحبتنا لك. فأكرمه سعيد وأحسن إليه[١]، فقال الحطيئة مادحا سعيدا:

لَعَمْري لقد أمسى على الأمرِ سائِسٌ ... بصيرٌ بما ضرّ العدوَ اريبُ
سعيدٌ فلا يَغْرُرْكَ خِفَّةُ لحمِهِ ... تَخَدَّدَ عنه اللحمُ وهوَ صَليبُ
إذا غِبْتَ عنّا غابَ عنّا رَبيعُنَا ... ونُسقى الغمامَ الغرَّ حين تَؤوبُ[٢]

فهذا أحد ولاة بني أمية يسير على نهجهم في استمالة شاعر مثل الحطيئة، مظهرا شوقه إليه وإلى حديثه، وإنْ شئت فقل طمعا في مديحه وكسب وده واستمالته، درءا لأذاه وفلتات لسانه، وسعيد يعلم تمام العلم أن الحطيئة لم يقف ببابه حبا فيه، بل ساقته إليه رياح الطمع، وألجأته إليه الحاجة، "ويروى أنه لما سئل؛ أي الناس أشعر؟ أخرج لسانا دقيقا كأنه لسان حية، فقال: هذا إذا طمع"[٣].

ويروى أن نصيبا كان عبدا أسود لرجل من أهل القرى، فكاتب على نفسه، ثم أتى عبد العزيز بن مروان فقال فيه مدحه، فوصله واشترى ولاءه[٤]. فهذا السخاء من عبد العزيز بن مروان هو الذي أطلق لسان نصيب ليمدحه بأبيات يفضله على غيره من قومه، واصفا إياه بالكرم، فداره عامرة بالمعتفين، ومننه غامرة، وكفه أندى من الغيث، والعطاء سوف يقابله الثناء، يقول:

لعبدِ العزيزِ على قومِهِ ... وغيرِهِمْ مِنَنٌ غامِرَةْ
فبابُك اليَن أبوابهم ... وَدارُكَ ماهولةٌ عامِرَةْ
وكلبُكَ آنَس بالمعتفين ... مِنَ الأمِّ بابنتها الزائِرَةْ
وَكَفُّكَ حينَ تُرى السائلينَ ... أندَى مِنَ الليلةِ الماطِرَةْ
فمنك العطاءُ ومنا الثناءُ ... بكلِّ مُحَبَّرَةٍ سائِرَةْ[٥]

---

(١) عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت(٢٧٦هـ/٨٨٩م)، الشعر والشعراء، تحقيق: احمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ج١، ص٣٢٦.

(٢) الحطيئة، ديوان الحطيئة، ص٢٠٦، ٢٠٧. تخدد: نقص وهزل (ابن منظور ت(٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، مادة خَدَدَ). ملاحظة: كل ما سيرد من معاني المفردات هو مأخوذ من لسان العرب.

(٣) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، ص٣٢٤.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٤١٠.

(٥) نصيب بن رباح ت(١٠٨هـ/٧٢٦م)، شعر نصيب بن رباح، جمع وتقديم: د. داود سلوم، بغداد، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص٩٩. المعتفون: طالبو الفضل، الغامرة: الكثيرة، أندى: أكثر جودا، المحبَّرة: القصيدة المكتوبة.

كما يروى أنّ أعرابيا وفد على عبد الملك بن مروان، فأنشده:

والله مَا نَدْرِي إذا مَا فَاتَنَا ... طَلَبٌ إليكَ مَنِ الذي نَتَطَلَّبُ

فَلَقَدْ ضَرَبْنَا في البلادِ فلم نَجِدْ ... أحدا سِواك إلى المكارمِ يُنْسَبُ

فاصبرْ لعادَتِنَا التي عَوَّدْتَنَا ... أوْ لا فارشِدْنَا إلى مَنْ نذهبُ

فقال عبد الملك: إليّ إليّ، وأمر له بألف دينار، ووفد عليه في العام القابل فأعطاه ألفي دينار، وفي العام الثالث ثلاثة آلاف دينار[١].

وثمة موقف آخر من مواقف عبد الملك مع الشعراء الذين يأتون إلى بابه مجاهرين بطلب العطاء،وقد جرى هذا الموقف مع شاعر يعد من فحول الشعراء في العصر الأموي، وهو الشاعر جرير بن عطية الخطفي الذي مدح عبد الملك بن مروان بقصيدة مطلعها:

أتَصحو أمْ فُؤَادُكَ غيرُ صاحِ ... عَشِيَّةَ هَمَّ صحبُكَ بالرَّوَاحِ

ويقول فيها:

تَعَزَّتْ أمُّ حَزْرَةَ ثمَّ قَالَتْ ... رأيتُ الواردينَ ذوي امتِنَاحِ

فلما أنهى جرير قصيدته طرب عبد الملك لما قاله جرير وقال: فهل ترويها مائة؟ فقال جرير: وهل إليها من سبيل، جعلني الله فداءك يا أمير المؤمنين؟ وأعطاه مائة من الإبل وثمانية من الرعاء[٢].

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي يعطي الشعراء الذين كانوا يقصدونه بالعراق، وفضل أحدهم مرة على الآخرين بألف درهم؛ لأنه أعجب ببيت قاله[٣].

وهذه الروايات تدل على كرم الأمويين وسخائهم، وكان هذا الكرم والسخاء يروقان كثيراً من الشعراء، فكانوا يسعون إليه سعياً حثيثاً، حاملين بضاعتهم الشعرية، مصورين معاناتهم في الوصول إلى البلاط الأموي، سائلين حاجاتهم؛ إمّا تلميحاً، وإمّا تصريحاً، مريقين ماء الوجه تارة، ولابسين ثوب العفة وبرقع الحياء تارة أخرى

---

(١) إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ت(٣٥٦هـ/٩٦٦م)، الأمالي، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٦هـ/١٩٢٦، ج٢، ص٢٨٣.

(٢) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص٤١٩، ٤٢٠. وينظر: أبو الفرج الأصفهاني ت(٣٥٦هـ/٩٦٦م)، الأغاني، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، المجلد الرابع، ص٢٧٣.

(٣) أبو علي القالي، الأمالي، ج٢، ص٢٦٠، ٢٦١. الشاعر هو: الحكم بن عبدل الأسدي، والبيت هو:

ولست بذي وجهين فيمن عرفته ... ولا البخل فاعلم من سمائي ولا أرضي

"وغلبت النفعية على شعرائهم فكان أكثرهم من طلاب المال والمتطلعين إلى الشهرة، وإلى شرف الاتصال بالخلفاء والحاكمين"(١).

والمتتبع كثيراً من دواوين شعر العصر الأموي يجد ما يصدق هذا القول. فالدواوين مليئة بالشعر الذي يظهر الشاعر بمظهر الفقير المعدم المحتاج إلى المساعدة والعون. وكان كثير من الشعراء يبسط يد الرجاء، ويطلق لسان المسألة لدى الممدوح، أملاً في الحصول على مبتغاه.

ومن أمثلة المديح الذي كان يهدف إلى المنفعة المادية والتكسب ما روي عن النابغة الجعدي، الذي اشتدت به الحاجة، فذهب إلى عبد الله بن الزبير مادحاً ومتكسباً، مشبهاً سيرته بسيرة أبي بكر وعمر وعثمان، فهو ينشر العدل بين الرعية، ويدفع الظلم عنها، ثم يصف الشاعر حالته البائسة، وكيف فعلت به صروف الليالي والأيام والزمان المؤذي القاطع الذي أودى بماله، وغيّر من حاله، فيقول:

حَكَيْتَ لنا الصدّيقَ لمّا وَلِيتَنَا ... وعثمانَ والفاروقَ فارتاحَ مُعْدِمُ
وَسَوّيتَ بينَ الناسِ في العدلِ فاستووا ... فعادَ صباحاً حالكُ الليل مُظلِمُ
أتاكَ أبو ليلى يَشُقُّ به الدُّجَى ... دُجَى الليل جَوّابُ الفلاة عَثَمْثَمُ
لِتَرْفَعَ مِنْهُ جانباً ذَعْذَعَتْ بِهِ ... صُروفُ الليالي والزمانُ المُصَمِّمُ(٢)

ولا شك أن هذه الأبيات قد أثرت في ابن الزبير لمكانة الشاعر والمنزلة التي كان يتحلى بها، فهو صحابي جليل، له الحق في صحبته لرسول الله ﷺ، وله حق آخر، وهو حقه في فيء المسلمين، مما دعا ابن الزبير إلى القول: هوّن عليك يا أبا ليلى فأيسر وسائلك عندنا الشعر ... ثم أمر له بسبع قلائص وراحلة رحيل، ثم أمر بأن توقر له حباً وتمراً..."(٣).

---

(١) أحمد الحوفي، أدب السياسة في العصر الأموي، ط١، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، ص١٥٣.

(٢) النابغة الجعدي ت(٥٠هـ/٦٥٠م)، ديوان النابغة الجعدي، ط١، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ص٢٠٤،٢٠٥. عثمثم: جمل محكم الخلق شديد، ذعذعت:أذهبت ماله وفرقت حاله، المُصَمِّمُ:المؤذي القاطع.

(٣) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ت(٢٨٥هـ/٨٧١م)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، ط١، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، المجلد الثالث، ص٢٠٥. راحلة الرحيل: الناقة القوية على الرحلة المعودة عليها.

وهذه الرواية تدل على أنّ ابن الزبير كان لا يعطي على الشعر، ويسير في ذلك سيرة الخلفاء الراشدين في المحافظة على أموال المسلمين، ولا ينفق إلا في حق، وهذا يدحض التهمة التي توجه إليه من أنه كان بخيلاً، مغلول اليد، لا يعطي الشعراء.

وهذا الشاعر عبيدالله بن قيس الرقيات الذي كان زبيري الهوى،ثم ألجأته الظروف إلى بني أمية بعد أن كان يحمل لواء التحريض ضدهم يقول:

كَيْفَ نومي على الفِرَاشِ ولمّا ... يَشْمَلِ الشَّامَ غَارَةٌ شَعْوَاءُ[١]

بعد كل هذا أصبح ابن الرقيات من مدّاحي القصر الأموي، بعد قضاء الأمويين على الزبيريين في العراق والحجاز. ويعزو أحمد الشايب هذا التحول إلى الأمويين إلى أنّ ابن الرقيات آمن ببني أمية من حيث كونهم قرشيين[٢]. على أنّ الخوف من سطوة الأمويين كان الدافع الأقوى لمصير ابن الرقيات إلى بني أمية، كما أنّ عطايا الأمويين وجوائزهم للشعراء، كانت من أهم الدوافع التي دفعت ابن الرقيات إلى البلاط الأموي، ولعل مما يؤيد ذلك شعره في مدح الأمويين. فقد مدح عبد الملك بن مروان بقصيدة وصف فيها الأمويين بأنهم أهل الحلم، وأنهم سادة وملوك لا تصلح العرب إلا عليهم، ووصف عبد الملك كما وصف العجم ملوكهم، فعبد الملك يتصف بالوقار، ويجلس فوق منبره، والتاج فوق مفرقه وجبينه كأنه الذهب، يقول:

مَا نَقَمُوا مِنْ بني أميَّةَ إلا ... أنَّهُمْ يَحْلَمُونَ إنْ غضبوا

وأنَّهمْ مَعْدنُ الملوكِ فلا ... تَصْلَحُ إلّا عليهمُ العربُ

إنّ الفنيقَ الذي أبوه أبو الـ ... ـعاصي عليه الوقارُ والحَجَبُ

خليفةُ الله فوقَ مِنْبَرِهِ ... جَفَّتْ بذاك الأقلامُ والكُتُبُ

يَعْتَدِلُ التاجَ فوق مَفْرِقِهِ ... على جبينٍ كأنَّهُ الذَّهَبُ[٣]

والمنعم النظر في هذه الأبيات يجد أن ابن قيس الرقيات ذهب مذهبا مختلفا في مديح الأمويين، مخالفا بذلك مذهبه في مديح الزبيريين الذين كان يمدحهم بالتقوى والعفة والعدل والتواضع وقربهم من عترة رسول الله ﷺ ، فشتان بين هذه الصفات وتلك التي ينسبها إلى الأمويين.

---

(١) عبيد الله بن قيس الرقيات ت(٨٥هـ/٦٩٤م)، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، بيروت، ١٩٥٨م، ص٩٥.

(٢) أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي، ط٥، دار القلم، بيروت، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص٢٥٨.

(٣) عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، ص٤،٥. الفنيق: الجمل القوي.

وهذا ما حدا بعبد الملك بن مروان إلى أن يحتج على هذه الصفات، منتقداً ابن قيس الرقيات في مدحه له بصفات كانت العجم تمدح بها ملوكها[١].

ولا يقتصر التكسب بالشعر على شعراء الأحزاب، أو على الفحول من شعراء العصر الأموي، فقد تعدى الأمر إلى شعراء آخرين أمثال المتوكل الليثي[٢] الذي يقول مادحاً يزيد بن معاوية:

أبا خالدٍ حَنَّت إليكَ مَطِيَّتِي ... على بعدِ مُنْتَابٍ وهولِ جِنَانِ
تَنَاهَتْ قُلُوصِي بعد إسآدِيَ السُّرى ... إلى ملكٍ جَزْلِ العَطَاءِ هِجَانِ
ترى الناسَ أفواجاً ينوبون بَابَهُ ... لِبِكْرٍ مِنَ الحَاجَاتِ أوْ لِعَوَانِ[٣]

فالشاعر جاء إلى الممدوح مسرعاً قد أضناه السفر، وبلغ به الخوف مبلغه، وهو يأمل في العطاء من الممدوح الذي يقف الناس ببابه أفواجاً، يسألون حاجاتهم المألوفة وغير المألوفة.

والمتوكل مثله كمثل الشعراء في العصر الأموي يصرح بحاجاته، ولا يجد حرجاً في ذلك، وكأنّ الإلحاف في المسألة قد أصبح عادة لدى شعراء هذا العصر، وكأن الأمويين كان يروق لهم هذا الأسلوب الذي يخاطبهم به الشعراء؛ ليبقوا عليهم في حاجة إليهم دائماً لخدمة أهدافهم السياسية.

ولعل الشاعر الأحوص الأنصاري كان من الشعراء الذين جاهروا بطلب العطاء من الممدوح، فها هو يمدح عمر بن عبد العزيز مستنكراً مسألته بشيء من الذل، ولا سيما إذ صور نفسه وغيره بالنساء الأرامل، لما في هذه الصورة من إيحاءات بالإهانة والتطامن وإراقة ماء الوجه، يقول:

فَلا تَقْبَلَنَّ إلّا بالذي وافقَ الرِضَى ... ولا ترْجِعَنّا كالنِّسَاءِ الأراملِ[٤]

---

(١) أبو العباس المبرد، الكامل في اللغة والأدب، المجلد الثاني، ص٢٨٠.

(٢) المتوكل الليثي: المتوكل بن عبد الله بن نهشل الليثي من شعراء الحماسة، كناه المرزباني بأبي جهمة وقال: كان على عهد معاوية، ونزل الكوفة. (أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد السادس، ص٣٨١. والزركلي، الأعلام، ط١١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، المجلد الخامس، ص٢٧٥)

(٣) المتوكل الليثي ت(٨٥هـ/٧٠٤م)، شعر المتوكل الليثي، تحقيق: د. يحيى الجبوري، مكتبة الأندلس، بغداد، ص٢٠٤-٢٠٧. على بعد منتاب: على بعد بلاد، هول جنان: خوف القلب، تناهت: وصلت، البكر من الحاجات: التي لم يسبق لأحد أن احتاج إليها، العوان: الحاجات التي ألف الناس مثلها.

(٤) الأحوص الأنصاري ت(١٠٥هـ/٧٢٣م)، شعر الأحوص الأنصاري، تحقيق: عادل سليمان جمال، ط٢، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٢٢٩.

فهو لا يريد أن يعود خائبا من عند الخليفة، مهما كانت قيمة العطاء، ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان لا يأبه لمثل هذا الرجاء، ما دام الأمر يتعلق بأموال المسلمين ومصالحهم، وهو ليس مسؤولاً عما تعود عليه الشعراء إبان حكم الخلفاء الذين سبقوه، فليس طالب الآخرة كطالب الدنيا.

ولعل الفحول من شعراء العصر الأموي كانوا أشد إلحافا في المسألة من غيرهم، فالفرزدق يعد من أقطاب مدرسة التكسب بالشعر في العصر الأموي، فقد مدح متكسباً بالشعر، مجاهراً في كثير من مدائحه بطلب العطاء، مبالغا في تصوير ممدوحه بصورة الكريم الجواد الذي لا يجاريه أحد في هذا المضمار؛ فنسب الممدوح من أشرف الأنساب وأرفعها، والجن والإنس يمدان الأعناق إليه رغبة ورهبة، وهذا ما يظهر في مدحه الوليد بن عبد الملك قائلا:

تَصَعَّدَ جَدٌّ بالوليدِ إلى التي ... أرى كلَّ جَدٍ دونها يَتَصَوَّبُ
أرى الثقلين الجنَ والإنسَ أصبحا ... يمدان أعناقا إليك تَقَرَّبُ
وما منهما إلا يُرَجِّي كَرَامَةً ... بكَفَّيكَ أو يَخْشَى العِقَابَ فَيَهْرُبُ[1]

وعند مدحه هشام بن عبد الملك، فإن الفرزدق يصرّح بحاجته أمام الخليفة؛ فهو في أمان من الفقر ما دام في كنف الخليفة، وهذا النوال الذي سيأخذه من الخليفة سوف يقوم بإباحته لأبنائه وأقاربه ممن هم في أمس الحاجة إليه، يقول:

ومِنْ أينَ أخشى الفقرَ بَعْدَ الذي التقى ... بكفيك مِنْ مَعْروفِ ما أَنَا طَالِبُهْ
فإنّ ذَنوباً مِنْ سِجَالِكَ مَالِئٌ ... حياضيَ، فَأَفْرِغْ لي ذَنوباً أُنَاهِبُهْ
أُنَاهِبُهُ الأدنينَ والأبعَدَ الذي ... أتاكَ بِهِ مِنْ أبْعَدِ الأرضِ جَالِبُهْ[2]

وموقف الفرزدق هذا مع الخليفة، يدل على أن الشعراء كانوا رسل قومهم إلى بلاط الخلفاء والولاة، يقضون لقومهم حاجاتهم عند الحكام، ويطلبون لهم المدد والعون، مصورين فقرهم وحاجاتهم إلى الحماية ورفع الظلم عنهم.

وها هو جرير بن عطية يتوجه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان بقصيدة يصور فيها عوزه وقلة حيلته، متخذاً من حال زوجته وأبنائه قارباً يبحر به في بحر عبد الملك ابن مروان ليمتاح منه، بأسلوب أقرب إلى الكدية منه إلى المدح، فيقول:

---

(١) الفرزدق ت(١١٤هـ/٧٣٢م)، ديوان الفرزدق، ط١، دار صادر للطباعة والنشر، ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، ص٨٠، ٨١. يتصوَّبُ: ينحدر.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٨. الذَّنوب: الدلو الواسعة، السجال: الدلاء الممتلئة، الإنهاب: الإباحة.

اَغِثْنِي يا فِدَاكَ ابي وامي بسببٍ مِنْك إنَّكَ ذو ارْتِيَاحِ
فإنّي قَدْ رايتُ عليَّ حَقّاً زِيارَتِيَ الخليفةَ وامْتِدَاحِي
سَاَشْكُرُ اَنْ رَدَدْت عليَّ ريشي واَثْبَتَّ القوادِمَ في جَنَاحِي[١]

ولا إخال أنّ الخليفة تأثر لحال جرير وزوجته وأبنائه بمقدار ما تأثرمن قول جرير مادحا:

اَلَسْتُم خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايا واَنْدَى العالمينَ بُطُونَ رَاحِ[٢]

فقد اهتز عبد الملك طربا وقال: "كذلك نحن وما زلنا كذلك".[٣]

وفي قصيدة أخرى يمدح فيها جرير الخليفة عمر بن عبد العزيز، يجاهر جرير أيضا بطلب العطاء ويضع نفسه مع زمرة الفقراء، مشبها نفسه بابن السبيل؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد جعل للفقير وابن السبيل حقا معلوما من أموال الأغنياء، فيقول:

إنّ الذي بَعثَ النَّبي محمدا جَعَلَ الخِلافَةَ في الإمامِ العادلِ
إني لآمَلُ مِنْكَ خَيْراً عَاجِلاً والنَّفْسُ مُغْرَمَةٌ بِحُبِّ العَاجِلِ
واللهُ أنزلَ في الكتابِ فَرِيضَةً لابنِ السبيلِ وللفقيرِ العائِلِ[٤]

وفي هذه الأبيات يتضح مدى إلحاف الشاعر في المسألة، فهو يحاول استدرار العطاء من الخليفة، معتمدا على تشريع ديني في هذه القضية، وهذا التشريع يكفل جريرا وغيره من الفقراء وأبناء السبيل، فهو فريضة، وليس مِنّة، والشاعر يريد هذا العطاء عاجلا غير آجل.

وقد أورد صاحب الأغاني هذا الحوار بين الخليفة عمر بن عبد العزيز وجرير، لمّا سأل جرير الخليفة عمر بن عبد العزيز أربعة آلاف دينار تعود أخذها من الخلفاء قبل عهد عمر، فقال له عمر: أمّا أنا فما أرى لك في مال الله حقا. ولكنه أعطاه أربعين دينارا وخلعتين فلم يأخذهما، وخرج راضيا من عند الخليفة، وقال للشعراء: خرجت من عند رجل يقرّب الفقراء ويباعد الشعراء[٥].

---

(١) جرير بن عطية الخطفي ت(١١٤هـ/٧٣٢م)، ديوان جرير، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م،ص٧٧. الارتياح:التحرك للعطاء والهشاشة له، القوادم: عشر ريشات في مقدمة الجناح.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٧.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني،المجلد الرابع،ص٢٧٣. وينظر: الصفدي، الوافي في الوفيات،ج١١،ص٦٣.

(٤) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٣٣١.

(٥) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الرابع، ص٢٥٩.

وكما تكسب الفرزدق وجرير، فقد تكسب الكميت بن زيد أيضاً، ولم يخرج عن دائرة التكسب، فقد ألجأته ظروف الحياة إلى بني أمية، فاضطر إلى أن يمدحهم بأشعار تفوح منها رائحة التكسب والتملق، فيقول:

فالآنَ صِرْتُ إلى أميّـ ... ـةَ والأمورُ إلى مَصَائِر
ابني أميّةَ إنّكُمْ ... أهلُ الوسائِلِ والأوامِر
ثقتي بكُلّ مُلِمّةٍ ... وعشيرتي بينَ العَشَائِر
أنْتُمْ مَعَادِنُ للخلا ... فَةِ كابراً مِنْ بعدِ كابِر[1]

فالكميت يقرُّ في هذه الأبيات بحق الأمويين في الخلافة، وأنهم أهل لها أبا عن جد، وهذا مخالف لما عهد عن الكميت من مشايعته الهاشميين، ودفاعه المستميت عن حقهم في الخلافة بما أوتي من البيان وقوة الحجة. ولكنه في مدحه بني أمية كان مدفوعاً بدافع الطمع. ويروى أنه دخل على أبي جعفر محمد بن علي العباسي[2]، فقال: يا كميت، أنت القائل؟

فالآنَ صِرْتُ إلى أميّـ ... ـةَ والأمورُ إلى مَصَائِر

قال: نعم قد قلت، ولا والله ما أردت به إلا الدنيا، ولقد عرفت فضلكم، قال: أما أن قلت ذلك، فإن التقية لتحل[3]. وهذا دليل واضح على أنّ الكميت كان يتملق تملقاً في مدحه لبني أمية، بينما ولاؤه الحقيقي للعلويين. وليس غريباً أن يفعل الكميت ذلك مع الأمويين؛ فمبدأ التقية في عقيدة الشيعة يتيح للكميت أن ينهج هذا النهج مع بني أمية.

ويبدو أثر التكسب واضحاً في مدح الكميت خالداً بن عبد الله القسري، فهو ينسبه إلى الجود، حتى إنه ليجعل كرمه يفوق كرم حاتم الطائي، وكرم كعب بن مامة[4]. وهو لا يخلف وعده، ولا يحتجب عن طلاب المعروف والرزق، يقول:

---

(١) الكميت بن زيد الأسدي ت(١٢٦هـ/٧٤٣م)، ديوان الكميت بن زيد، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل الطريفي، دار صادر، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص١٣١.

(٢) أبو جعفر، محمد بن علي زين العابدين بن الحسين الطالبي الهاشمي القرشي، خامس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية ت(١١٤هـ/٧٣٢م). (خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٤، ص٧٦،٧٧.)

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد التاسع، ص٢٥.

(٤) كعب بن مامة بن عمر بن ثعلبه بن إياد، كريم جاهلي يضرب به المثل في حسن الجوار، فيقال: أجود من كعب بن مامة. (ابن حزم، علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري ت(٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، جمهرة أنساب العرب، مصر، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م، ص٣٠٨. والزركلي، الأعلام، المجلد الخامس، ص٢٢٩)

لو قيلَ للجودِ مَنْ حَليفُكَ ما ... إنْ كانَ إلّا إليكَ يَنْتَسِبُ
انتَ أخوهُ وانتَ صُورَتُهُ ... والرأسُ مِنْهُ وغيرُكَ الذَّنَبُ
لو انّ كَعْبَاً وحاتما نُشِرَا ... كانا جميعاً مِنْ بعضِ مَا تَهَبُ
لا تُخْلِفُ الوعْدَ إنْ وَعَدْتَ ولا ... انتَ عنِ المعتفينَ تَحْتَجِبُ[١]

وهذا الشعر بما فيه من مبالغات كان يروق بني أمية وولاتهم، ويقبلونه من الشعراء من أجل أن يكونوا بجانبهم ضد أعدائهم، وهذا ما دفع خالدا القسري إلى أن يعطي الكميت مائة ألف درهم[٢]. ويرى ابن قتيبة أنّ شعر الكميت في بني أمية أجود منه في الطالبيين، ويعزو ذلك إلى الطمع فيقول:"وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بني أمية وآل أبي طالب، فإنه كان يتشيع وينحرف عن بني أمية بالرأي والهوى، وشعره في بني أمية أجود منه في الطالبيين، ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة"[٣].

وبقليل من النظر في شعر كل من ابن قيس الرقيات والكميت، يمكن القول؛ إن هذا الشعر غايته التكسب، فهذا الشعر من الناحية الموضوعية لا يرتقي إلى مرتبة شعرهما السياسي الذي قيل في مدح زعماء حزبيهما، ومع ذلك كان الأمويون يطربون لأشعارهما؛ لأنها تمثل لهم شيئا كبيرا، كون هؤلاء الشعراء قد تحولوا إليهم، وهذا ما يسعى إليه الأمويون بغض النظر عن جودة هذا الشعر شكلاً ومضمونا.

وهذا شاعر آخر يدلي بدلوه في بحر التكسب، وهو الشاعر علباء بن منظور[٤] الذي مدح هشام بن عبد الملك بأبيات يصور فيها رحيله إلى الخليفة الذي يرحل إليه كل محتاج، فيعود من عنده غنياً بسبب عطاء الخليفة، وهذا العطاء، هو الذي يبعث في ديوان قومه الحياة بعد موته، يقول:

إنّي إلى مَلِكِ الشّامِ لَرَاحِلٌ ... وإليهِ يَرحلُ كُلُّ عبدٍ مُوقَرُ
إنّا أناسٌ مَيّتٌ ديوانُنَا ... ومتى يُصِبْهُ ندى الخليفةِ يُنْشَرُ[٥]

(١) الكميت بن زيد، ديوان الكميت، ص٢٥.
(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد التاسع، ص٢٧.
(٣) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، ص٧٩.
(٤) علباء بن منظور (لم أعثر له على ترجمة).
(٥) محمد بن جرير الطبري ت(٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الطبري/تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ج٧، ص٢٠٦.

وقد يلجأ الشعراء إلى الحيلة حتى يصل شعرهم إلى ممدوحيهم، كما فعل الشاعر موسى شهوات[١] الذي اتفق مع معبد المغني[٢]، أن يقول موسى شعراً في حمزة بن عبد الله بن الزبير، ويتغنى به معبد، فما أعطاه فهو قسمة بين الاثنين، فقال موسى مادحاً حمزة بن عبد الله بن الزبير:

حَمْزَةُ المُبْتَاعُ بالمالِ الثَّنَا ... ويُرى في بَيْعِهِ إنْ قَدْ غَبَنْ

وهْوَ إنْ أعطى عَطاءً كاملاً ... ذا إخاءٍ لم يُكَدِّرْهُ بِمَنْ

فغنى معبد الأبيات، فأعطاه حمزة مالاً فقاسمه موسى.[٣]

ولا يقتصر المديح في العصر الأموي على دافع التكسب فحسب، بل تعداه إلى منافع أخرى، كأن يمدح الشاعر ممدوحه على إحسانه إليه، أو وقوفه إلى جانبه في ملمة ألمت به، أو أنه تحمل شيئاً فوق طاقته، فخفف عنه الممدوح حمله، أو شفع الممدوح له عند ذوي الجاه والسلطان. وقد يمدح الشاعر ممدوحه خوفاً منه أو تملقاً ونفاقاً، والأمثلة على ذلك كثيرة، فهذا الشاعر عبد الله بن الزَّبير الأسدي يمدح عمرو ابن عثمان بن عفان؛ لأنه أسدى إليه يداً كان بحاجة إليها، وهي أنه رأى تحت ثياب الشاعر ثوباً رثاً، فاستقرض ثمانية آلاف درهم، فوجه بها إليه مع تخت من ثياب؛ فقال الشاعر مادحاً:

ساشكر عمراً إنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي ... أياديَ لم تَمْنُنْ وإنْ هي جلَّتِ

فتىً غيرُ مَحْجُوبِ الغِنَى عن صديقِهِ ... ولا مُظْهِرُ الشكوى إذا النَّعلُ زلَّتِ

رأى خَلَّتي مِنْ حيثُ يَخْفَى مَكَانُهَا ... فَكَانَتْ قذى عينيه حتى تجلَّتِ[٤]

فسيبقى الشاعر يشكر عمراً؛ لأنه كفاه شر الفقر، وأعطاه عطاءً جزلاً غير مقرون بمن، ولم يهدأ للممدوح بال حتى سدّ خلّة الشاعر، وكانت خافية إلا على

---

(١) موسى شهوات: هو موسى بن يسار المدني ت(١١٠هـ/٧٢٨م)، شاعر من الموالي، عاش بالمدينة ونزل بالشام في أيام سليمان بن عبد الملك، وهو من أهل أذربيجان. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج٢، ص٥٧٧. والزركلي، الأعلام، المجلد السابع، ص٣٣١)

(٢) معبد المغني: هو معبد بن وهب أبو عباد المدني، نابغة الغناء في العصر الأموي، كان مولى لبني مخزوم. (أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الأول، ص٦١. والزركلي، الأعلام، المجلد السابع، ص٢٦٤)

(٣) ينظر أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الثاني، ص٢٤٧. وينظر: أبو العباس المبرد، الكامل في اللغة والأدب، المجلد الثاني، ص٢٨١. وينظر: محمد بن عمران المرزباني ت(٣٨٤هـ/٩٩٤م)، معجم الشعراء، صححه وعلق عليه: ف. كرنكو، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص٢٥٦، ٢٥٧.

(٤) عبد الله بن الزبير الأسدي ت(٧٥هـ/٦٩٤م)، شعر عبد الله بن الزبير الأسدي، جمع وتحقيق: د. يحيى الجبوري، طبعة وزارة الإعلام، بغداد، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ص١٤٢.

الممدوح الذي استطاع أن يلمح ذلك بنور بصيرته وقوة ملاحظته. وهذه اليد التي سلفت من عمرو بن عثمان إلى الشاعر، كانت ديناً مستحقاً، حلّ وفاؤه، وحان سداده، فكانت هذه الأبيات التي تدل على صدق قائلها ووفائه وإخلاصه لممدوحه.

ونظير هذا الوفاء،يمكن ملاحظته أيضاً عند الشاعرعبيد الله بن قيس الرقيات في مدحه عبدالله بن جعفر بن أبي طالب[١] جزاءً لمعروف أسداه إليه،وكان قد استأمن للشاعر من عبد الملك بن مروان، فأمّنه،وعندما حرمه عبدالملك عطاءه، أمر عبدالله بن جعفر الشاعر أن يقدّر لنفسه ما يكفيه طول حياته، ففعل ذلك؛ فأعطاه ما سأل، وعوضه عن عطائه أكثر منه؛ إذ رتب له أربعين ألف درهم في كل سنة إلى أن يموت[٢]. وتلك مكرمة تستحق الثناء، وتطلق اللسان، وكان الشاعر على حق في مدحه له حين يقول:

إذا زرتُ عبدَ الله نفسي فداؤُهُ ... رَجَعْتُ بفضلٍ مِنْ نَداهُ ونَائِلِ
تَدارَكَنِي عبدُ الإله وقد بَدَتْ ... لذي الحقِّ والشَّنآنِ مِنّي مَقاتِلي
فَأَنقَذَنِي مِنْ غمرةِ الموتِ بعدما ... رأيتُ حياضَ الموتِ جُمَّ المناهِلِ[٣]

فهذا مديح ينبئ عن عظيم الوفاء لممدوح تدارك الشاعر، وقد بدت مقاتله لشانئيه، فأنقذه من براثن الموت، بعد أن كان سيف المنية مصلتاً على عنقه، فليس غريباً أن يفديه بنفسه، ما دام الأمر يتعلق بإنقاذ حياته، وإعادة بهجة الحياة إليه من جديد، بعد ذهابها بذهاب الحزب الزبيري.

ولا يقل الأخطل التغلبي إخلاصاً لممدوحه عن ابن قيس الرقيات، فقد روي[٤] أن الأخطل هجا الأنصار، فجاء شاعر الأنصار النعمان بن بشير الأنصاري إلى معاوية ابن أبي سفيان شاكياً، ويطلب إليه أن يهب له الأخطل قائلاً:

أَيشْتُمُنَا عبدُ الأراقِمِ ضَلَّةً ... وماذا الذي تجدي عليك الأراقمُ
فما لي ثأرٌ دونَ قَطْعِ لِسَانِهِ ... فدونك مَنْ يُرضِيه عنك الدراهمُ[٥]

---

(١) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الجواد، وكان يسمى بحر الجود، وهو أول مولود في الإسلام بالحبشة ت(٨٠هـ/٦٩٩م). (الوافي في الوفيات، ج١٧، ص٥٩)

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الثالث، ص٥٦،٥٧.

(٣) عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، ص١٨٩. الشنآن: البغض، جَم: كثير، المناهل: مفردها منهل وهو مكان الشرب.

(٤) ينظر: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الثامن، ص٢٩٢.

(٥) النعمان بن بشير الأنصاري ت(٦٥هـ/٦٨٤)، شعر النعمان بن بشير الأنصاري، تحقيق: د. يحيى الجبوري، ط١، مطبعة المعارف، بغداد، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص١٥١.

فاستجاب معاوية لطلب النعمان بن بشير، ولكن يزيد بن معاوية شفع للأخطل عند أبيه وحماه من النعمان بن بشير، فلم ينسَ الأخطل هذا الموقف ليزيد، وظل يمدحه دائما ذاكرا هذا المعروف وهذه اليد. يقول:

أما يزيدُ فإنّي لستُ ناسيَه ... حتى يُغَيبَني في الرَّمسِ مَلْحُودُ
جزاكَ ربُّكَ عَنْ مُسْتَفْرَدٍ وَحَدٍ ... نفاهُ عن أهلِهِ جرمٌ وتشريدُ
مُسْتَشْرَف قد رماه الناس كلُّهُمُ ... كأنّه من سَمُومِ الصَّيفِ سَفّودُ
جزاءَ يوسفَ إحساناً ومغفرةً ... أو مثلما جُزْيَ هارونٌ وداودُ[1]

فهو يمدح يزيد منوها بحمايته له، وهو وحيد قد تخلى عنه الجميع، ولن ينسى فضل يزيد عليه ما دام حيا، ويطلب من الله أن يثيب يزيد على عمله بما أثاب به الأنبياء يوسف وهارون وداود عليهم السلام.

ولا يقتصر مدح الأخطل على يزيد بن معاوية، وإنما تعداه إلى عكرمة الفياض[2] الذي تحمّل عن الأخطل حمالتين؛ أعطاه إحداهما عينا، والأخرى غرضا، بعد أن منعه غيره. ويشيد الأخطل بهذا الموقف الذي وقفه عكرمة الفياض،واصفا إياه بالكرم، وأنه كفاه ذلّ السؤال، وأنّ منّه قد تعدى الشاعر إلى ربيعة كلها، وهو في كرمه لا يعدله أحد، فليس ماء الفرات كالماء القليل الناضح، يقول في مدحه عكرمة:

إنّ ابنَ ربعيٍّ كفاني سيبُهُ ... ضِغْنَ العدو ونَبْوَةَ البُخّالِ
ولقد مَنَنْتَ على ربيعةَ كلّها ... وكَفَيْتَ كلَّ مُواكِلٍ خدّالِ
وإذا عَدَلْتَ به رجالاً لم تجدْ ... فيضَ الفراتِ كراشحِ الأوشالِ[3]

فلما سمع عكرمة هذا الشعر ،جعل يبتهج ويقول:"هذه والله أحب إليّ من حُمر النعم.[4]

(١) الأخطل التغلبي ت(٩٢هـ/٧١٠م)، شعر الأخطل، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الأصمعي بحلب، ج١، ص٩٧. الرمس: القبر، الملحود: القبر ذو الشق المائل إلى جانب الحفرة، الوَحَد: الوحيد المنفرد، مُستشرَف: مظلوم، السفود: قضيب يشوى عليه اللحم.

(٢) عكرمة بن ربعي الفياض، كان كاتبا لبشر بن مروان. (أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الرابع، ص٤٤٣)

(٣) الأخطل، شعر الأخطل، ج١، ص١٤٠،١٤١،١٤٢. الأوشال: جمع وشل وهو الماء القليل الراشح.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الرابع، ص٤٤٣.

وهذا المدح يدل على أنّ المنفعة كانت متبادلة بين الشاعر والممدوح؛ فالشاعر مهما قال من شعر فلن يفي الممدوح حقه، والممدوح يرى أنّ عطاءه للشاعر قليل، مقارنة مع هذا الشعر الذي تطرب له نفس الممدوح.

وكذلك يفعل الشاعر أبو وَجْزَةَ السُّلمي المعروف بالسعدي[١] حين يمدح آل الزبير بأبيات يذكر فضلهم عليه، ويفضلهم على غيرهم ممن يضربون مادحيهم، ولذلك قصة؛ وهي أن أبا وجزة السعدي وشاعراً آخر يقال له:"أبو زيد الأسلمي[٢]" اصطحبا، فقال أبو وجزة: هلمّ فلنشترك فيما نصيبه، فقال أبو زيد الأسلمي: كلا، أنا أمدح الملوك، وأنت تمدح السوقة، فلما دخلا المدينة، صار أبو زيد إلى إبراهيم بن هشام[٣] وإلى المدينة فأنشده.

يا ابنَ هشامٍ يا أخا الكرامِ

فقال إبراهيم: "وإنما أنا أخوهم، وكأني لست منهم" ثم أمر به فضرب بالسياط، وامتدح أبو وجزة آل الزبير، فكتبوا له بستين وسقاً من تمر، وقالوا: هي لك عندنا كل سنة، فانصرف، فقال مادحاً آل الزبير ومعرضاً بإبراهيم بن هشام:

راحَتْ رواحاً قَلُوصي وهي حامِدةٌ ... آلَ الزُّبَيْرِ ولم تَعْدِلْ بهم أحَداْ
راحت بستينَ وَسْقاً في حقيبتِها ... ما حَمَلَتْ حَمْلها الأدنى ولا السَّدَدَا
ما إنْ رأيتُ قلوصاً قبلها حَمَلَتْ ... ستين وَسْقاً ولا جَابَتْ به بَلَدَا
ذاك القِرَى لا قِرَى قومٍ رأيتهُمُ ... يُقْرونَ ضيفَهُمُ الملويةَ الجُدُدَا[٤]

فقلوص أبي وجزة تثني على آل الزبير، لأنهم حملوها حملاً بنوء بله كاهلها، وإنه لحمل لم تتعود عليه، ولم تحمله قلوصا غيرها، وهذا العطاء هو عطاء قوم يكرمون ضيفهم، وليسوا كمن أقروا ضيفهم السياط الجديدة الصنع.

---

(١) أبو وجزة السعدي، اسمه يزيد بن عبيد، انتسب إلى بني سعد بن بكر بن هوازن لولائه فيهم، كان من التابعين، وروى عن جماعة من أصحاب الرسول ﷺ، ت(١٣٠هـ/٧٤٧م). (أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد السادس، ص٤٣٩ وما بعدها)

(٢) أبو زيد الأسلمي: لم أعثر له على ترجمة.

(٣) إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي القرشي، أمير المدينة المنورة، وخال هشام بن عبد الملك، اشتهر بشدته وعتوه، عزله هشام سنة ١٥٥هـ/٧٧١م فانقطع خبره. (المصعب بن عبد الله الزبيري ت(٢٣٦هـ/٨٥٠م)، نسب قريش، صححه وعلق عليه إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م، ص٢٤٦. والزركلي، الأعلام، المجلد الأول، ص٧٨)

(٤) أبو العباس المبرد، الكامل في اللغة والأدب، المجلد الأول، ص٢٥٠، ٢٥١. الوسق: ستون صاعاً، السّدَد: الحمل المعتاد، الملوية الجدد: السياط الحديثة الصنع.

ويدلي الشاعر القطامي بدلوه في هذا المضمار، حيث يمدح زفر بن الحارث[١] القيسي، الذي أسر الشاعر فيمن أسره من قومه، فمنّ عليه وأطلق سراحه، وأعطاه مائة من الإبل، وفيه يقول القطامي:

مَنْ مبلغ"زفر القيسيّ" مِدْحَتَه ... مِنَ القطاميِّ قولاً غيرَ أفْنَادِ
إنّي وإنْ كان قومي ليس بينهمُ ... وبينَ قومِك إلا ضَرْبَةُ الهادِي
مُنّ عليك بما استبقيتَ مَعْرفَتِي ... وقد تعرض مِنّي مَقْتَلٌ بادِي
فإن قدرتُ على شيءٍ جَزيتُ به ... واللهُ يجعلُ أقواماً بِمِرْصَادِ[٢]

فالقطامي يثني على زفر بن الحارث ثناءً صادقاً، لأنه ملك ناصيته، ثم أعتقه، ومنّ عليه وقد بدت مقاتله، على الرغم مما بين قوم زفر وقوم الشاعر من عداوة وحروب ودماء، ويقول؛ إنه لن ينسى له هذه اليد، وإذا اعتدل الزمان به وقدر على مكافأة زفر، فإنه سوف يجزيه الجزاء الأوفى. "فلما بلغ زفر قوله قال: لا اقتدرت على ذلك اليوم"[٣].

وقد بقي القطامي مدة طويلة يلهج بذكر زفر بن الحارث، منوهاً به، ومسجلاً هذه المأثرة العظيمة. ولكن ما الذي دفع زفر بن الحارث إلى أن يمنّ على الشاعر من بين قومه، وقد فعل بهم زفر ما فعل؟ أليس الدافع الأول لذلك هو حب الثناء الذي كان يرجوه زفر مقابل هذه المكرمة؟ أليس ذلك طمعاً في أن يوصف بالكرم والعفو عند المقدرة؟ أليس طمعاً في أن يسير الركبان، وهم يتغنون بهذا الشعر الذي بقي خالداً يحيي ذكر زفر على مر الأزمنة؟. لقد كان زفر يعرف كيف يصطنع الشعراء، ويستميل الأصدقاء؛ لقد كان زفر محقاً في ذلك، وكان القطامي محقاً أيضاً عندما قال:

ومَنْ يكن اسْتَلَمَ إلى ثَوىً ... فقد أكرمتَ يا زفرُ المَتَاعَا

---

(١) زفر بن الحارث: أبو الهذيل، ويقال أبو عبد الله الكلابي، شهد صفين أميراً على قنسرين، وشهد وقعة مرج راهط زيدياً مع الضحاك بن قيس، مات أيام عبد الملك بن مروان سنة ٧٥هـ/٦٩٤م. (الصفدي، الوافي في الوفيات، ج١٤، ص١٣٤)

(٢) القطامي، عمرو بن شييم ت(١٣٠هـ/٧٤٧م)، ديوان القطامي، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، ط١، دار الثقافة،بيروت، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م،ص٨٤-٨٧. الفند:الخطأ في الرأي والقول، الهادي:العنق لأنها تتقدم على البدن.

(٣) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص٥٣٧. وينظر: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الثاني عشر، ص٢١٤،٢١٥.

أكفرا بعد ردِّ الموتِ عنّي وبعدَ عطائِكَ المائةَ الرتاعا
فَلَو بيديْ سِواكَ غَداةَ زلّتْ بيَ القدمانِ لم أرجُ اطّلاعَا[١]

فزفر بن الحارث قد أكرم ضيفه، وأحسن وفادته في موقف لو وقع الشاعر فيه بين يدي أحدٍ غير زفر بن الحارث، لكان له معه شأن آخر، فكيف ينكر الشاعر هذا المعروف،وهذا الجميل الذي طوقه به الممدوح، فقد رد إليه روحه،وأعطاه عطاءً جزلاً.

وقد يكون المديح موجهاً إلى الممدوح ليس طمعاً في الكسب، أو وفاءً له، بل قد يكون طلباً للعفو مقروناً بالاعتذار أحياناً عن فعلة فعلها الشاعر، فتمكّن الممدوح منه، وهذا ما كان يحدث مع كثير من الشعراء ممن يغضب عليهم الخلفاء والولاة، فيهدرون دمهم، ويتوعدونهم، فيفرون ويهيمون على وجوههم، ثم يعودون بحكم الظروف السياسية طالبين العفو، معتذرين عما بدر منهم، ومقدمين المدح بين يدي هذا الاعتذار؛ كما فعل العُدَيْل بن الفرخ العجلي[٢] الذي كان هارباً من الحجاج، فجعل لا يحل ببلدة إلا ربع لأثر يراه من آثار الحجاج فيهرب حتى أبعد، وفي ذلك يقول:

يُخشُّونَني الحَجّاجَ حتى كأنّما يُحَرِّكُ عظمٌ في الفؤادِ مَهيضُ
ودون يدِ الحَجّاجِ مِنْ أنْ تَنالَني بِساطٌ لأيدي اليعْمُلاتِ عَريضُ[٣]

ولكنه لجأ في النهاية إلى قيصر الروم، فهدد الحجاج قيصر الروم من أجله قائلاً: "والله لتبعثن به أو لأغزينك خيلاً يكون أولها عندك وآخرها عندي، فبعث به إلى الحجاج"[٤]، فلما تمكّن منه الحجاج وذكره بالبيتين السابقين، قال مادحاً الحجاج:

فلو كنتُ في سلمى أجَا وشعابِها لكانَ لحَجّاجٍ عليَّ دليلُ
خليلُ أميرِ المؤمنينِ وسيفُهُ لكلِّ إمامٍ مُصْطَفىً وخليلُ
بنى قبةَ الإسلامِ حتى كأنّما هدى الناسَ مِنْ بعد الضَّلالِ رَسُولُ[٥]

ولا يخفى ما في هذا المديح من تصنع وتكلُّف؛ مبعثه الخوف والرجاء. فالشاعر بين يدي رجل أيسر أنواع العقاب عنده القتل، فلا بد من التصنع والتكلُّف، إن كان ذلك

(١) القطامي، ديوان القطامي، ص١٣٧. استلام: من اللوم، الثوي: الضيف المقيم.
(٢) العديل بن الفرخ بن معبد بن الأسود العجلي، شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية، ت(١٠٠هـ/٧١٨م). (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، ص٤١٣. والزركلي، الأعلام، المجلد الرابع، ص٢٢٢)
(٣) أبو العباس المبرد، الكامل في اللغة والأدب، المجلد الثاني، ص١٢٧. يخشوننني: يخوفونني، مهيض: مكسور، اليعملات: النوق السريعة.
(٤) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، ص٤١٣.
(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٤١٤. ينظر: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الحادي عشر، ص٤٩٣.

يؤدي إلى النجاة، فالشاعر مُدرِكٌ من الحجاج أينما ذهب، والحجاج خليل أمير المؤمنين وسيفه الذي سلطه على رقاب أعدائه، فأقام به صدع الدين، وأعاد الناس إلى جادة الصواب بعد أن غرقوا في ظلمات الفتن والبدع.

وقد يفصح الشعراء عما في نفوسهم من كره بعض الممدوحين أحيانا، ويصرحون بأنهم لم يمدحوهم حبا ولا تعصبا ولا وفاءً، بل من أجل المنفعة؛ فهذا كثيّر عزة يصرح بأنه ما مدح بني أمية إلا طمعا في جوائزهم؛ فقال لأبي جعفر محمد بن علي العلوي لما لامه في هذا المدح: "لم أقل ... يا إمام الهدى، إنما قلت: يا شجاعَ، والشجاع حية، ويا أسد، والأسد كلب، ويا غيث، والغيث موات! فتبسم أبو جعفر"[١]. فكثير يقول علانية إنّ مدحه لبني أمية لم يكن بدافع الولاء لهم، ولا حبا فيهم، بل كان نفاقا وتملقا ورغبة في العطاء، وليس أدل على ذلك من تلك الصفات التي يصف بها بني أمية في شعره –إذا تم استثناء عمر بن عبد العزيز– فهو يصفهم بأوصاف لا يصف بها أئمته من الشيعة. "وكان آل مروان يعلمون بمذهبه، فلا يغيّرهم ذلك؛ لجلالته في أعينهم، ولطف محله في أنفسهم"[٢]. وقد عرف عبد الملك ذلك منه أثناء خروجه لقتال مصعب بن الزبير، إذ رأى كثيّرا مطرقا، فدعا به وحلف عليه لكي يصدقه القول إذا أخبره بما في نفسه، ففعل كثيّر، فقال له عبد الملك: تقول رجلان من قريش يلقى أحدهما صاحبه فيحاربه، القاتل والمقتول في النار، فما معنى سيري مع أحدهما إلى الآخر، ولا آمن سهما عابرا لعله يصيبني فيقتلني فأكون معهما! قال كثيّر: والله يا أمير المؤمنين ما أخطأت. فقال له عبد الملك: فارجع من قريب وأمر له بجائزة[٣]. ويفصح كثيّر عزة عن الشيء نفسه عندما سأله محمد بن علي الطالبي قائلا: تزعم أنك من شيعتنا، وتمدح آل مروان؟! فقال: "إنما أسخر منهم فأجعلهم حيات وعقارب وآخذ أموالهم"[٤]. وواضح ما في هذه الروايات من دليل على أن كثيرا من الشعراء كانوا يمدحون بني أمية من أجل المنفعة وتملقا لهم وخوفا من جبروتهم وسطوتهم.

---

(١) أبو القاسم الشريف المرتضى ت(٤٣٦هـ/١٠٤٤م)، أمالي المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، القسم الأول، ص٦٩. وينظر: المرزباني، أخبار الشيعة، تلخيص: محسن الأمين العاملي، تحقيق: محمد هادي الأميني، ط١، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص٦٠.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الخامس، ص٦.

(٣) المصدر نفسه، المجلد الخامس، ص١٧.

(٤) المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، وقف على طبعه واستخراج فهارسه: محب الدين الخطيب، ط٢، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ص١٣١.

المبحث الثاني

الدوافع السياسية والدينية

من المميزات التي تميز بها العصر الأموي الانقسامات السياسية والدينية، كما تميز بكثرة الفتن والحروب التي طبعت هذا العصر بطابع دموي، ونزاع مرير على السلطة بين أبناء الأمة الواحدة؛ هذا العصر كان عصر أحزاب سياسية؛ كل حزب منها يسعى إلى الوصول إلى السلطة، ويرى أنه أحق من غيره بالخلافة، فالأمويون يرون أنفسهم أحق بالخلافة؛ لأنهم المطالبون بدم عثمان الذي قتل ظلما، ويرون أنفسهم أولياء دمه، ومن حقهم تأديب الخارجين على الشرع ممن قاموا بقتل عثمانﷺ. كذلك يرى الأمويون أنهم أحق بالخلافة؛ لأن زعامة قريش كانت لهم قبل البعثة النبوية.

والزبيريون يرون أنّ بني أمية اغتصبوا الخلافة، وقصروها على البيت الأموي، وأنّ الخلافة ليست مقصورة على الأمويين، بل هي لعامة قريش، كما غضب آل الزبير لتحول الخلافة من الحجاز إلى الشام.

والخوارج يرون أن تكون الخلافة شورى بين عامة المسلمين، ولا تقتصر على قريش وحدها.

والعلويون يرون أن تكون الخلافة في آل البيت من أبناء علي بن أبي طالبﷺ.

وهكذا كان التنازع والتناحر السياسي هما طابع العصر الأموي؛ فالسياسة في العصر الأموي كانت تدور في فلك الخلافة، فالكل يدعيها لنفسه زاعما أنه أحق بها وأهل لها. فلذلك انبرى كل حزب من هذه الأحزاب يحشد الأنصار والمؤيدين الذين يرون رأيه في مسألة الخلافة، وراح يُجيّش الجيوش عندما لا يجدي الرأي المدعوم بالحجة نفعاً. فكثرت النزاعات، واستعرت الحروب. وهذا الوضع الخطير أدى إلى أن يكون الأمويون غرضاً لرماة الأحزاب الأخرى "وكان الأمويون في نظر الكثيرين لا يمثلون الحكام الجديرين بالدولة الإسلامية؛ لأنهم عَادَوا الإسلام في أولَ ظهوره، وبذلك كانوا يعدون مغتصبين للخلافة"[1] وهذا الحق المغتصب هو الذي دفع الآخرين للثورة على بني أمية، وهو الذي دفع شعراء هذه الأحزاب إلى تعرية الحزب الأموي من هذا الكسب السياسي الذي يرون أنهم ليسوا أهلا له.

---

(١) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي/العصر الإسلامي،ط٣،دار المعارف،مصر،١٣٨٣هـ/١٩٦٣م،ص١٨٣.

ولما كان الشعر وسيلة الإعلام الأقوى في تلك المدة، فقد وظفه الأمويون في سبيل الدفاع عن حقهم في الخلافة "إذ كان الشعر يجري على كل لسان، واتخذه الأمويون وخصومهم أداة للتعبير عن آرائهم السياسية المختلفة"(١). من هنا كانت الحاجة ملحة إلى الشعر؛ لذلك انبرى الأمويون لاستمالة الشعراء وتقريبهم من أجل الوقوف في وجه شعراء الأحزاب الأخرى، ومن أجل دحض أقوالهم، وتصوير الأمويين بأنهم أهل الرياسة كابراً عن كابر.

وقد وجد الأمويون استعداداً لدى كثير من الشعراء لتأدية هذه المهمة، وتلبية هذه الرغبة، وتوافد الشعراء إلى البلاط الأموي، مدفوعين بكرم خلفائه وولائهم، "وأدرك الخلفاء دور الشعر في حياة العرب، وحاجة الشعراء إلى المال، فراحوا يشترون منهم المديح ويذيعونه في الناس لتأييد سلطانهم"(٢). "واستغلالاً لهذه القيمة اعتمد رجال السياسة على الشعراء في بلوغ مآربهم، فسخّروهم لها، واشترى الأمويون أقوالهم وضمائرهم بأعطيات جزيلة، وذاق الشعراء حلاوة العطاء، فشغلهم عن كل شيء آخر، وهان في أعينهم أن يثني الواحد منهم على أمير من الأمراء ببضعة أبيات من الشعر ليتقاضى لقاءها مبلغاً من المال يسد به حاجات كثيرة"(٣).

ولقد برع الأمويون في استقطاب الشعراء؛ وذلك لما يتميز به الأمويون من حنكة سياسية وقدرة على استمالة الأصحاب والأشياع، فكانوا بحق ساسة دهاة، يتمتعون بسعة الصدر وكظم الغيظ وسخاء اليد والتغاضي عن هفوات الآخرين، والعفو عند المقدرة؛ كل هذا أدى إلى أن ينحاز معظم شعراء العصر الأموي إلى جانبهم "ولقد كان الأمويون يصطنعون شعراء خاصين بهم، يقفون شعرهم على السياسة، ويخدمونها بكل إخلاص، كالأخطل التغلبي وأبي العباس الأعمى، وكانوا يشترون أشعاراً إضافية من جرير ومن الفرزدق ومن راعي الإبل ومن سلك مسلكهم من شعراء العصر؛ وذلك كي يتسع أمامهم مجال تأليف القلوب وإضعاف المعارضة وإشاعة الطمأنينة والاستقرار في نفوس الناس جميعاً"(٤).

---

(١) د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ط١٩٣.، ص١٩٣.

(٢) د. وهب رومية، قصيدة المديح حتى نهاية العصر الأموي بين الأصول والإحياء والتجديد، دمشق، ١٤٠٩هـ/١٩٨١م، ص٣١٩.

(٣) أحمد أبو حاقة، فن المديح وتطوره في الشعر العربي، ص٣٨،٣٩.

(٤) المرجع نفسه، ص٤٥.

ويمكن القول؛ إنّ أغلب الشعر الذي كان يقال في بلاط الأمويين، كان ينطبع بطابع السياسة، ويسير في ركب الهوى الأموي، وكان المديح السياسي جزءاً من هذا الشعر، إذ يظهر من مديح الشعراء للأمويين أن هذا الشعر يسير جنباً إلى جنب مع تيار السياسة التي كانت سائدة في ذلك العصر.

ومن الموضوعات التي طرقها الشعراء في مديحهم السياسي في العصر الأموي موضوعان: الموضوع الأول: هو الخلافة، والموضوع الثاني: هو ولاية العهد. أمّا الموضوع الأول، فكان يجري التنازع عليه بين الأمويين وبقية الأحزاب الأخرى. وأمّا الموضوع الثاني،فكان النزاع فيه يدور في أروقة البلاط الأموي نفسه،وبين أبنائه.

وقد وجد الشعراء في هذين الموضوعين مرتعاً خصباً وميداناً واسعاً، يُظهرون من خلاله ولاءهم للممدوح، ويتقربون إليه، بغض النظر عن الدوافع التي دفعتهم إليه. وكانت الخلافة هي الشغل الشاغل لساسة ذلك العصر، كل يدعي أنه أهل لها وصاحب الحق فيها، وكان الشعراء يضربون لهم على هذا الوتر السياسي الحساس، مؤيدين أقوالهم داحضين رأي خصومهم. وكان الشعراء يؤيدون حق الأمويين في الخلافة "بالإلحاح على انتمائهم إلى قريش ومكانتهم فيها، وأنهم أولياء دم عثمان بن عفان ووارثوه، ولعل هذين هما المعنيان السياسيان البارزان في شعر أولئك الشعراء"[١] ويمكن إضافة معنىً ثالثٍ؛ وهو أنّ الله اختار بني أمية للحكم وفضلهم على غيرهم، وأنهم ما جاءوا للحكم إلا بإرادة الله ومشيئته. وهذه المعاني برزت بشكل واضح في شعر شعراء البلاط الأموي، فهذا كعب بن جعيل[٢] يرى أنّ خلافة معاوية بن أبي سفيان خلافة شرعية لأفضليته في قريش، فيقول:

كان أبا موسى عَشيَّة أذرحٍ ... يطوفُ بلقمانَ الحكيمِ يوارِبُهْ

ولما تَدارَوا في تراثِ محمدٍ ... سَمَتْ بابنِ هندٍ في قريشٍ مَضَارِبُهْ[٣]

---

(١) د. محمد عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٣٠٩.

(٢) كعب بن جعيل بن قمير بن عجرة التغلبي، شاعر تغلب في عصره، مخضرم، عُرف في الجاهلية والإسلام، قال عنه المرزباني: هو شاعر معاوية بن أبي سفيان وأهل الشام، توفي سنة ٥٥هـ/٦٧٠م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج٢، ص٦٤٩. والزركلي، الأعلام، المجلد الخامس، ص٢٢٥،٢٢٦)

(٣) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الثاني، ص٥٧٤.

فهذه المداراة بين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص، أدت إلى فوز معاوية بتراث محمدﷺ، وهذا التراث هو الخلافة؛ وذلك لأن معاوية سمت به جذوره العريقة في شجرة قريش، فهو أحق بالخلافة لأنه ينتمي إلى بيت عز وشرف في قريش.

ويحذو الشاعر عبد الله بن الزبير الأسدي حذو الشاعر كعب بن جعيل، ولكنه يمدح عبد الملك بن مروان عندما قتل عبد الله بن الزبير بن العوام، واصفاً إياه بأنه من أعالي قريش وأنّ بني أمية أحرزوا قصب السبق في ميدان العزة والرفعة والمجد، ثم يضع عبد الملك إماماً لقريش، بينما تعس جد ابن الزبير ومشى القهقرى، فيقول:

مشى ابنُ الزُّبير القَهْقَرى فَتَقَدَّمَتْ ... أميّةُ حتى أحرزوا القصَبَاتِ

وجئت المجلّى يا ابنَ مروانَ سابقاً ... أمامَ قريشٍ تَنْفُضُ العُذَرَاتِ[1]

وكان الشاعر الأخطل من الشعراء الذين شاركوا في مضمار المديح السياسي في العصر الأموي، فلم تمنعه نصرانيته من تأييد الأمويين بكل ما أوتي من حجة وقوة بيان، "فكان يجهر بمديح أفعالهم، وإن بلغت أقصى حدٍ من تنفير كل مسلم، وأن يَصُبّ سجال سخريته وهجائه على السادة الأتقياء في مكة والمدينة، الذين كان الأمويون أبعد الناس عن الارتياح إليهم"[2].

ويعد شوقي ضيف عصر عبد الملك بن مروان العصر الذهبي للأخطل، فقد نزل منه منزلة الشاعر الرسمي للدولة، وآثره على جميع معاصريه من الشعراء[3]. وكان الأمويون يتغاضون عن شعره الذي يمس جانب الدين في سبيل استمالته إليهم، مكافأة له على تأييد رأيهم السياسي، وكان أغلب شعره يدور حول مدح الأمويين، والدفاع عن حقهم في الخلافة، فقد أقحم نفسه في خضم السياسة في العصر الأموي، ففي قصيدة يمدح بها بشر بن مروان يطرق جوانب السياسة، إذ يتهم قيس عيلان وابن الزبير بمحاولتهم سرقة الخلافة من بني أمية، واصفاً إياهم باللصوصية، وأنهم ليسوا بشيء، إذ ما قورنوا برأس قريش وهو أبو العاص جد بني أمية، ثم يشير إلى بني أمية مادحاً إياهم بأنهم أخذوا ثأر عثمان بن عفانﷺ، وأنهم أخمدوا الفتن، فهم بذلك أحق من غيرهم بالخلافة التي جنوا ثمارها، يقول:

---

(١) عبد الله بن الزبير الأسدي، شعر عبد الله بن الزبير الأسدي، ص٦٤.

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبد الحليم النجار، ط٤،دار المعارف،مصر،ج١، ص٢٠٥.

(٣) د. شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص٢٦٢.

فالله لم يرضَ عن آلِ الزبيرِ ولا ... عن قيسِ عيلانَ طالَمَا خَرَبُوا
يعاظمون أبا العاصي وهم نفرٌ ... في هامةٍ من قريشٍ دونها شَذَبُ
همْ سعوا بابن عفانَ الإمامِ وهمْ ... بعد الشّماسِ مَرَوها ثمَّتَ احْتَلَبُوا[1]

ويبدو الدافع السياسي واضحا في قول أعشى ربيعة[2] مادحا عبد الملك بن مروان وهاجيا آل الزبير:

آلُ الزبيرِ مِنَ الخلافةِ كالتي ... عَجِلَ النّتاجُ بِحَمْلِها فَأَحَالَها
أو كالضّعافِ من الحمولة حُمِّلَتْ ... ما لا تُطيقُ فَضَيَّعَتْ أحْمالَهَا
قوموا إليهمْ لا تناموا عنهمُ ... كم للغواةِ أطلتموا إمْهَالَهَا
إنّ الخلافةَ فيكمُ لا فيهمُ ... ما زلتمُ أركانَها وثِمَالَهَا
امْسَوا على الخَيْراتِ قُفلاً مُغْلَقاً ... فانهضْ بِيُمْنِكَ فافتتحْ أقْفَالَهَا[3]

وهذا مديح مشوب بالمعاني السياسية، فالأمويون هم أهل الخلافة، وهم أركانها وثمالها، وآل الزبير ليسوا أهلا لها؛ لأنهم ضعفاء لا يطيقون هذا الحمل، فضلا عن كونهم غواة وأيديهم مغلولة عن العطاء والبذل كما يزعم أعشى ربيعة.

ويفعل الشاعر أبو العباس الأعمى[4] الشيء نفسه مع بني أمية، إذ يمدحهم ويحرضهم على عبد الله بن الزبير، واصفا إياهم بالحلم وسعة الصدر، مؤيدا حقهم في الخلافة، لأن اختيارهم للخلافة كان عن مشيئة من الله، ورغما عن أنوف الحاسدين والحاقدين والكارهين، ثم يشير إلى أنهم أطمعوا عدوهم فيهم بسبب حلمهم وسعة صدورهم، حتى سما هذا العدو إلى التطلع إلى منصب الخلافة الذي لا يصلح إلا لبني أمية أهل الحلم وأهل المروءات، فيقول:

أبني أميّةَ لا أرى لكمُ ... شبهاً إذا التقّتْ الشّيَعُ

---

(١) الأخطل التغلبي، شعر الأخطل، ج١، ص٨٤،٨٥. خَربوا: سرقوا، الشذب: الشوك والقشر، يفاظمون: يفاخرون، الشّماس: النفور والاستعصاء، مروها: استدروا لبنها.

(٢) أعشى ربيعة: عبد الله بن خارجة بن حبيب، شاعر إسلامي من ساكني الكوفة، وكان مرواني المذهب شديد التعصب لبني أمية، توفي سنة ١٠٠هـ/٧١٨. (أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد التاسع، ص٣٤٤. والزركلي، الأعلام، المجلد الرابع، ص٨٤)

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد التاسع، ص٣٤٥. ثمالها: غياثها.

(٤) أبو العباس الأعمى: هو السائب بن فرّوخ مولى بني ليث، وقيل إنه مولى بني الديل، كان من شعراء بني أمية المعدودين، المقدمين في مدحهم والتشيع لهم، وانصباب الهوى إليهم. (أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الثامن، ص٤٦٦)

سَعَةٌ وأَحْلامَاً إذا نَزِعَتْ ... أهلُ الحُلُوم فَضَرَّها النَّزَع
الله أعطاكمْ وإن رَغِمَتْ ... مِنْ ذاكَ أَنْفُ مَعَاشِرٍ رَتَعُوا
ابني أميّة غيرَ أنكمُ ... والناس فيما أُطْمِعُوا طَمِعوا
أطْمعتُمُ فيكمْ عدوّكمُ ... فسَمَا بهم ذاكمُ الطَّمَعُ[1]

وثمة موضوع آخر أقحم الشعراء أنفسهم فيه، فقد جرّت ولاية العهد كثيرا من النزاعات السياسية بين أبناء البيت الأموي الواحد، وأثارت كثيرا من الشكوك في نوايا أروقة البلاط الأموي، وكان الشعراء يميلون مع رياح التغيير، ويستجيبون لدعوات الخلفاء، إمّا من تلقاء أنفسهم طمعا في التقرب إليهم، وإمّا بإيحاء من الخلفاء أنفسهم لجس نبض الرأي العام لأبناء الأمة، ووضعهم تحت الأمر الواقع.

وهذا ما فعله ابن قيس الرقيات عندما انحاز إلى عبد العزيز بن مروان ضد أخيه عبد الملك بن مروان قائلا:

يَخْلُفُكَ البيضُ مِنْ بنيكَ كَمَا ... يُخْلَفُ عودُ النُّضَارِ في شُعَبِهِ
ليسوا من الخروعِ الضِّعَافِ ولا ... أشباهِ عِيدَانِهِ ولا غُرَبِهِ[2]

فالشاعر يشير إلى أن أبناء عبد العزيز أولى الناس بملك أبيهم، وهم فروع من أصول قوية، وليسوا من الأصول الضعيفة، وهو بهذا القول يعرّض بعبد الملك بن مروان وأبنائه. وهذا تدخل سافر من شاعر بين أخ وأخيه في أمر سياسي له ما بعده، مما جرّ على الشاعر العنت لغضب عبد الملك بن مروان عليه قائلا: لقد دخل ابن قيس الرقيات مدخلاً ضيقاً، وتهدده وشتمه[3].

وعندما سعى الوليد بن عبد الملك إلى أخذ البيعة لابنه عبد العزيز، وقف الشاعر جرير بن عطية الخطفي موقف المؤيد للخليفة، حاثا الوليد على أن يمضي قدما في هذه البيعة قائلا:

إلى عبد العزيز سَمْتْ عيونُ الرْ ... رَعيّةِ، إنْ تُخُيّرت الرِّعَاءُ
وقالَ أولو الحكومةِ مِنْ قريشٍ ... علينا البيعُ إذا بَلَغَ الغَلاَءُ

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الثامن، ص٤٦٨.

(٢) عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، ص١٤، ١٥. النُّضار: شجر الإثل، الخروع: نبات ضعيف العود، الغرب: نبات ضعيف.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد التاسع، ص١٧٤.

رأوا عبدَ العزيز ولـيَّ عهـدٍ وما ظَلموا بذاك ولا أساءوا
فَزَحْلِفْهَا بِأَزْفُلِيهَا إليه أميرَ المؤمنينَ إذا تَشَاءُ[١]

فجرير يريد الخلافة لعبد العزيز بن الوليد من بعد أبيه إرضاءً للخليفة، ومحاباة له، فعبد العزيز في نظر الشاعر يصلح لهذا الاستخلاف، وأهل الحل والعقد قد بايعوه؛ لأنهم رأوا أنه خير من يقوم بمهام الخلافة. ثم يطلب جرير من الخليفة أن يدفع بالخلافة إلى ابنه تلبية لرغبة الرعية.

أمّا الشاعر النابغة الشيباني، فقد أدلى بدلوه هو الآخر في الخلاف الذي دار بين عبد الملك وأخيه عبد العزيز بن مروان حول ولاية العهد، وراح يمدح عبد الملك بن مروان ويؤيد رأيه في أخذ البيعة لابنه الوليد، فيقول:

آلُ ابي العاصي آلُ مَأْثَرَةٍ غُرٌ عِتَاقٌ بالخير قد نَفَحُوا
خَيْرُ قريشٍ وهُمْ أفَاضِلُهَا في الجِدّ جِدّ وإنْ هُمُ مَزَحُوا
لابنك أوْلَى بملكِ والدِهِ وَعَمُّهُ إنْ عَصَاكَ مُطَّرَحُ[٢]

فالنابغة الشيباني يفضل الوليد على عمه عبد العزيز بن مروان، ويؤيد حقه في الخلافة، طارحا جانبا أي حق لسواه. ولما سمع عبد الملك هذا الشعر "تبسم ولم يتكلم في ذاك بإنذار ولا دفع؛ فعلم الناس أن رأيه خلع عبد العزيز، وبلغ ذلك من قول النابغة عبد العزيز، فقال لقد أدخل ابن النصرانية نفسه مُدخلاً ضيقاً فأوردها موردا خطرا، عليّ لئن ظفرت به لأخضبنّ قدمه بدمه"[٣].

ويخوض الشاعر إسماعيل بن يسار[٤] في هذه المسألة، ويقحم نفسه في هذا الصراع السياسي على السلطة بين أبناء الأمويين، فيمدح عبد الملك بن مروان، وينوه بولاية العهد لوليديه هشام والوليد، وأنه بفعله هذا يسير على نهج آبائه، فيقول:

وقُمْتَ فلم تَنْفُضْ قَضَاءَ خليفةٍ ولكنْ بما ساروا مِنَ الفعلِ تَقْتَدِي

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص١٤. فزحلفها: ادفعها، بأزفلها: بأكملها، الغلاء: من المغالاة والمسابقة.

(٢) النابغة الشيباني، ت(١٢٥هـ/٧٤٣م)، ديوان النابغة الشيباني، شرحه وضبط نصوصه وقدّم له: د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص٤٨،٤٩.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الرابع، ص١٧٩.

(٤) إسماعيل بن يسار النساني، شاعر أصله من سبي فارس، اشتهر بشعوبيته وشدة تعصبه للعجم، انقطع إلى آل الزبير، ثم مدح عبد الملك بن مروان، ومدح الخلفاء من بعده، ت(١٣٠هـ/٧٤٨م). (أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الثاني، ص٥٣٦. والزركلي، الأعلام، المجلد الأول، ص٣٢٩)

ولمّا وليتَ الملكَ ضاربتَ دونَهُ واسْنَدتَهُ لا تَأْتَلِي خيرَ مَسْنَدِ
جعلتَ هِشاماً والوليَد ذخيرَةً وَلِيّيْنِ للعهدِ الوثيقِ المُؤَكْدِ[١]

فلما سمع عبد الملك هذه الأبيات "نظر إلى هشام والوليد مبتسما، والتفت إلى سليمان، فقال: أخرجك إسماعيل من هذا الأمر، فقطب سليمان ونظر إلى إسماعيل نظر مغضب. فقال إسماعيل: يا أمير المؤمنين، إنما وزن الشعر أخرجه من البيت الأول، وقد قلت بعده:

وأمضيتَ عَزماً في سليمانَ راشداً ومَنْ يعتصمْ بالله مثلك يَرْشُدِ

فأمر له بألفي درهم صلة، وزاد في عطائه، وفرض له، وقال لولده: أعطوه، فأعطوه ثلاثة آلاف درهم"[٢]

ومن هذه الرواية وأشباهها يتضح مدى اهتمام بني أمية بالشعراء لتحقيق مآربهم السياسية، متخذين منهم وسيلة إعلام لتمرير قرار سياسي خطير، من غير إحداث ضجة سياسية. كما يتضح أيضا أنّ معظم شعر المديح السياسي الذي كان يقال في البلاط الأموي لم يكن عن حب لبني أمية، ولا عن تعصب لهم –إذا استثنِيَ بعض الشعراء أمثال أبي العباس الأعمى والأخطل– وإنما كان الدافع من وراء ذلك هو التملق السياسي والكسب المادي.

هذا ما كان من شأن بني أمية وسياستهم مع الشعراء، أمّا الأحزاب الأخرى، فإن نبرة المديح السياسي تختلف عن بني أمية كثيرا، وتميل نحو الحب والإخلاص والصدق أكثر من كونها تملقا ومحاباة. وهذا ما يتضح في مدح عبيد الله بن قيس الرقيات الذي كان يناصر الزبيريين، ويتعصب لهم تعصب من آمن بمذهبهم السياسي إيمانا صادقا لا يشوبه شك. ويظهر صدقه في مدحه الذي يدل على انتماء لهذا الحزب الزبيري، كما يظهر في شعره الذي يدل على بغض للحزب الأموي "وكانت نقمته على الأمويين متأتية في معظمها من تقريبهم لليمانية، وابتعادهم عن قريش، وعدم اعتمادهم عليها، ومتأتية من استبدالهم الشام بالحجاز عاصمة لهم"[٣]. وابن قيس الرقيات عندما

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الثاني، ص٥٤٥،٥٤٦.
(٢) المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص٥٤٦.
(٣) أحمد أبو حاقة، تطور فن المديح في الشعر العربي، ص١٩١.

يمدح عبد الله بن الزبير، فإن مدحه هذا يختلف اختلافا كليا عن مدحه بني أمية. يقول ابن قيس الرقيات في مدح عبد الله بن الزبير:

وابنُ أسمَاءَ خيرُ مَنْ مسحَ الرّكـ ـنَ فَعَالاً وخَيْرُهُمْ بُنَيانَا
وإذا قيلَ مَنْ هِجَانُ قريشٍ كنتَ أنتَ الفتى وأنتَ الهِجَانَا[1]

ويقول فيه أيضا:

أنتَ ابنُ مُعْتَلَجِ البِطَا ح كُدَيّها فَكَدَائِهَا
أوْفَى قريشٍ بالعُلَى في حكمِها وقَضِائِهَا
وأتَمّهَا نَسَباً إذا نُسِبَتْ إلى آبَائِهَا[2]

فالشاعر يصف ابن الزبير بالتقوى، ويكفيه شرفا أن أمه أسماء ذات النطاقين، وأنه سليل دوحة قريش، فهو من أعاليها نسبا، وهو من قريش البطاح، وليس من قريش الظواهر.

ويمدح عبيد الله بن قيس الرقيات مصعب بن الزبير بأبيات تدل على صدق انتمائه للحزب الزبيري، وحبه لزعمائه، وهو حب بعيد عن المصانعة والنِفاق السياسي، فهو يصف مصعبا بأنه شهاب من الله، أزاح الظلم والظلمات عن الرعية، وملكه ليس فيه ظلم ولا تكبر؛ لأنه يتقي الله في رعيته؛ وبذلك ينال الفلاح دائما، يقول:

إنّما مُصْعَبٌ شِهابٌ من اللـ ـه تجلتْ عن وجهِهِ الظلماءُ
مُلكهُ ملكُ قوّةٍ ليس فيه جبروتٌ ولا به كِبْرِيَاءُ
يتقي اللهَ في الأمورِ وقد أفـ ـلَحَ مَنْ كانَ هَمّهُ الاتّقَاءُ[3]

وإذا تمت المقارنة بين مدح ابن قيس الرقيات للزبيرين، ومدحه لعبد الملك بن مروان، فإن الفرق يبدو شاسعا، والهوة واسعة بين المديحين، فعند مدحه لآل الزبير يطرق الشاعر الأوصاف المعنوية، مثل التقوى والتواضع والعدل وشرف النسب وغيرها. "أما مدحه لعبد الملك، فإن عنصر الصياغة فيه أقوى من العاطفة، وتكلف الإشادة فيه أوضح من الصدق ومن التوفيق فيما ينبغي أن يشيد به"[4]، وذلك لأن

(١) عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، ص١٥٧. الهجان: الحسب الرفيع.
(٢) المصدر نفسه، ص١١٧،١١٨. معتلج البطاح: ملتقاها، كدي: جبل بأسفل مكة.
(٣) المصدر نفسه، ص٩١،٩٢.
(٤) أحمد الحوفي، أدب السياسة في العصر الأموي، ص٥٠٠.

الشاعر يضفي على عبد الملك أوصافاً حسية لا ترتقي إلى مرتبة الزبيرين الأتقياء الرحماء المتواضعين لرعيتهم.

وعند استعراض المدح الذي قيل في الهاشميين، فإنه يبدو مدحاً مبنياً على أصول دينية، فهو يحمل الطابع الديني أكثر من كونه يميل إلى السياسة، ولعل الدافع إلى ذلك هو الولاء الصادق لزعماء هذا الحزب، والحب النابع من إيمان حقيقي وقناعة بحق الهاشميين في قيادة هذه الأمة؛ لأنهم من عترة رسول الله ﷺ. وهذا الولاء هو الذي دفع كثيّر عزة إلى مدح الهاشميين مدحاً ينم عن حب وإخلاص شديدين، ويظهر هذا الحب وهذا الإخلاص في مدحه لمحمد بن الحنفية[١]، حيث يقول:

وَمَنْ يرَ هذا الشيخَ بالخَيفِ مِن مِنَى ... مِنَ الناسِ يعلمْ أنّه غيرُ ظالِمِ
وصيُّ النبيِّ المصطفى وابنُ عَمِّهِ ... وفكّاكُ أغلالٍ وقاضي مَغارِمِ
أَبَى فهوَ لا يشري هدىً بضلالةٍ ... ولا يتّقي في الله لَوْمَةَ لائِمِ[٢]

فكثيّر في هذه الأبيات ينوه بابن الحنفية، ويصفه بالتقوى، وهذه التقوى نابعة من كونه ابن الإمام علي بن أبي طالب ﷺ ، وصي النبي ﷺ، ويشير إلى أن حبسه مِنْ قِبَل ابن الزبير كان ظلماً من غير حق.

وثمة شعراء آخرون مدحوا الهاشميين حباً فيهم وإخلاصاً لمبدئهم، أمثال أبي الأسود الدؤلي[٣]، وأيمن بن خريم[٤]. أمّا أبو الأسود الدؤلي، فقد مدح الهاشميين مدحاً تفوح منه رائحة التشيع لهم، وينبي هذا المدح عن حب صادق لآل البيت، يقول:

بنو عَمِّ النبيِّ وأقربوهُ ... أحبُّ الناسِ كُلُّهُمْ إليّا
همُ أهلُ النَّصيحةِ غير شكٍّ ... وأهلُ مَوَدَّتي ما دمتُ حَيّا
رأيتُ الله خالِقَ كلِّ شيءٍ ... هداهمْ واجتبى مِنْهُمْ نَبيّا

---

(١) محمد بن الحنفية: هو محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي أبو القاسم المعروف بابن الحنفية، أمه خولة بنت جعفر الحنفية، ينسب إليها تمييزاً له عن الحسن والحسين، ت(٨١هـ/٧٠٠م). (خليل بن أيبك الصفدي، الوافي في الوفيات، ج٤، ص٧٥. والزركلي، الأعلام، المجلد السادس، ص٢٧٠)

(٢) كثيّر عزة، ديوان كثيّر عزة، ص٢٢٤،٢٢٥.

(٣) أبو الأسود الدؤلي: هو ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان من كنانة، شهد مع علي بن أبي طالب ﷺ صفين، وولي البصرة لابن عباس ومات فيها سنة ٩٩هـ. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج٢، ص٧٢٩).

(٤) هو أيمن بن خريم بن فاتك من بني أسد، كان أثيراً عند عبد العزيز بن مروان، وكان به برص. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، ص٥٤١).

ولم يخصُصْ بها أحداً سواهمْ هنيئاً ما اصطفاه لهم مَريّا[١]

فالهاشميون أقرباء الشاعر، وأحب الناس إليه، وهم أهل النصيحة، والله، جلّ شأنه، حباهم بأن جعل منهم نبيّا، فهنيئا مريئا لهم هذا الاصطفاء. ولحبه الشديد لهم يجعلهم أصفياءه وأهل مودته ما دام على قيد الحياة.

ويفعل أيمن بن خريم الشيء نفسه مع الهاشميين، فيمدحهم مديحا يتسم بالموضوعية إذا ما قورن بمديحه للأمويين الذي كان الدافع من ورائه الكسب المادي، ففي مدحه للهاشميين يضفي عليهم هالة من الصفات الدينية التي تليق بهم؛ فهم صوّامون في النهار، قوامون في الليل، يحيونه بالصلاة وقراءة القرآن، وهم يعملون بأحكام القرآن الكريم، فلا يظلمون ولا يتجبرون، ومخافتهم من الله هي التي أدت إلى ضياع حقهم؛ لأنهم لا يريدون الفتنة والكيد والخداع للآخرين، يقول أيمن بن خريم مادحا الهاشميين:

نَهارُكُمُ مُكابَدَةٌ وصومٌ ولَيلُكُمُ صلاةٌ واقْتِراءُ
وَلِيتُمْ بالقرآنِ وبالتَّزكّي فأسرعَ فيكُمُ ذاك البَلاءُ
بَكَى نَجْدٌ غَداةَ غدٍ عليكُمُ ومَكَّةُ والمدينةُ والجَواءُ[٢]

ولعل ميمية الفرزدق التي قالها في مدح زين العابدين بن علي بن الحسين[٣] تعد من أفضل الشعر الذي يدل على ولاء شاعر لحزب سياسي، فقد قالها الفرزدق ردا على هشام بن عبد الملك لما تجاهل زين العابدين، وهما يطوفان بالبيت العتيق، وكان الفرزدق حاضرا فقال:

هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وَطْأَتَهُ والبيتُ يعرفُهُ والحلُّ والحَرَمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ اللهِ كلِّهِمُ هذا التقيّ النقيّ الطاهرُ العَلَمُ
هذا ابنُ فاطمةٍ إنْ كنْتَ جاهِلَهُ بِجَدِّهِ أنبياءُ اللهِ قد خُتِمُوا
وليسَ قولُكَ مَنْ هذا؟ بِضائِرِهِ العُرْبُ تعرفُ مَنْ أنْكَرتَ والعَجَمُ

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد السادس، ص٤٩٨.

(٢) المصدر نفسه، المجلد العاشر، ص٤٢٣.

(٣) زين العابدين: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، يقال عنه: علي الأصغر، أحد الأئمة الأثني عشر، ومن سادات التابعين، قال الزهري: ما رأيت قرشيا أفضل منه، ت(٩٤هـ/٧١٢م). (خليل بن أيبك الصفدي، الوافي في الوفيات، ج٢٠، ص٢٣٠. والزركلي، الأعلام، المجلد التاسع، ص٢٦٤)

ما قَالَ لا قطُّ إلّا في تَشَهُّدِهِ لولا التشهدُ كانتْ لاؤُهُ نَعَمُ[١]

فهذه أبيات في مدح إمام من أئمة آل البيت، والعاطفة الدينية بارزة فيها بوضوح، وتدل على محبة صادقة دفعت الشاعر إلى تحدي هشام بن عبد الملك دون أن يحسب حساباً لنتائج هذا التحدي. وتكتسب هذه القصيدة شهرتها من عدة عوامل؛ منها الظروف التي دعت الفرزدق إلى قولها، ومنها كونها من شاعر كان محسوباً على الحزب الأموي، فما الذي دعا الفرزدق إلى أن يكون أصيلاً في قصيدته هذه، بعيداً عن روح التملق التي تبرز في كثير من مدائحه لغير الهاشميين؟

يرى المرزباني[٢] أنّ الفرزدق كان يتشيع لآل البيت، وهذا التشيع هو الذي دفعه إلى هذه المغامرة؛ لأنّ هشاماً قد مسّ عقيدة الشاعر بتجاهله لإمام من أئمة آل البيت. وثمة سبب آخر لهذه الغضبة من الفرزدق على هشام، وهو أنه كان يحب آل البيت كما يحبهم عامة الناس؛ لأنهم كانوا يتمتعون بمنزلة عظيمة في نفوس عامة الناس لقربهم من الرسولﷺ، ولكونهم أصحاب سيرة حسنة، وأكفٍ نديّةٍ، وسرائر نقيّة، وهذا الحب هو الذي دفع الناس للتنحي لتمكين الإمام زين العابدين من استلام الحجر الأسود، بينما تجاهل الناس هشاماً، لأنه لا يحظى بهذه الحظوة التي يحظى بها الإمام زين العابدين، وهذا الحب الصادق هو الذي دفع الفرزدق، فانطلق يعبر عن رأيه ورأي الناس الذين شاهدوا الموقف أو الذين سمعوا به، واصفاً إمامه بصفات دينية تليق بمقامه؛ فالإمام رمز ديني، لما يحمله من إرث النبوة، فضلاً عن نقواه ونقاء سريرته، وليس إنكار هشام له ينقص من قدره، فالكل يعرفه، عرب وعجم، فهو ليس بحاجة إلى تعريف؛ لأنه أشهر من نار على علم، وهذا الإمام يستجيب لحاجات الناس، ولا يرد أحداً، فيده سخية، يزينها حسن خلق في التعامل مع الناس. ولعل مما يدل دلالة واضحة على أصالة هذه القصيدة، هو ما رُوي من أنّ الفرزدق رد الجائزة التي قدمها له زين العابدين لما بلغه مديحه بهذه القصيدة، وكان مقدار الجائزة اثني عشر ألف درهم، وقال: "يا ابن رسول الله، ما قلت إلا غضباً لله ولرسوله ولك، وما كنت لارزأ عليه شيئاً"[٣].

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص١٧٨، ١٧٩.

(٢) المرزباني، معجم الشعراء، ص٤١٢.

(٣) المرزباني، اخبار شعراء الشيعة، ص٦٠. وينظر: الشريف المرتضي، أمالي المرتضى، القسم الأول، ص٦٩.

ومن الشعراء الذين مدحوا الهاشميين الكميت بن زيد الأسدي، وقد بنى مدحه لهم على أصول دينية، جاعلاً ذلك قربى له عند الله، مدفوعاً بحب شديد لهم وتعصب جرّ عليه كثيراً من المعاناة في سبيل إخلاصه وحبه لهم. يقول في إحدى هاشمياته:

بل هواي الذي أَجَنَّ وأَبْدي ... لبني هاشمٍ فروعِ الأنامِ
للقريبين مِنْ ندىً والبعيد ... ين مِنَ الجَوْرِ في عُرَى الأحكامِ
راجحي الوزنِ كاملي العدلِ في السير ... ةِ طَبّيْنَ بالأمور العِظامِ
ساسَةٌ لا كَمَنْ يرعى الناس ... سَ سواءً ورِعْيَةَ الأنعامِ
لا كعبدِ الملكِ أو كوليدٍ ... أو كسليمانَ بَعْدُ أو كَهِشَامِ[1]

وفي هذه الأبيات يشير الشاعر إلى أنه هاشمي الهوى، وحبه لبني هاشم نابع من عدلهم مع الرعية، وبعدهم عن الجور في الأحكام، وظهور حنكتهم وحسن تدبيرهم في المواقف الصعبة التي لا يستطيع ساسة بني أمية، أمثال عبد الملك والوليد وسليمان أن يحسنوا التصرف فيها؛ لأنهم جعلوا سياسة الناس كرعية الأنعام، وفي هذا تعريض شديد ببني أمية، يدل على بغضه الشديد لهم وتعصبه الشديد للهاشميين.

ولا يقتصر المديح السياسي والديني على الأمويين والزبيرين والهاشميين، وإنما تعداهم إلى الخوارج، هذا الحزب الذي تمسك بمبادئه السياسية تمسكاً شديداً، ودافع عنها دفاع المستميت، وصدع برأيه صراحة، مطالباً بأن تكون الخلافة شورى بين عامة المسلمين.

غير أن الفرق بين شعراء هذا الحزب وشعراء الأحزاب الأخرى شاسع؛ وذلك لأن شعراء الخوارج كانوا بعيدين عن التكلف والتصنع والمجاملة، واقتصر مديحهم على رجال الخوارج، واصفين إياهم بصفات دينية من تقوى وخشوع وعبادة وجهاد في سبيل الله، مبتعدين عن مدح الحكام والولاة من بني أمية وغيرهم.

والمتتبع شعر الخوارج يرى في هذا الشعر مدحاً صادقاً مبعثه الولاء الخالص لهذا الحزب؛لأن كثيراً من شعراء الخوارج،كانوا من قادة الخوارج أنفسهم. لذلك لم يُغرهم بريق الدراهم،ولم يقعوا في حبائل السياسة الأموية،ولم يلههم شيء من أمور

---

(١) الكميت بن زيد الأسدي، ديوان الكميت بن زيد، ص٤٨٨-٤٩٧. الطب: الحاذق. لا كمن يرعى الناس: يعني بني أمية.

الدنيا عن عقيدتهم التي آمنوا بها، وهجروا الدنيا من أجلها،وعند استعراض شيء من شعر الخوارج يتبين صدق هذا القول، يقول الطرماح بن حكيم في مدح الشُّراة:

لله درُّ الشُّرَاة إنّهُمْ ... إذا الكَرَى مالَ بالطُّلا أرَقُوا

يُرَجِّعُونَ الحنينَ آونَةً ... وإن عَلا بِهم ساعةً شَهَقُوا

خوفاً تبيتُ القلوبُ واجِفَةً ... تكادُ عنها الصدورُ تَنْفَلِقُ

قومٌ شِحَاحٌ على اعتِقَادِهِمُ ... بالفوزِ مِمَّا يُخافُ قد وَثِقُوا(١)

فالشراة كما يصفهم الطرماح قوّامون بالليل بسور القرآن الكريم، يبكون من خشية الله، وشوقاً إليه، وهم بين الخوف والرجاء، متمسكون بعقيدتهم، واثقون من الفوز بالجنة والنجاة من النار. كما يصفهم في أبيات أخرى فيقول:

عَصَائِبُ مِنْ شَتَّى يُؤَلِّفُ بينهمْ ... هدى اللهِ، نَزَّالونَ عِندَ المَواقِفِ

إذا فَارَقُوا دُنيَاهُمُ فارقوا الأذى ... وصاروا إلى مَوعدِ ما في المَصَاحِفِ(٢)

ولا يخفى على أحد أنّ هذا المديح يدور في معظمه حول الصفات الدينية التي يتصف بها رجال الخوارج، كما لا يخفى أيضا نبرة الصدق التي ظهرت في ثنايا هذا المديح. وبغض النظر عن صحة فكرهم من عدمها، "فإن شعر الخوارج كان أصدق صورة أدبية لمذهب ديني سياسي، لا يشاركه هذا الوصف شعرٌ آخر؛ لذلك كان أدبهم هو الأدب الإسلامي الجديد"(٣).

أما وقد انتهى الكلام على إشكالية قصيدة المديح في العصر الأموي، فلا بد من نظرة إجمال لتحديد الأمور البارزة في هذا الموضوع. ويمكن القول، إن الدوافع التي أدت إلى ازدهار قصيدة المديح في العصر الأموي تنقسم إلى قسمين، هما: الدوافع النفعية، والدوافع السياسية والدينية.

أمّا الدوافع النفعية، فكانت إمّا تكسباً وطلباً للعطاء، وإمّا إعجاباً بسبب يدٍ أسداها الممدوح إلى الشاعر، وإمّا خوفاً وأملاً في النجاة، وإمّا تقية وتملقاً ونفاقاً.

---

(١) الطرمّاح بن حكيم ت(١٢٥هـ/٧٤٢م)، ديوان الطرمّاح بن حكيم. تحقيق: د. عزة حسن، دمشق، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص٥٧٨،٥٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٣٥.

(٣) أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي، ص٢٠٤.

على أنّ ظاهرة التكسب قد طغت طغيانا كبيرا في العصر الأموي، إذ كان المديح في العصر الأموي في معظمه مديحا تكسبيا، فقد تعود الشعراء أن يذهبوا إلى أبواب الحكام والولاة وزعماء الأحزاب، يعرضون عليهم بضاعتهم الشعرية، ويسألون حاجاتهم وحاجات قومهم أحيانا، ثم يعودون من عند الممدوحين بالعطاء الجزيل الوافر. وقد استغل الحكام حاجة الشعراء فاستمالوهم، قاصدين من وراء ذلك تحقيق مآرب سياسية واجتماعية. ولقد كان شعر المديح التكسبي يتسم بكثير من المبالغات، وبالبعد عن الموضوعية في كثير من معانيه، وإن كان عنصر الصياغة فيه يتسم بالقوة، وكانت هذه المبالغات تروق لكثير من الممدوحين بغض النظر عن انتماءات قائليها.

وقد لجأ كثير من الشعراء إلى ممدوحيهم بدافع الخوف والأمل في النجاة، كما فعل العُدَيلُ بن الفرَخ مع الحجاج، كما أن كثيرا من الشعراء مدح تملقا ونفاقا وتقية، كما فعل كثيّر عزة وأيمن بن خريم والكميت وابن قيس الرقيات مع الأمويين. وكل هذه الأشعار التي قيلت بدافع النفاق والخوف والتقية لا ترتقي إلى مستوى الشعر الذي قيل في مدح زعماء الأحزاب التي آمن الشعراء بمبادئهم إيمانا صادقا.

على أن المديح بدافع الاعتراف بالجميل والشكر على المعروف الذي قدمه الممدوح للشاعر كان يتسم بالأصالة؛ شكلا ومضمونا، ولم يكن فيه شيء من التكلف والتصنع، بل كان شعرا صادقا ينم عن تجربة شعورية أصيلة.

أما الدوافع السياسية والدينية، فكانت هي الأخرى عاملا من عوامل ازدهار شعر المديح في العصر الأموي؛ وذلك لكثرة الاضطرابات السياسية والنزاعات التي عصفت بالعصر الأموي، إذ فرضت السياسة نفسها على مجريات الأمور في ذلك العصر، نتيجة الانقسامات الحزبية التي كانت سمة بارزة من سمات العصر الأموي.

فالحزب الأموي كان له شعراؤه الذين يدافعون عن مبادئه، أمثال الأخطل وأبي العباس الأعمى وأعشى ربيعة والنابغة الشيباني، فضلا عن الشعراء الذين كانوا يمدحون بدافع التكسب ويتطرقون إلى السياسة، أمثال جرير والفرزدق وغيرهم.

وكان أبرز موضوعين سياسيين تطرق لهما الشعراء في مديحهم: الخلافة وولاية العهد، وكان أغلب شعر المديح السياسي يدور حول هذين الموضوعين، فقد انقسم الشعراء إلى قسمين؛ قسم يؤيد الأمويين في موضوع الخلافة، وقسم يؤيد الحزب الذي ينتمي إليه. وقد استثمر الأمويون الشعراء واتخذوهم وسيلة إعلام لتأييد حقهم في

الخلافة، وإبطال دعاوى الأحزاب الأخرى التي لها سند ديني أقوى من سند بني أمية في مسألة الخلافة.

كذلك كان للأحزاب الأخرى شعراؤها الذين يرون رأي هذه الأحزاب في مسألة الخلافة؛ فالكميت وكثيّر عزة وأيمن بن خريم كانوا يتشيعون لآل البيت، وابن قيس الرقيات كان زبيري الهوى، والطرماح بن الحكيم وغيره من الشعراء كانوا يرون رأي الخوارج في مسألة الخلافة، وكان يتميز مديح هؤلاء الشعراء في معظمه بغلبة العاطفة السياسية والدينية عليه، ويدل على انتماء صادق، وولاء خالص لهذه الأحزاب.

على أن بعض شعراء هذه الأحزاب تحول إلى الحزب الأموي، وهذا التحول كان نتيجة للظروف السياسية التي أجبرتهم على ذلك، فمدحوا الأمويين مدحا فاترا من الناحية الموضوعية؛ ولكن هذا التحول كان يلقى قبولا وترحيبا لدى الأمويين، وكانت السياسة الأموية ترمي شباكها للشعراء فتصطادهم واحدا واحدا، لتضعهم في قفص الولاء الأموي، كارهين وغير كارهين، ولقد بذر الأمويون الحب للشعراء فالتقطوه إلا شعراء الخوارج، فإنهم أعيوا الأمويين فرارا؛ وهذا يدل على العقيدة الراسخة التي كان يتحلى بها الخوارج عامة، وكان تأثير هذه العقيدة واضحا في مديح الخوارج، إذ لم يتملقوا، ولم ينافقوا، ولم يتكسبوا بشعرهم، بل كان مديحهم مقصورا على زعماء هذه الفرقة، وكانت معانيهم صادقة مستمدة من الفكر الذي كانوا يؤمنون به.

الفصل الثاني

الثوابت الإسلامية ذات الطابع السياسي في قصيدة المديح في العصر الأموي

وفيه أربعة مبـــاحث:

المبحث الأول: الخلافة وفكرة الجـــبر والاختيـــار

المبحث الثاني: الإمامة والمهديـــــة

المبحث الثالث: إرث النبوة وشـــرعية الحكـــم

المبحث الرابع: الجهاد في سبيل الله والدفاع عـــــن الإســـلام

الثوابت الإسلامية ذات الطابع السياسي في قصيدة المديح الأموية

بعد التعرف إلى الدوافع التي أدت إلى ازدهار قصيدة المديح في العصر الأموي، يمكن التعرف إلى العلاقة بين الدين والسياسة وصلة ذلك بالشعر، وقد قامت هذه الصلة منذ ظهور الإسلام وقيام الدولة الإسلامية التي أسسها رسول الله ﷺ، وكانت نواتها في المدينة المنورة، ثم اتسعت رقعتها بعد وفاته على أيدي خلفائه الراشدين ومن جاء بعدهم، وكان القرآن الكريم هو الدستور الشرعي لهذه الدولة؛ منه تستمد تشريعاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية. وقد كان ﷺ قائداً للمسلمين، يوجه سياسة الدولة الإسلامية وفق هذا المنهج الرباني، وكانت سنة الرسول ﷺ مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي، وكانت هذه السنة مستوحاة من كتاب الله عز وجل. ولقد كان رسول الله نعم القائد، ونعم الحاكم الذي طبق شرع الله على عباده، وضرب أروع الأمثلة في حسن التعامل مع أفراد الرعية، فلم يكن يستأثر بالأمر دونهم، بل كان يشاورهم في جميع شؤون الدولة، الصغيرة منها والكبيرة، وكان يأخذ بمشورتهم في كثير من الأمور، وينزل عند رغباتهم، إذا غلب رأيهم على أمر ما.

وكان أبو بكر ﷺ نعم الخليفة، ونعم الحاكم المسلم الذي يسير على نهج النبي، فقد نهض بأمور الخلافة، وكان أهلاً للمسؤولية، وأهلاً للقرارات الصعبة، ولم تدم مدة ولايته إلا سنتان تقريباً وانتقل بعدها إلى جوار ربه بعد أن استخلف عمر بن الخطاب ﷺ[1]. وسار عمر على نهج الرسول ﷺ وأبي بكر ﷺ، وقد امتاز عمر بقوة الشخصية، إذ حكم المسلمين عشر سنين تقريباً، لم يكن أحد ليجرؤ خلالها على إثارة الفتنة الدينية أو السياسية بين المسلمين.

ويمضي عمر بن الخطاب إلى جوار ربه، لاحقاً برسول الله وبأبي بكر بعد أن وضع مجلساً للشورى مكوناً من ستةٍ من الصحابة، وأوكل إليهم مهمة اختيار الخليفة، وبعد التشاور فيما بينهم استقر أمرهم على استخلاف عثمان بن عفان ﷺ [2] الذي سار أيضاً على نهج رسول الله وصاحبيه أبي بكر وعمر، وتسير الأمور على أحسن ما يرام في بداية عهده، ويوجه الجيوش للفتوحات، ويجتهد ﷺ في خدمة المسلمين، ولكن الفتنة

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، ج٣، ص٤٢٨ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٤ وما بعدها.

تأبى إلا أن ترفع رأسها، ويستفحل أمرها في نهاية عهده، وينتهي الأمر بمقتله ﷺ[١]، ويعود الصراع من جديد على السلطة،ويبايع بعض المسلمين عليا ﷺ[٢]، ويأبى بعضهم بحجة المطالبة بدم عثمان، ومنهم معاوية بن أبي سفيان الذي نصب نفسه ولي دم عثمان، ويعلن عصيانه في الشام[٣]، ويؤيده أهل الشام، وكذلك تفعل السيدة عائشة رضي الله عنها، ويفعل الشيء نفسه طلحة والزبير[٤] وتترعرع الفتنة، وتستعر الحروب، وتكثر الانقسامات، وتودي الفتنة بحياة كثير من الصحابة، وتستقر الأمور في النهاية للأمويين بزعامة معاوية بن أبي سفيان، ويبدأ العصر الأموي حافلا بالأحداث السياسية الجسام التي كانت تميزه من غيره، وكان الصراع على السلطة هو طابع هذا العصر، سواء أكان هذا الصراع بين الأمويين أنفسهم أم بين الأمويين وبقية الأحزاب الأخرى.

ويتضح مما سبق العلاقة الوثيقة بين الدين والسياسة في عصر صدر الإسلام، واستمرت هذه العلاقة في العصر الأموي، فالسياسة تستمد قوتها من تعاليم الدين الإسلامي، والإسلام هو الذي يوجه السياسة ويرسم لها الطريق، ويقوم اعوجاجها، ويمدها بالشرعية. واتكأت جميع الاتجاهات السياسية على الدين في الدعوة إلى مبادئها، وحرص الخلفاء والحكام وولاة الأقاليم على أن يتسم نظام حكمهم بسمات دينية تكسبهم الشرعية في تولي أمور المسلمين، وتحيطهم بهالة من القداسة التي تضفي عليهم صفات الحاكم المسلم الجدير باعتلاء عرش الدولة الإسلامية. وأصبحت السياسة الإعلامية لجميع الأحزاب تدور في فلك الدين في تلك المدة، وكان الشعر أبرز الوسائل الإعلامية في تلك المدة إذ اتخذ ساسة العصر الأموي الشعر وسيلة لترويج آرائهم السياسية، ووظفوه بذكاء لخدمة أغراضهم الحزبية، لذا خاض الشعراء في العصر الأموي بحر السياسة الدينية، وجدفوا فيه بمنة ويسرة خدمة لأغراضهم الشخصية، وخدمة للاتجاه السياسي الذي يميلون إليه.

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، ج٤، ص٤١٥ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٤٢٧ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٥٦٠ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص٤٥٨ وما بعدها.

وكان نصيب قصيدة المديح من السياسة في العصر الأموي نصيب الأسد، فقد وظف المداحون كثيراً من مظاهر الإسلام في مديحهم إرضاء لرغبات ممدوحيهم، وتدخلوا في شؤون السياسة الخاصة منها والعامة في العصر الأموي، مدفوعين بتشجيع الحكام لهم، أو بانتماءاتهم الفعلية للأحزاب السياسية. وبرزت في قصيدة المديح الأموية بعض الثوابت الدينية التي تحمل الطابع السياسي في ذلك العصر. ومن هذه الثوابت: الخلافة وفكرة الجبر والاختيار، ومنها الإمامة والمهدية، ومنها إرث النبوة وشرعية الحكم، ومنها الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الإسلام، وسيتم معالجتها واحداً واحداً إن شاء الله تعالى.

المبحث الأول

الخلافة وفكرة الجبر والاختيار

الخلافة هي أبرز مظهر من مظاهر السياسة في العصر الأموي، فقد شغلت الخلافة ساسة العصر الأموي، وكانت المحور الرئيسي الذي تدور حوله الصراعات السياسية في ذلك العصر، وكان لكل حزب سياسي سنده الديني الذي يرتكز عليه في ادعائه الخلافة؛ فالهاشميون يرون أنهم أحق بالخلافة لمنزلتهم من رسول الله ﷺ، والزبيريون يرون أنهم أحق بالخلافة؛ لأن الخلافة يجب أن تكون في قريش، ومن يتولاها يجب أن يتصف بالصلاح والسير على نهج النبي وخلفائه الراشدين، والخوارج يرون أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين، والأمويون يرون أن تكون الخلافة فيهم؛ لأن زعامة قريش كانت لهم في الجاهلية. على أنّ أضعف هذه الأسانيد هو سند الأمويين " ولعل السبب في ذلك أن بني أمية لم يقيموا ملكهم على أساس ديني، يستمدون منه حقهم في الحكم كما فعل الشيعة والخوارج والزبيريون "(١). فالأمويون استولوا على الخلافة بالقوة، واغتصبوها اغتصاباً، وحولوها إلى حكم وراثي يتبادله أبناء البيت الأموي، وكانت هذه نقطة الضعف في السياسة الأموية؛ لذا أخذ الأمويون يبحثون عن مسوغ أقوى يدعم حقهم في اعتلاء عرش الخلافة الإسلامية؛ فأشاعوا بين الناس أن خلافتهم وزعامتهم لهذه الأمة كانت بإرادة الله ومشيئته. وتلقف الشعراء المداحون هذه الفكرة، ووضعوها في لبوس ديني، ووظفوها في خدمة السياسة الأموية، وأصبحت فكرة الجبر والاختيار محور الدعوة إلى أحقية الأمويين في الخلافة.

" وكان بنو أمية يذيعون هذه الفكرة ليصرفوا الناس عن التفكير في الخلافة"(٢). وأصبحت هذه الفكرة سنداً قوياً يتكئون عليه في صدّ هجمات الأحزاب السياسية الأخرى، وقد حمل كثير من الشعراء في العصر الأموي لواء الدعوة إلى السياسة الأموية متخذين من هذه الفكرة سلاحاً فكرياً يسوّغون به خلافة بني أمية "لهذا جعلوا يشيدون بأن الله اختارهم وآزرهم،وجعلوا يصفونهم بأنهم حراس الدين،وبأنهم أفضل قريش"(٣).

---

(١) أحمد الحوفي، أدب السياسة في العصر الأموي، ص١٤٨.

(٢) د. شوقي ضيف،التطور والتجديد في الشعر الأموي،دار المعارف،مصر،١٣٧٩هـ/١٩٥٩م،ص١٥٦،١٥٧.

(٣) أحمد الحوفي، أدب السياسة في العصر الأموي، ص١٤٨.

وأول ظهور لملامح هذه الفكرة كان في عهد معاوية بن أبي سفيان، عندما أراد أخذ البيعة لابنه يزيد، وآزره مسكين الدارمي بأبيات من الشعر يؤيد فيها حق يزيد في الخلافة قائلاً:

بني خلفاءِ الله مهلاً فإنّما ... يُبَوِّئُها الرحمن حيثُ يُرِيدُ
إذا المِنْبَرُ الغربيَّ خلاَّ ربُهُ ... فإنَّ أميرَ المؤمنين يزيدُ[1]

ومسكين الدارمي في هذين البيتين يرى أنّ الخلافة أمر إلهي، يضعه الله حيث يشاء، فكل شيء يتعلق بالخلافة هو بقضاء الله وقدره، ولا أحد يستطيع أن يرد قضاء الله. والخلافة من بعد معاوية ليزيد هبة من الله؛ وليس لأحد أن يطالب بها؛ لأن يزيد في نظر مسكين أحق بالخلافة من بقية بني أمية الذين يتربصون ليصلوا إلى عرش الخلافة. وقد رضي معاوية بقول مسكين، وقال: " ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله"[2].

وتتضح الفكرة وتفصح عن نفسها أكثر فأكثر كلما مضى العصر الأموي قدما، فهذا الشاعر عُبَيْد بن الحُصَيْن الملقب بالراعي النميري يمدح عبد الملك بن مروان بأبيات يقول فيها:

إنّ الخِلافَةَ مِنْ ربي حَبَاكَ بها ... لم يُصفِها لك إلا الواحدُ الصَّمَدُ
القابضُ الباسطُ الهادي لطاعتِهِ ... في فتنةِ الناسِ إذْ أهواؤُهُمْ قِدَدُ
أمراً رضيتَ له ثم اعتمدتَ لَهُ ... واعلمْ بأنَّ أمينَ اللهِ مُعتَمَدُ[3]

ولا يخفى ما في هذا الشعر من أثر ديني بارز، وظفه الشاعر لخدمة غرض سياسي بارز أيضا، فالشاعر يرى أن المسوّغ لخلافة عبد الملك بن مروان أنّ الواحد الصمد هو الذي اصطفاه للخلافة وحباه بها، وهذا التفضيل جاء لما كان يتصف به الخليفة من الهداية والطاعة لله سبحانه، إذ تتفرق بالناس الشيع وتتعدد الأهواء، وعبد الملك كما يرى الشاعر خير من يقوم بمهام الخلافة، فهو أمين الله الذي استخلفه، والرعية تعتمد عليه في تصريف أمورها وإدارة شؤونها. ويروى أن عبد الملك بن

---

(١) مسكين الدارمي ت(٨٩هـ/٧٠٧م)، ديوان مسكين الدارمي، جمع وتحقيق: عبد الله الجبوري وجليل إبراهيم العطية، ط١، بغداد، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص٣٣. يبوئها: يضعها.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد العاشر، ص٣٥٧.

(٣) الراعي النميري(ت٩٠هـ/٧٠٨م)، ديوان الراعي النميري، جمعه وحققه:راينهرت فايبترت، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٦٣.

مروان ردّ على قوم الراعي صدقاتهم لما سمع القصيدة التي منها هذه الأبيات[١]. والناظر في شعر الراعي يرى أنه يضرب للأمويين على وتر سياسي حساس يطربون لترانيمه، ويحبون أن يسمعوا مثل هذا القول فيهم، وهو ما يسعون إلى الوصول إليه سعيا حثيثا، فكان الجزاء على قدر الصنيع؛ فالشاعر لم يبخل عليهم بمدحةٍ تسير بها الركبان، وترفع من منزلة بني أمية، وتؤيد حقهم في الخلافة بمعنى ديني يلقى قبولا لدى عامة الناس، وهم بالمقابل لم يبخلوا عليه، بل لبوا حاجته، وأعطوه ما سأل، أملا في المزيد من هذه البضاعة الشعرية الرائجة سياسيا.

وتظهر هذه الفكرة أيضا في شعر الأخطل التغلبي[٢]، شاعر القصر الأموي من غير منازع في خلافة عبد الملك بن مروان، وعلى الرغم من نصرانيته كانت ترد في شعره بعض المعاني الدينية، وكان يوظف بعض هذه المعاني في مديحه للأمويين، آملا في نيل الحظوة لديهم، فهو في إحدى مدائحه عبدالملك بن مروان يتطرق إلى فكرة الجبر والاختيار قائلا:

على ابنِ أبي العاصي قريشٌ تَعَطَّفَتْ ... له صُلْبُهَا، ليس الوشائِظُ كالصُّلْبِ
وقد جعلَ اللهُ الخلافةَ فيكُمُ ... لأبيضَ لا عاري الخوَانِ ولا جَذْبِ
ولكنْ رآك اللهُ مَوضعَ حَقِّهِ ... على رغمِ أعداءٍ وصدّادةٍ كُذْبِ[٣]

فالشاعر يشير إلى أصل الخليفة وشرفه الرفيع، فهو من قريش، بل يستأثر بموضع الصلب من قريش، وليس الصلب كالأطراف؛ ولذلك اختاره الله خليفة؛ لأنه رآه أهلاً للخلافة لما يتحلى به من أخلاق عربية أصيلة كالكرم وحسن التدبير والسياسة، وهذا الاختيار تم رغما عن الجاحدين الكاذبين الذين يصدون عن الحق ويجحدونه.

ولا ريب أن مديح الأخطل هذا كان يروق عبد الملك بن مروان الخليفة الأديب الذواقة للشعر. يروى أن الأخطل دخل على عبد الملك بن مروان، "فقال: يا أمير المؤمنين قد امتدحتك، فقال: إن كنت تشبهني بالحية والأسد فلا حاجة لي بشعرك"[٤].

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الثاني عشر، ص٣٣٠.

(٢) كان هذا الشاعر من فحول الشعراء في العصر الأموي، عدّه ابن سلام في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين. (محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص٢٩٧.)

(٣) الأخطل، ديوان الأخطل، ج١، ص٤٧، ٥١. تعطفت: أحاطت من كل جانب، الوشائظ: الزوائد، الصُلب: الصميم، الخوان: ما يؤكل الطعام فيه.

(٤) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، ص٤٨٣.

وهذا دليل واضح على أن عبد الملك كان يريد من الشعراء أن ينسبوا إليه صفات دينية وأن يخالفوا السمت التقليدي في المدحة، وأن يظهر في شعرهم بمظهر المسلم التقي النقي الطاهر العفيف؛ لما لهذه الصفات من تأثير في نفوس الناس.

ويقول الأخطل مادحا بشر بن مروان بانتصاره على الأعداء، مشيرا إلى فكرة الجبر والاختيار:

إنّي دَعَاني إلى بِشرٍ فَواضِلُهُ ... والخيرُ قد علمَ الأقوامُ مُتَّبَعُ
يا بشرُ لو لم أكنْ مِنكُمْ بِمَنْزِلَةٍ ... أَلْقَى يديهِ عليَّ الأزْلَمُ الجَذَعُ
أنتمْ خيارُ قريشٍ عند نِسْبَتِهِمْ ... وأهلُ بَطْحَائِها الأثرونَ والفَرَعُ
أعطاكُمُ اللهُ ما أنتمْ أحقُّ بِهِ ... إذا الملوكُ على أمثَالِهِ اقْتَرَعُوا[1]

والناظر في هذه الأبيات يجد فيها تكرارا واضحا لما سبق من المعاني، فالشاعر ينسب إلى بشر فضيلة الكرم، ويرى أن بشرا هو الذي يحميه من مصائب الدهر وويلاته، فضلا عن أن بشرا من أعرق البيوتات في قريش، فهو من قريش البطاح، وليس من قريش الظواهر، وهذا المعنى يرد كثيرا في مديح الشعراء بني أمية، إذ يلحون على مديحهم بهذه الصفة إلحاحا لمكانة بني أمية في قريش إبان الجاهلية. وهذه الصفة تدعم مركز بني أمية في الإسلام، فضلا عن فكرة الجبر والاختيار التي وظفها الشاعر ليدلل على أفضلية بني أمية وأحقيتهم بالخلافة، بالرغم من حسد الناس لهم ومنازعة الناس حق الأمويين في الخلافة الذي وهبه الله لهم.

ويدلي الشاعر عدي بن الرقاع العاملي بدلوه في هذا الأمر السياسي، ويظهر ذلك في مدائحه الوليد بن عبد الملك، الذي آثره على كثير من شعراء العصر الأموي، واختصه بمحبته، وفضله على جرير والفرزدق والأخطل، إذ كان عهد الوليد بن عبدالملك العصر الذهبي لابن الرقاع، فقد كان بمنزلة الشاعر الرسمي للدولة، وكان ينوه بالوليد في أشعاره ويسجل مآثره ومآتيه، يقول من قصيدة يمدح بها الوليد مطلعها:

عَرَفَ الدِّيارَ تَوَهُّماً فاعْتَادَهَا ... مِنْ بعدِ ما شَمِلَ البِلَى أبْلَادَهَا[2]

---

(١) الأخطل، ديوان الأخطل، ج١، ص٣٦٥، ٣٦٦.
الأزلم الجذع: الدهر الذي يكثر من الويلات، الفرع: الأشراف، اقترعوا: تضاربوا بالسيوف.

(٢) عدي بن الرقاع (ت٩٥هـ/٧١٤م)، ديوان عدي بن الرقاع، تحقيق: د. نوري حمودي القيسي ود. حاتم الضامن، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٩١. أبلادها: آثارها.

ويشير إلى فكرة الجبر والاختيار قائلاً:

ولقد أراد الله إذ وَلاّكَهَا مِنْ أمةٍ إصلاَحَهَا وَرَشَادَهَا[١]

فالأمة بحاجة إلى من يصلح أمرها، ويقوم برعاية شؤونها، وبحاجة إلى من يهديها سبل الرشاد، وهذه الصفات تتمثل في شخص الوليد بن عبد الملك، الذي اختاره الله خليفة ومصلحاً ومرشداً لهذه الأمة؛ لأن الله أراد لها الصلاح والرشاد، فكل شيء بقضاء الله ومشيئته.

ويمضي ابن الرقاع في مدحه الوليد، مشيداً بانتصارات الأمويين السابقة في معركة مرج راهط التي قادها مروان بن الحكم، ويذكر جهود عبد الملك بن مروان صاحب الرأي السديد والحلم والنهى، ثم يخلص إلى أنّ الله اصطفى الوليد للخلافة، ورضي بخلافته وأرضى الناس بهذا الاختيار، يقول:

فَبيَّضَ الله يومَ المَرْجِ أوْجُهَهُمْ بنصرِهِ وبسيفِ اللهَ مروانَا
وبابنِهِ بَعْدَهُ عبدِ الملكِ فقدْ زادوا ذوي عَقْلِنا شكراً وإيمَانَا
ثم اصطفى الله للإسلام بَعْدَهُمَا مِنْ أهلِ بَيْتِهِما نوراً وبُرْهَانَا
رأى الوليدَ لها أهلاً فملّكَهُ واختارَ مِنَّا الذي يَرْضَى وأرْضَانَا[٢]

فالنصر يوم مرج راهط كان بتوفيق من الله، ثم بفضل سيف مروان بن الحكم الذي قاد المعركة بذكاء ودهاء، وعبد الملك لا يقل ذكاءً عن أبيه، فقد استطاع توطيد أركان الدولة بعقله النيّر، وبإيمانه الراسخ. والوليد هو سليل هؤلاء فهو نور وبرهان اصطفاه الله لهذه الأمة، وملكه عليها، لأنه أهل لهذا التمليك وأهل للخلافة في نظر الشاعر.

ولا يزال ابن الرقاع يلهج بذكر الوليد في قصائده مفضلاً إياه على من سواه وموظفاً فكرة الجبر والاختيار في مديحه، فيقول:

غَيْرَ أنّ الوليدَ ما اختارَهُ اللّهُ وللمسلمينَ فيه رِعَاءُ

ثم يصف أهل بيته من قريش وبني أمية قائلاً:

رضي اللهُ عَنْهُمْ واصْطَفَاهُمْ ولهُ مِنْ عِبادِهِ أَصْفِيَاءُ

---

(١) عدي بن الرقاع، ديوان عدي بن الرقاع، ص٩١.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧١.

فَـأَرَى أنَّـهُـمْ لـذلـك أهْـــلٌ فَـهُمُ خـيرُ مَـنْ تـُـظِلُ الـسَّمَاءُ
حَفِـظُـوا ما ولاَّهُـــم اللهُ مِنهُـمْ كلُّ قـــومٍ بأمـرِهِـــمْ أوْلِـيَـاءُ[١]

وواضح ما في هذه الأبيات من تفضيل بني أمية علـى غـيرهم، فـالله اختـار الوليـد ليكون راعيا للمسلمين، والله قد رضي عن بنـي أميـة واصطفـاهم مـن بيـن عبـاده، فـهم أفضل من أظلت السماء وأقلت الأرض؛ وقد قاموا بمهام هـذا الاصطفـاء خـير قيـام، فـهم سادة الأمة وهم أئمتها، وما كان ذلك ليتم لولا مشـيئة الله وتفضيلـه إيـاهم.

ثم يشير ابن الرقاع في أبيات أخرى إلى الموضـوع نفسـه، مادحـا ممدوحـه الـذي أخلص له المدح، فيفضله على غيره، ويقول إن المـدد الإلـهي كـان لأبيـه عبـد الملـك، إذ أعطاه الله أمر جنوده، وهذا عطاء جزل من ربٍ كريم، وقد رعـى عبـد الملـك هـذا الأمـر حق الرعاية، وقام بالمسؤولية خير قيام؛ لأنه مسؤول عن هـذه الرعيـة أمـام الله. ثـم بعـد أن فارق عبد الملك الدنيا، قضى الله بالخلافة للوليد مـن بعـده، وليـس لأحـد الخـيرة مـن أمره إذا قضى الله أمرا، يقـول:

أعطـى أبـاك الله أمـرَ جُـنـودِهِ وعطـاءُ ربِّ العالمينَ جَـزِيْـلُ
فَـرَعـى بإحـسانٍ وكلُّ خليفـةٍ عَمَّـا رَعَـى مُتَخَيَّـرٌ مَسؤولُ
وقضـى لك اللهُ الخـلافـةَ بعـدَهُ وقـضـاءُ ربِّكَ نَافِـذٌ مَفْعُـولُ[٢]

ولم يقتصر مدح عدي بن الرقاع على الوليد بن عبد الملـك، فقـد تعـداه إلـى غـيره من الخلفاء أمثال الخليفة عمر بن عبد العزيز ﷺ ، الذي مدحـه بأبيـات يقـول فيـها:

مدحت أمير المؤمنين الذي اصطفى لنا ربنا فـضـلا على كل مسلـم[٣]

ثم يذكر صفات الممدوح ويعود إلى فكرة الجبر والاختيـار مـرة أخـرى، قـائلا:

وسادسةٌ أنَّ الذي هو رَبُّنا اصْـــ ـطَـفَـاكَ فَمَـنْ يَتَّبِعْـكَ لمْ يَتَنَدَّمِ[٤]

(١) عدي بن الرقاع، ديوان عدي بن الرقاع، ص١٥٩، ١٦٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٨.
(٣) المصدر نفسه، ص١٢٩.
(٤) المصدر نفسه، ص١٣١.

وفي هذه الأبيات يشير الشاعر إلى أن عمر بن عبد العزيز أفضل المسلمين؛ لأن الله اصطفاه واختاره دون غيره، ليكون خليفة للمسلمين، وهذه نعمة أنعمها الله على المسلمين، إذ ولّى عليهم خليفة، من يتّبعه فلن يشعر بالندم؛ لما فيه من صفات الخير والفلاح.

ويتضح مما سبق أنّ ابن الرقاع كان مداحاً لبني أمية، خاصة الوليد بن عبد الملك كما يقول أبو الفرج الأصفهاني[١]، وأنه كان يتحرى المعاني الدينية والصفات المعنوية، فينسبها إلى ممدوحيه، كما يلاحظ أنه يلح في مديحه على فكرة الجبر والاختيار، ويوظفها توظيفاً جيداً لإرضاء بني أمية، آملاً في كسب هذه الحظوة لديهم، وقد آتت هذه المحاولات أكلها، إذ نال الشاعر الحظوة التي يريدها عند الأمويين وخاصة عند الوليد بن عبد الملك، الذي بلغ به الأمر إلى تهديد جرير عندما همَّ بهجاء ابن الرقاع؛ وكانت هذه الملاحاة بين جرير وابن الرقاع قد وقعت بحضرة الوليد، فقال الوليد لجرير: " لئن شتمته لأسرجنّك ولألجمنّك حتى يركبك فيعيّرك الشعراء بذلك "[٢].

وثمة شاعر آخر مدح الوليد بن عبد الملك بأبيات يتطرق فيها لهذه الفكرة، فقد كان الأحوص الأنصاري من مداحي الوليد بن عبد الملك، وكان يرفع من مكانه بني أمية في أشعاره، ويمدحهم في كثير من المناسبات، وهو يدلي بدلوه في موضع الجبر والاختيار وأمر الخلافة قائلاً:

إمامٌ أتاهُ الملكُ عفواً ولم يُصِبْ ... على مُلْكِهِ مالاً حَراماً ولا دَمَا
تَخيَّرَهُ ربُ العِبَادِ لخلقِهِ ... ولياً، وكانَ اللهُ بالناسِ أعْلَمَا
فلما ارتضاهُ اللهُ لم يدعُ مسلماً ... لبيعَتِهِ إلا أجَابَ وَسلَّمَا[٣]

ولم يخرج الشاعر الأحوص في هذه الأبيات عن النهج الذي سار عليه سابقوه فيما نسبوه إلى ممدوحيهم، فيما يتعلق بهذه الفكرة؛ فالوليد في نظر الشاعر لم يسع إلى الخلافة، وإنما أتته منقادة تجر أذيالها راغبة فيه، وهو في خلافته بعيد عما يغضب الله، فلم يسفك دما حراما، ولم يأكل مال أحد عن غير طيب نفس منه، والله تخيره وليا لخلقه

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الخامس، ص٢١٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٢١٠.
(٣) الأحوص الأنصاري، شعر الأحوص الأنصاري، ص٢٤٧.

من دون الناس؛ لعلمه بأنه أهل للخلافة، والناس ارتضوه خليفة لهم، وبايعوه على ذلك؛ لأن الله رضي خلافته. انظر كيف يصور الشعراء ممدوحيهم، وكيف يزيّنون لهم خلافتهم ويضفون عليها الصفة الشرعية، ويطبعونها بطابع ديني مقدس.

وهناك من الشعراء من كان يميل إلى العلويين، أمثال كثيّر بن عبد الرحمن الخزاعي، ولكنه مدح الأمويين، وشارك الشعراء الآخرين في توظيف فكرة الجبر والاختيار في مديحه. ولكن مدحه للأمويين بهذه الصفة يقتصر على الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي فضله كثيّر على سائر بني أمية، وربما كان مدحه له صادقاً؛ لما كان يتصف به هذا الخليفة من العفة والعدل والأمانة، فضلاً عن أنه كان يعامل العلويين معاملة تليق بمكانتهم الدينية، فقد أبطل عادة شتم علي بن أبي طالب على المنابر، وقرب العلويين، وأعاد لهم حقوقهم وكرامتهم. يقول شوقي ضيف في معرض حديثه عن كثيّر: " وربما كان عمر بن عبد العزيز أهمَّ من أخلص له في مديحه لبني أمية، وهو إخلاص مرجعه في رأينا إلى موقعه من آل البيت، فإنه بالغ في إكرامهم، ومنع عماله منعاً باتاً من سبهم على المنابر، وكان صالحاً تقياً "[1]. فلا عجب إذا أن يمدحه كثيّر بهذا المدح الذي تفوح منه رائحة الصدق والأصالة، فيقول:

وما الناس أعطوك الخلافةَ والتُّقَى ... ولا أنْتَ فاشْكُرْهُ يُثِبْكَ مُثِيبُ

ولكنَّما أعطاك ذلك عالِمٌ ... بما فيكَ مُعْطٍ للجزيلِ وَهُوبُ[2]

فالخلافة هبة من الله لعمر بن عبد العزيز، والتقى توفيق له من الله، فينبغي على الخليفة أن يشكر الله على هذه الهبة، وهذا التوفيق الإلهي، ويمكن القول؛ إن معاني كثيّر ليست جديدة، بل هي كمعاني غيره من الشعراء، تدور في فلك الاختيار والاصطفاء والتفضيل من الله للخليفة، وأن سبب فلاح الخليفة يكمن في هذه الهبات الإلهية، ويكمن في قضاء الله الذي قضاه بارتضائه خليفة.

ويتناول الفرزدق هذا المعنى نفسه في مديحه بني أمية، ويسير على نهج الشعراء الذين سبقوه، مدافعاً عن حق الأمويين في الخلافة، مستعيناً بهذه الفكرة التي

---

(١) د. شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص٣٢٢.

(٢) كثيّر عزة (ت ١٠٥هـ/٧٢٣م)، ديوان كثير عزة، جمعة، وشرحه: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص١٦٣.

أصبحت سمة من سمات المديح في العصر الأموي، يقول من قصيدة يمدح بها الوليد ابن عبد الملك:

وَكنتَ المُصَفَّى مِنْ قريشٍ ولم يكنْ لِوَطْئِكَ فِيهِمْ زيغُ كَعْبٍ ولا نَعْلِ
أشاروا بها في الأمرِ غيرَك مِنْهُمُ وولّاكَها ذو العرشِ نَحْلاً مِنَ النُّحْلِ
حَبَاكَ بها اللهُ الذي هو ساقَها إليك فقد أبلاكَ أفضلَ مَا يُبْلِي[1]

فالشاعر استطاع أن يصل إلى قلب ممدوحه بإثارة قضية الخلافة، فهي نحلة من الله نحلها الوليد وحباه بها على الرغم من الذين كانوا ينازعونه فيها، وما ذلك إلا لأن الوليد ينتمي إلى قريش، بل هو من أعرق قريش نسبا.

ويمدح الفرزدق الوليد بأبيات تتناول الموضوع ذاته، فيقول:

أمّا الوليدُ، فإنّ الله أورثَهُ بعلمِهِ فيه ملكاً ثابتَ الدَّعَمِ
خلافَةً لم تَكُنْ غَصْبَاً مَشُورَتُهَا، أرسى قَواعِدَهَا الرحمنُ ذو النِّعَمِ
كانتْ لعثمانَ لم يظلمْ خلافَتِهَا، فانتهك الناسُ مِنه أعْظَمَ الحُرَمِ[2]

فالله جل وعلا، العالم بخفايا الأمور، علم ما في الوليد من ميزات تؤهله للخلافة، فأورثه إياها، وأرسى له قواعدها، وأصبح ملكا ثابتة دعائمه، وهذه نعمة من الله أنعمها على الوليد، الذي تعد خلافته شرعية ورثها هو وآباؤه وأجداده عن عثمان بن عفان الذي تولى الخلافة بطريقة شرعية، ولكنه قضى في سبيل ذلك مظلوما، وانتهك الناس حرماته أيما انتهاك.

وقال الفرزدق أيضا يمدح سليمان بن عبد الملك، ويشير إلى ما كان من الحجاج بن يوسف الذي أشار على الوليد بخلع سليمان وتولية عبد العزيز بن الوليد:

وإنّك قد نُصِرْتَ أعَزَّ نَصْرٍ على الحَجّاجِ إذْ بَعَثَ البِغَالا
مُفَصَّصَةً تُقَرِّبُ بالدَّوَاهِي وناكِثَةً تريدُ لكَ الزِّيَالا
فقال الله: إنّك أنتَ أعْلَى مِنَ المتلمّسينَ لكَ الخَبَالا
فأعطاك الخلافةَ غيرَ غَصْبٍ ولم تَرْكَبْ لتغْصِبَهَا قِبالا[3]

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص١٤٧. نحلا: عطاءً، النحل: الشيئ المعطى تبرعا ، حباك: خصك.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٢١٠ .

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٠. البغال: الدواب التي تحمل البريد، المفصصة: الآتية بالأخبار الداعية للنكوث ونقض العهد، الخبال: الهلاك، القِبال: شسع النعل.

وهذه قضية حصلت بين الوليد وأخيه سليمان حول ولاية العهد، وآزر فيها الحجاج بن يوسف الوليد، مقترحا عليه أن يولي عبد العزيز بن الوليد ويخلع سليمان، ولكن الله سبحانه وتعالى يأبى ذلك وينصر سليمان في هذه القضية على مؤامرة الحجاج، ويَمُنُّ الله على سليمان، فتأتيه الخلافة دون أن يعمد إلى القهر والقوة، فخلافته شرعية غير مغتصبة، وولايته بتوفيق الله، فهو لم يبذل جهدا كبيرا في سعيه إلى الخلافة، وإنما تمّ له الأمر بيسر، وهذا كله بإرادة الله ومشيئته وعنايته التي أحاطت بسليمان. ويظهر من هذه الأبيات وغيرها مدى حرص الشعراء على تحسين صورة الممدوح، وإبرازه للناس بمظهر الذي لم يكن يرغب في ولاية أمور المسلمين، وبمظهر المتعفف عنها، وهذا ينافي الواقع الذي كان عليه كثير من خلفاء بني أمية، الذين كانوا يسعون إلى الخلافة، ويتنازعون عليها، حتى وإن أدى ذلك إلى سفك الدماء في سبيل الوصول إلى سدة الخلافة أو المحافظة عليه. وهذا ما حصل فعلاً بين أبناء البيت الأموي نفسه[1]، فضلاً عن إراقة دماء الخارجين عن سلطانهم والساعين إلى تنحية الأمويين عن سدة الخلافة، أمثال؛ ابن الزبير وقادة الخوارج والعلويين.

وواضح أيضا ما في هذه الأبيات من تحامل الفرزدق على الحجاج، وهذا يعود إلى الإحن القديمة بين الشاعر والحجاج الذي لم يصف له قلب الفرزدق في يوم من الأيام، فبدهي أن يظهر الحجاج في هذه الأبيات بصورة مثير الفتنة الذي يسعى إلى التدخل في الشؤون السياسية الخاصة لبني أمية.

وينال يزيدَ بن عبد الملك نصيبٌ من مديح الفرزدق، فيضفي على خلافته شيئا من القدسية والتفضيل الإلهي، حين يجعل نصره من الله، الذي حباه بالخلافة، يقول:

وما ظَلَمَ الملكَ ابنُ عاتِكَةَ التي ... لها كُلُّ بدرٍ قد أضاءَ الليالِيا

أرى اللهَ بالإسلامِ والنصرِ جاعلاً ... على كَعْبِ مَنْ ناواكَ كَعْبَكَ عَالِيا[2]

وفي هذا المعنى تكرار لما سبق، فيزيد لم يغتصب الخلافة اغتصاباً، وإنما كانت نصراً من الله الذي أعلى قدر يزيد على كل من يناوئه، ومن هذه الأشعار يتضح مدى تمسك الأمويين بخلافتهم، ومحاولة إضفاء الشرعية عليها، وهذا يدل على أن

---

(١) إشارة إلى قتل عمرو بن سعيد الأشدق الذي قتله عبد الملك بن مروان، إثر النزاع على الخلافة. ينظر التفصيلات في: (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٤، ص٨٦)

(٢) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص٣٥٢ .

الأمويين كانوا يشعرون بأنهم قد وصلوا إلى سدة الخلافة عنوة، كما يشعرون أنّ الكثير من الناس غير راضين عن هذه الخلافة ويتربصون بها الدوائر. وهذا ما دفع الأمويين إلى السعي لتحسين صورتهم أمام الناس، وإظهارهم بمظهر الذي يحرص على شؤون رعيته، مستمدا عونه من الله، ومحاطا برعايته وعنايته وتوفيقه.

على أنّ الشاعر الذي تظهر في مديحه بني أمية فكرة الجبر والاختيار بشكل لافت للنظر هو الشاعر جرير بن عطية الخطفي، هذا الشاعر تلقفه الأمويون،وعرفوا قيمة شاعريته،ووظفوه لأغراضهم السياسية. فهب مدافعا عن الأمويين بكل ما أوتي من قوة "وقد أمضى حياته يقرر في مدائحه لعبد الملك ومن خلفوه حقهم في الخلافة على الناس،وهو من هذه الناحية يعد شاعرا سياسيا بالمعنى التام،شاعرا يحامي عن نظرية الأمويين في الحكم وينافح عنهم"(١).

والمتتبع شعر جرير يرى فيه كثيرا من الأمدوحات التي يلفها في ثوب ديني، يكسبها القداسة، ويضفي عليها العفة والتقوى، "وهو يلح بصفة خاصة على فكرتين يرددهما في شعره كثيرا، ويدور حولهما في إلحاح شديد: فكرة الجبرية من جهة، وفكرة المهدي من جهة أخرى"(٢). وجرير يوظف فكرة الجبر والاختيار كما وظفها غيره من الشعراء؛ لأن هذه الفكرة كانت تلقى قبولا لدى بني أمية، أكثر من غيرها، ولأنها هي المخرج من هذا المأزق السياسي الذي يتعلق بالخلافة، وتكاد تطغى هذه الفكرة في شعره على المعاني الدينية التي كان ينسبها إلى ممدوحيه، يقول في معرض مديحه عبد الملك بن مروان:

يا آلَ مروانَ ! إنَّ الله فَضَّلَكُمْ ... فضلاً عظيماً علىَ مَنْ دينُهُ البِدَعُ

الجامعينَ، إذا ماعُدَّ سَعْيُهُمُ ... جَمْعَ الكِرَامِ ولا يوعون ما جَمَعُوا(٣)

فجرير يرى أن الأمويين جميعا دون استثناء يفضلون غيرهم من الناس، فهم ليسوا من أهل البدع، وهم يسيرون على سنة رسول الله ﷺ ، وهذا التفضيل وهذا التشريف هو من لدن حكيم خبير، ثم إنهم إذا عدت المكارم يجودون بما لديهم، ولا يجمعون المال إلا لينفقوه على من يستحقه. ولا يخفى أن جريرا في هذه الأبيات يبدو

(١) د. شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص٢٨٢.

(٢) يوسف خليف، تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، دار الثقافة،القاهرة،١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٧٢.

(٣) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٢٧٨.

شاعراً متكسباً. وهو في اغلب مدائحه بني أمية ينهج هذا النهج الذي يبلغ به حدّ الضراعة. وفي مدحة أخرى يمدح بها عبد الملك بن مروان تبرز هذه الفكرة جلية واضحة للعيان، يقول:

اللهُ طَوّقَكَ الخلافةَ والهُدَى ... واللهُ ليس لِمَا قَضَى تَبْدِيلُ
إنّ الخلافةَ بالذي ابْتَلَيْتُمُ ... قِبِكُمْ، فَليسَ لِمُلْكِهَا تَحويلُ
ولِيَ الخلافةَ والكرامةَ أهلُهَا ... فالملكُ أفْيَحُ والعَطَاءُ جَزِيلُ
فعليك جِزْيَةُ مَعْشَرٍ لم يشهدوا ... لله: إنّ محمداً لرسولُ[1]

ويبدو عبد الملك في نظر جرير مؤيداً من الله، فهو الذي طوقه الخلافة، وهو الذي قضى له بذلك، وإذا قضى الله قضاءً فليس لأحد أن ينقض هذا القضاء، والأمويون هم أهل الخلافة وهم أهل السياسة، وهم أهل العطاء الجزيل، وهم أهل الملك، ولا يستطع أحد تحويل هذا الملك عنهم، لأنهم حماة الدين، فهم الذين يرفعون راية الإسلام، وعلم الجهاد ضد المشركين. وهذه صفات دينية، ومعان إسلامية يحب كل مسلم أن يتصف بها، لذلك كان الأمويون، وخاصة عبد الملك يقربون جريراً ويغدقون عليه الأموال، لأنه يرى رأيهم في مسألة الخلافة، ويلبسها ثوب الشرعية التي ينشدها الأمويون، ولم يكن مدح جرير مقصوراً على عبد الملك بن مروان، بل تجاوزه إلى أبنائه من بعده وسار في مديحهم سيرته مع أبيهم. يقول في مدح الوليد بن عبد الملك:

إنّ الوليدَ هوَ الإمامُ المصْطَفَى ... بالنصرِ هُزّ لواؤُهُ والمَغْنَمِ
ذو العرشِ قَدّر أنْ تكونَ خليفةً، ... مَلّكْتَ فاعْلُ على المنابِرِ واسلمِ
ورث الأعِنّةَ والأسِنّةَ وانْتَمَى ... في بيتِ مَكْرُمَةٍ رفيعِ السُّلّمِ[2]

وفي هذا القول يكرر الشاعر المعاني التي سبقت في مدح عبد الملك، فأبناؤه على شاكلته، قد وهبهم الله الخلافة، فالوليد هو إمام المسلمين الذي اصطفاه الله، وأيده بنصره وقدّر أن يكون خليفة للمسلمين؛ لأنه من بيت رفيع النسب، يتصف بعظيم المكارم، فهو من قريش التي كانت لها زعامة العرب في الجاهلية.

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٣٨٠. أفيح: واسع.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٩٦.

وفي معرض مديحه بني الوليد، ينوه جرير بتفضيل الله بني أمية، ويقرن ذلك بمدحهم بالكرم والجود، وأنهم أعطوه عطاءً يغبط الحاسد، يقول مادحا عبدالعزيز بن الوليد:

عبد العزيز غِيَاثُ كلِّ مُعَصَّبٍ ... مُتَرَوِّحٍ لِجَدَا نَدَاك وغُادِرِ
مَنْ لم يجدْ دَعَماً تقيمُ عِمَادَه ... فبنو الوليدِ دَعَائِمِي وعِمَادِي
الله فَضَّلَكُمْ، وأعطى منْكُمُ ... أمراً يفَقِّئُ أعينَ الحُسَّادِ[1]

ويستمر جرير في مدحه عبد العزيز بن الوليد، ويذكر الوليد بن عبدالملك قائلا:

يكفي الخليفةَ أنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ ... سِربالَ ملكٍ به تُرْجَى الخَوَاتِيمُ
مَنْ يُعطِهِ اللهُ مِنْكُمْ يُعْطَ نافلةً ... ويُحْرَمُ اليومَ مِنْكُمْ فهوَ مَحْرُومُ
يا آلَ مَروانَ ! إنَّ الله فَضَّلَكُم ... فضلاً قديماً وفي المَسْعَاةِ تقويمُ[2]

ويكفي الخليفة أن الله ألبسه ثوب الخلافة، وفي هذا تشريف له، وهو في خلافته سيتبع المنهج الرباني الذي يرجو أن ينال به الثواب والأجر من الله، ومن يحرم هذا التفضيل وهذا الأجر الإلهي، فهو الشقي في هذه الدنيا، ثم إن بني أمية لم يصلوا إلى هذه المنزلة إلا بسيرتهم الطيبة من تقوى وصلاح وأصل عريق، وقد سعوا إلى ذلك سعيا، وقد وفقهم الله لسعيهم هذا، فكانوا أهلا للتشريف والتفضيل.

ويقول جرير مادحا أيوب بن سليمان، مشيرا إلى الفكرة ذاتها:

الله أعطاكُمُ مِنْ علمِهِ بكُمُ ... حُكْماً وما بَعْدَ حكمِ الله تَعقيبُ
أنتَ الخليفةُ للرحمنِ يعرفُهُ ... أهلُ الزَّبُورِ وفي التوراةِ مَكتوبُ
كونوا كيوسفَ لمَّا جاءَ إخوتُه ... واسْتَعْرَفوا قالَ: ما في اليومِ تَثريبُ
الله فضَّلَهُ، والله وَفَّقَهُ ... توفيقَ يوسفَ إذْ وصاهُ يعقوبُ[3]

ومرة أخرى يدخل جرير نفسه في المسائل السياسية لبني أمية، ويبدي رأيه في أيوب ويأمل أن يكون وليا للعهد بعد أبيه؛لأن ذلك مقدر ومكتوب،يعلمه أهل التوراة وأهل الزبور، وأيوب فضله الله، كما فضل بني أمية جميعا، والله وفقه كما وفق يوسف عليه السلام رغم كيد إخوته له. ويمكن القول إن جريرا قد شطح بعيدا،وعمد إلى المبالغة

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٩٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٣١.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٤، ٣٥.

من أجل تأكيد حق أيوب في ولاية العهد،معتمداً على القصص الديني في القران الكريم، من غير وجه مقارنة بين أيوب ويوسف عليه السلام ، وفي بعض المعاني إشارات إلى قوله تعالى في شأن يوسف وإخوته: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(١) وإلى قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام لما وصى يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٢)

وعندما تولى الخليفة عمر بن عبد العزيز أتاه جرير مادحاً، ولكنه لم يجد عنده ما كان يجده عند خلفاء بني أمية الذين سبقوه، فالقيم قد تغيرت، وعاد الحق إلى نصابه، وزهق الباطل وكسدت سوق المديح عند الخليفة الجديد، إلا ما وافق الحقُ، وكان منسجما مع تعاليم الإسلام. ولكن جريراً برغم ذلك يحاول ويلح في المحاولة، ويأذن له الخليفة ويسمع منه. إلا أن الخليفة لم يعط جريراً من بيت مال المسلمين، لأنه يرى أن جريراً ليس له حق في بيت مال المسلمين، ويقنع الشاعر بحجة الخليفة، ويخرج من عنده راضيا بالقليل، لأنه عرف حقيقة هذا الخليفة الذي يقرب الفقراء ويباعد الشعراء. وفي أبيات يمدح فيها عمر بن عبد العزيز، يقول:

نَالَ الخلافةَ إذ كانتْ له قَدَراً ... كما أتى رَبَّه موسى على قَدَرِ

فلن تزالَ لهذا الدينِ ما عَمِرُوا ... مِنكُمْ عَمَارةُ ملكٍ واضحِ الغُرَرِ(٣)

ولا يخرج جرير في مديحه للخليفة عمر بن عبد العزيز عما كان يمدح به الخلفاء الأمويين، فعمر لم يسع إلى الخلافة، وإنما هو قدر الله الذي جعله خليفة للمسلمين، وفي هذه الصفة مزيد من القدسية التي يضفيها الشاعر على ممدوحه، إذ يشبهه بموسى عليه السلام، وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى﴾(٤)

ويمكن القول إن هذه الأبيات في مدح عمر بن عبد العزيز تطابق واقع الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي لم يكن يعلم بما كان ينويه سليمان بن عبد الملك، لأن عمر لم يكن يرغب في الخلافة كما كان غيره يسعى إليها سعيا حثيثا بكل ما يملك من حيلة.

---

(١) سورة يوسف، الآية ٩٢.

(٢) سورة يوسف، الآية ٥.

(٣) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٢٢١.

(٤) سورة طه، الآية ٤٠.

ويمضي جرير في مدحه خلفاء بني أمية مؤيداً حكمهم، ومثبتاً دعائم خلافتهم بهذه الفكرة التي تظهر واضحة في مديحه يزيد بن عبد الملك، يقول:

لمَّا تَشَوَّقَ بعضُ القومِ قلتُ لهمْ ... أينَ اليمامةُ مِنْ عينِ السَّواجِيرِ
زوروا يزيدَ فإنَّ اللهَ فَضَّلَهُ ... واستبشروا بِمَرِيعِ النَّبتِ مَحْبُورِ
زانَ المنابرَ، واختالتْ بِمُنْتَجَبٍ ... مُثَبَّتٍ بكتابِ اللهِ منصورِ
يكفي الخليفةَ أنّ اللهَ فَضَّلَهُ؛ ... عزمٌ وثيقٌ وعقدٌ غيرُ تَغْرِيرِ(١)

فالشاعر يطلب من صحبته أن يزوروا معه يزيد، لأن في زيارته فرجا لهم. ويطلب منهم أن يستبشروا بالعطاء الجزيل مِنْ منجب وابن سادة نُجُبٍ، فلذلك هو زين المنابر، وهو مثبت بأمر من الله عز وجل، والله قد اصطفاه وفضله على غيره، وبهذا يحق للخليفة أن يفتخر، لأن الرعاية الإلهية تحيط به، ومادام توفيقه من الله فما على الرعية إلا أن ترضى بما اختاره الله لها. ويكرر مديحه ليزيد بالمعاني نفسها مؤكدا الفكرة نفسها قائلا:

اللهُ أعطاكَ فاشكرْ فَضْلَ نِعمَتِهِ ... أعطاكَ ملكَ التي ما فَوقَها شَرَفُ
هذي البريةُ ترضى ما رضيتَ لها ... إن سرتَ ساروا وان قلتَ أَرْبِعُوا وَقَفُوا(٢)

فالخلافة شرف لمن ينالها، لأن الخليفة هو الذي يقيم شرع الله في الأرض، وهو الذي يحكم بأمر الله وهذا الشرف يتمناه الجميع، ولكن هذا الشرف يكتمل إذا كانت الخلافة تأتي الخليفة بأمر من الله، وهبة منه، وما على الخليفة إلا أن يشكر فضل نعمة الله التي أنعم بها عليه.

ولأن الخليفة هو الحاكم بأمر الله، فما على الرعية إلا السمع والطاعة، وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾(٣)

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص١٩٥، ١٩٦. السواجير: اسم موضع، المريع: المكان المخصب، محبور: فريد وجميل.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٧،٣٠٨.
(٣) سورة النساء، الآية ٥٩.

ولا يقلُّ الخليفة هشام بن عبد الملك حظاً عن سابقيه من الخلفاء، فقد مدحه جرير بأبيات لا تختلف مضموناً عما سبقها من أبيات في مدح الخلفاء الأمويين حول الفكرة نفسها، يقول:

لَوَ انّ اللهَ فَضَّلَ سَعْيَ قومٍ ... صَفَتْ لَكُمُ الخلافةُ والعهودُ
على مَهَلٍ تَمَكَّنَ مِنْ قريشٍ ... لَكُمْ عِظَمُ الدَّسَائِعِ والرُّفودُ
هشامُ المُلكِ والحَكَمُ المُصَفَّى ... يَطيبُ إذا نَزَلْتَ به الصَّعِيدُ[1]

ويتضح التكرار الذي يلجا إليه جرير مضطراً في كثير من مدائحه في بني أمية، فهذا أبرز موضوع سياسي يمكن أن يظاهر بني أمية فيه، فلا بد من إعادته مراراً في مديحه، ولا بد أن يأخذ كل خليفة حظه من هذا المدح. وإن كان ترديد هذه الفكرة في شعر جرير مملاً إلا أنه هذا الترديد يكون مقبولاً عند الأمويين، بل يفضلونه على كثير من مدائح جرير وغيره. فصورة هشام بن عبد الملك تبدو مشرقة الجوانب، فهو ينحدر من سلالة طيبة، تتصف بمكارم الأخلاق، ويكفيه فخراً أنه من قريش التي زادها فخراً وتشريفاً رسول الله ﷺ، فضلاً عن ذلك سخاء اليد وكرم النفس الذي كان يتحلى به الأمويون، فعطاياهم كثيرة، ومننهم غامرة، والخليفة فوق ذلك كله يحكم بأمر الله، والذي وصل به إلى هذه المنزلة ما كان يتصف به قومه من مسلك ديني، ينم عن تقوى وطاعة لله سبحانه وتعالى، فهذه المنزلة الرفيعة جزاء لسعيهم الحميد في خدمة الإسلام.

ويستمر الشعراء في الإشادة بممدوحيهم، ويستمرون أيضا في تأييد آرائهم السياسية، مستخلصين من المعاني الدينية حججاً لتأييد أقوالهم، فهذا الشاعر النابغة الشيباني الذي قال عنه أبو الفرج الأصفهاني؛ إنه كان من مداحي القصر الأموي، وممن يتعصبون لبني أمية[2] وخاصة عبد الملك بن مروان وأبناءه، إذ كان الشاعر يرى رأيهم في مسألة الخلافة، وكان يدافع عن هذا الرأي بكل الحجج المتاحة لديه، فيقول في مدح الوليد بن عبد الملك:

إنّ الوليدَ أميرَ المؤمنين لَه ... حقٌ مِنَ اللهِ تَفْضِيلٌ وتشريفُ
خليفةٌ لم يَزَلْ يجري على مَهَلٍ ... أغَرُّ تَنْمِي به البيضُ الغَطَارِيفُ[3]

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص١١٧. الدسائع: الواحدة دسيعة وهي القدر الكبيرة، الرفود: الواحد رفد: العطاء.
(٢) ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الرابع ص٧٨.
(٣) النابغة الشيباني، ديوان النابغة الشيباني، ص١٠١. الأغر: الحسن الطلعة، الغطاريف: مفردها غطريف وهو السيد العظيم.

وما زالت فكرة الجبر والاختيار تتدحرج على ألسنة الشعراء، فيتلقفها شاعر عن شاعر من شعراء الحزب الأموي. فهذا النابغة الشيباني يسير سيرة الشعراء الذين سبقوه في تأييد حق الأمويين في الخلافة بنظرية الحق الإلهي، هذه النظرية التي روج لها جرير قبله، وغلبت على معظم شعره في مديح الأمويين. فالشاعر النابغة يرى أن الخلافة تفضيل من الله للوليد، لما في الوليد من ميزات جعلته يستحق هذا التفضيل، وفي هذا تشريف من الله لهذا الخليفة الذي ينتمي إلى السادة العظام من قريش.

وفي أبيات أخرى يمدح بها يزيد بن عبد الملك يشير النابغة الشيباني إلى المعنى نفسه قائلا:

إنّ الخليفةَ فَرْعٌ حين تَنْسِبُهُ ... مِنَ الأعاصي هِجَانٌ خَيْرُ مَنْسُوبِ
يُنَمّيه حَرْبٌ ومروانُ وأصْلُهُما ... إلى جَرَاثِيمِ مَجْدٍ غيرِ مَأْشُوبِ
نَمَاك أربعةٌ كانوا أئِمتَنا ... فكانَ مُلْكُكَ حقاً ليسَ بالحُوبِ
أعطاكَ ملكاً وتقوىً أنتَ سائِسُهُ ... بعدَ الفضائِلِ مَنْ أوْحَى إلى النُّوبِ[1]

وتقترن فكرة الجبر والاختيار بطلب العطاء في كثير من مديح شعراء بني أمية اقترانا واضحا،وهذا يتردد عند أكثر من شاعر أموي،مما يدل على أن الشعراء لم يكونوا صادقين في نسبة هذه الفضائل لبني أمية،وإنما كانوا يسعون إلى قضاء حاجاتهم؛ لذلك يقرنونها بما يرضي بني أمية من مديح ديني يساعد في تثبيت دعائم ملكهم. وهذا ما فعله النابغة في الأبيات السابقة،إذ ركز على هاتين الفكرتين: فكرة مدح الأمويين بالكرم والجود النابع من نسبهم الشريف،وفكرة تفضيل الله لهم على بقية الناس.

وبعد هذا كله يمكن القول، إن فكرة الجبر والاختيار كانت لها الغلبة على شعر المديح السياسي في العصر الأموي؛ فقد شغلت هذه الفكرة الشعراء والممدوحين معا، وكانت ملازمة للشعر في عصر بني أمية، وقلما يخلو مديح شاعر ممن مدحوا بني أمية من هذه الفكرة، فهي بمنزلة المحور الذي كان يدور حوله المديح السياسي المتعلق ببني أمية في تلك المدة، وكانت هذه الفكرة أيضا بمنزلة الدعامة السياسية التي يحتج بها الشعراء لتأييد الحزب الأموي.

---

(١) النابغة الشيباني، ديوان النابغة الشيباني، ص٤٠، الأعاصي: أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر، وهم العاص، وأبو العاص والعيص وأبو العيص، جراثيم: جمع جرثومة وهي الأصل، المأشوب: المختلط والمتداخل، الحوب: الإثم.

كما أن هذه الفكرة ظـــهرت أوائـــل العصـــر الأمـــوي، واســـتمرت طـــوال العصـــر الأموي حتى بلغت أوجها عند الشاعر جرير بن عطية الخطفـــي، وكـــانت ســـمة بـــارزة مـــن سمات مديحه للأمويين.

على أن هذه الفكرة كانت تأتي مقرونة بفكـــرة أخـــرى تدعمـــها، وهـــي أن الأمويـــن كانوا ينتسبون إلى أصل عريق، فهم من قريش التي كانت لها زعامـــة العـــرب فـــي الحجـــاز قبل البعثة. إذ كانت زعامة قريش لبنـــي أميـــة، فـــهم بـــهذه الصفـــة كـــانوا أهـــلاً للتفضيـــل الإلهي، ولهم الأحقية في ولاية أمـــور المســـلمين.

كما يظهر من الشعر الذي ذكـــرت فيـــه هـــذه الفكـــرة أنـــها كـــانت مقرونـــة أيضـــاً بالتكسب، مما يدل على أن كثيراً من الشـــعراء كـــانوا يتخـــذون مـــن هـــذه الفكـــرة وســـيلة لتحقيق مآربهم الشخصية، ويبدو هذا واضحاً في شعر كثير مـــن مداحـــي بنـــي أميـــة.

ويبدو كذلك أن الشعراء كانوا يعمدون بهذه الفكـــرة إلـــى تحســـين صـــورة الممـــدوح في أعين الرعية، ويحيطونه بهالة من الصفات الدينيـــة، التـــي تجعـــل منـــه مثـــالاً يحتـــذى، وقد وصل هذا إلى حد المبالغة الممقوتة في كثـــير مـــن الأحيـــان.

المبحث الثاني

الإمـــامـــة والمـــهـــديـــة

لم يختلف المسلمون على شـــيء أكـثر مـن اختلافـهم علـى الإمامـة بعـد وفـاة النبيﷺ. يقول أبو الفتح الشهرستاني في كتابه الملل والنحـل: " وأعظـم خـلاف بيـن الأمـة خلاف الإمامة، إذ ما سُـل سيف في الإسلام على قـاعدة دينيـة مثلمـا سـل علـى الإمامـة في كل زمان "[1] وكان منبع الخلاف في مسـألة الإمامـة كيفيـة تنصيـب الإمـام وصفاتـه. وقد عـدّ الشيعة قضية تنصيب الإمام ركن الدين "وقـالوا ليسـت الإمامـة قضيـة مصلحيـة تناط باختيار العامة، وينصب الإمام بنصبهم، بل هي قضيـة أصوليـة، وهـي ركـن الديـن، لا يجوز للرسـل عليـهم الصـلاة والسـلام إغفالـه وإهمالـه، ولا تفويضـه إلـى العامـة وإرسـاله."[2]

ولعل الخوض في المسائل الخلافية بين الفـرق فـي مسـألة الإمامـة لا يخـدم هـذه الدراسة، لذلك لا بد من الابتعاد عن هـذا الخـلاف. ولكـن يمكـن الإشـارة إلـى صفـات الإمام؛ لما لها من علاقة وثيقة بهذا البحث. فقد ورد مصطلـح الإمامـة فـي شـعر المديـح في العصر الأموي، ليحمل مفهوما دينيا له قدسيته، وله أهميتـه فـي نفـوس عامـة النـاس. وقد أورد ابن حزم الظاهري الصفات التي يجـب أن تتوافـر فـي الإمـام وذكـر منـها؛ أن يكون الإمام مسلما منفذا لأمر الله، عالما بما يلزمـه مـن فرائـض الديـن، متقيـا لله تعـالى بالجملة، غير معلن بالفساد في الأرض، ويستحب أن يكون عالمـا بمـا يخصـه مـن أمـور الدين من العبادات والسياسة والأحكام، مؤديا للفرائض كلـها لا يخـل بشـيء منـها، مجتنبـا لجميع الكبائر سرا وجهرا، مستترا بالصغائر إن كـانت منـه، ويجمـع هـذا كلـه أن يكـون الإمام قائما بأحكام القرآن الكريم، وسنة رسول الله ﷺ، فـهذا يجمـع كـل فضيلـة [3].

---

(١) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، ت(٥٤٨ هـ/١١٨٨م)، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار صعب، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج١، ص٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٤٦.

(٣) علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، ت(٤٥٦ هـ/١٠٦٣م)، الفصل في الملل والأهواء والنحـل، تحقيق: د. محمد ابراهيم نصر، ود. عبد الرحمن عمـيرة، ط١، عكـاظ للنشـر والتوزيـع، السـعودية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ج٥، ص١٠،١١.

أما المهدية فمن المسائل التي لها جذورها في عقيدة المسلمين، وقد وردت بعض الأحاديث التي تنص على ظهور المهدي في آخر الزمان، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " **لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض ظلماً وعدواناً، قال: ثم يخرج من عترتي أو من أهل بيتي من يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً**"(١).

ونظراً للخلافات التي قامت حول الإمامة، وعجز كثير من الفرق الإسلامية عن تحقيق أهدافهم في مسألة الإمامة، وإحساسهم بالظلم من لدن الطبقة الحاكمة – أخذت بعض الفرق الإسلامية في تلقيب زعمائهم بالأئمة، وقالوا؛ إن بعضاً من هؤلاء الأئمة هو المهدي المنتظر، الذي بشّر به رسول الله ﷺ، وقالوا بغيبته، وأنه سوف يعود ويقيم العدل في الأرض. وقد تبلورت هذه الفكرة مبكراً في عقيدة الشيعة، وأول ظهور لمصطلح المهدية في الشعر كان في شعر الشيعة، ثم توالى بالظهور في شعر بعض الأحزاب الأخرى، كالحزب الأموي الذي تأثر شعراؤه بشعراء الشيعة في نسبة المهدية إلى خلفاء بني أمية، نظراً لما لهذا المصطلح من أثر في نفوس المسلمين الذين باتوا يبحثون عن العدل والمساواة التي ألفوها في عهد الخلفاء الراشدين.

ويظهر أثر المهدية في شعر المديح في العصر الأموي في عهد سليمان بن عبد الملك وخاصة في شعر الفرزدق وجرير اللذين أبرزا سليمان ومن جاء بعده من الخلفاء في صورة المهدي المنتظر. وقد تبوأ هذان المصطلحان: الإمامة والمهدية مكانتهما في الشعر الأموي، وخاصة شعر المديح السياسي، وأصبحت صورة الممدوح تتجلى في هذين الموضوعين لما يحملانه من أبعاد سياسية ودينية.

وعند استعراض شعر المديح في العصر الأموي، تظهر مصداقية هذا القول. ومن ذلك قول الشاعر حَارثة بن بدر الغداني(٢) يمدح زياد بن أبيه:

---

(١) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٣، ص٣٦.

(٢) هو حارثة بن بدر بن حصين التميمي الغداني، تابعي من أهل البصرة، وقيل أدرك النبيﷺ، وله أخبار في الفتوح، أمر على قتال الخوارج فهزموه بنهر تيرا، فلما أرهقوه دخل سفينة بمن معه فغرقت بهم، ت(٦٤ هـ/٦٨٣م) (أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الرابع، ص٤٨٥. والزركلي، الأعلام، المجلد الثاني، ص١٥٨)

الا مَنْ مُبْلِغٌ عَنّي زياداً ... فَنِعْمَ اخو الخليفةِ والوزيرُ
فأنتَ إمامُ مَعْدَلَةٍ وقَصْدٍ ... وحزمٍ حين تَحْضُرُك الأمورُ
أخو خليفةِ الله ابنِ حربٍ ... وأنتَ وزيرُهُ نِعْمَ الوزيرُ
بأمرِ اللهِ منصورٌ مُعَانٌ ... إذا جارَ الرَّعِيَّةُ لا تَجُورُ
فلما قام سيفُ اللّهِ فيهمْ ... زيادٌ قامَ ابْلَجَ مُسْتَنِيرُ(١)

فهذا المديح موجه إلى أحد الولاة الأمويين، الذين خدموا الدولة الأموية، ووطدوا أركانها، بما حباه الله من دهاء سياسي، وبيان قوي، وهو الذي ألحقه معاوية ابن أبي سفيان بنسبه طمعاً في مواهبه الجمة، وخوفاً من سطوته. ويشير الشاعر إلى ذلك فيبيّن أن زياداً هو أخو الخليفة وهو وزيره وساعده الأيمن، وهو نعم الوزير الذي يقوم بأمور ولايته خير قيام، وهو فوق ذلك فيه من صفات الإمام الشيء الكثير، فهو يتصف بالعدل والبعد عن المعاصي، كما يتصف بالحزم عندما تبلغ الأمور مبلغاً لا يجدي فيها شيء إلا الحزم والشدة، وهذه المهابة وهذا الحزم من الأمور التي حباه الله بها، فهو الذي يعينه وينصره على أعدائه؛ لأنه سيف من سيوف الله سله على أعدائه. والشاعر إذ يلصق صفة الإمامة بزياد، إنما يقصد من وراء ذلك إلى إلصاق مزيدٍ من الصفات التي يجب أن تتوافر في الإمام بزياد بن أبيه، وبذلك يكسبه الشرعية في أخذ أهل العراق بالشدة لتثبيت دعائم الخلافة الأموية التي هزتها الثورات والفتن في ذلك الوقت.

ويحاول عبيد الله بن قيس الرقيات أن يفعل الشيء نفسه مع عبد العزيز بن مروان، إذ يطلق عليه هذا اللقب، فيجعل له أفضلية دينية على غيره من الناس، لأن الإمام يُعدُ قدوة للناس في أفعاله وأقواله، يقول:

منهمْ إمامُ الهدى له نِعَمٌ ... عندي وأيْدٍ تَصُوبُ بالدِّيَمِ
خليفةُ الله يُقْتَدى بِسُنَّتِهِ ... في إرثِ مَجْدِ الثَّراءِ والكَرَمِ(٢)

ولا يخفي ابن قيس الرقيات الدوافع الحقيقية التي كانت تكمن وراء هذا المديح، فهي دوافع نفعية، وصفة الإمامة لم يكن الشاعر ليطلقها على الممدوح لولا الأيدي التي سلفت من الممدوح للشاعر، ولم يكن الناس يقتدون بسنة هذا الإمام لولا الإرث الذي

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، ج٥، ص٢٢٣.
(٢) عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، ص٩، تصوب: تمطر، الديم: السحب.

ورثه عن أجداده من ثراء وكرم، وهذه الظاهرة تكثر في شعر ابن قيس الرقيات عند مديحه بني أمية.

ويحذو الأحوص حذو ابن قيس الرقيات في تلقيب ممدوحه بالإمام، فيقول مادحا:

وما كانَ مالِيَ طارفاً عنْ تِجَارةٍ ... وما كانَ ميراثاً من المالِ مُتْلَدَا
ولكنْ عطاءٌ مِنْ إمامٍ مباركٍ ... ملا الأرضَ معروفاً وعدلاً وسُؤْدُدَا
أهانَ تِلادَ المالِ للحمدِ إنَّه ... إمامُ هدى يجري على ما تَعَوَّدَا[1]

ويبدو أن الأحوص يجعل ممدوحه إماما في الكرم والعطاء أولا، قبل أن يكون إماما في الهدى والعدل، فالمديح هنا يغلب عليه طابع التكسب، والتلميح بطلب العطاء ظاهر فيه، فلولا سخاء الممدوح وإغداقه الأموال على الشاعر، لما أطلق الشاعر عليه لقب الإمامة، والشاعر من باب الاعتراف بالجميل يرفع من منزلة إمامة، واصفا إياه بالكرم والجود، مضيفا إليه بعض الصفات الدينية كالعدل والهداية. ويمكن القول، إن صفة الإمامة التي يطلقها هؤلاء الشعراء على ممدوحيهم صفة طارئة كانت تتلاشى بتلاشي هذه الدوافع النفعية.

أما كثيّر عزة، فتظهر هذه الصفة في أشعاره التي يتطرق فيها لآل البيت ويشير فيها إلى بعض معتقدات الشيعة وخاصة ما يتعلق بالإمامة والمهدية، يقول:

الا إنَّ الأئمَّةَ من قريشٍ ... ولاةُ الحقِّ أربعةٌ سَواءُ
عليٌّ والثلاثةُ من بنيهِ ... هُمُ أسباطُهُ والأوصِيَاءُ
فسبطٌ سبطُ إيمانٍ وحلمٍ ... وسبطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبلاءُ
وسبطٌ لا يذوقُ الموتَ حتى ... يقودُ الخيلَ يَقْدُمُهَا اللِّواءُ
تَغَيَّبَ لا يُرى عنهمْ زَمَاناً ... بِرَضْوَى عِندَه عسلٌ وماءُ[2]

فهذا الشعر يشير إلى بعض معتقدات الشيعة الذين يعتقدون بغيبة الإمام، كما يشير إلى مصطلح الإمامة، وما يعنيه من طابع ديني لدى الشيعة الذين يعدون الإمامة

(١) الأحوص، شعر الأحوص الأنصاري، ص١٢٣، الطارف: المستحدث من المال، متلد: المال القديم، السؤدد: السيدة والرفعة.

(٢) كثيّر عزة، ديوان كثيّر عزة، ص٥٢١.

ركنا من أركان عقيدتهم، فكثير يجعل الإمامة في أبناء علي ﷺ، وراثة عن أبيهم، ويشير إلى إمامة الحسن والحسين، ثم إلى إمامة أخيهما محمد بن الحنفية، الذي يقول كثير عنه إنه تغيب ليعود مرة أخرى، ثم يجعله هو المهدي المنتظر في أبيات أخرى فيقول:

أقَرَّ اللهُ عيني إذ دَعَاني ... أمينُ اللهِ يلْطُفُ في السُّؤَالِ
وأثْنَى في هَوَايَ عليَّ خَيْراً ... وساءلَ عَنْ بنيَّ وكيفَ حَالِي
هو المهديُّ خَبَّرْنَاهُ كَعْبٌ ... أخو الأحبارِ في الحِقَبِ الخَوالِي[1]

ويبدو الشاعر مسرورا بسبب دعوة الإمام محمد بن الحنفية إياه، وسؤاله عن حاله، فهو قرير العين، فرح بهذه الدعوة التي كانت من إمام له هذه المنزلة الدينية الكبيرة في نفس الشاعر، ثم يتجاوز الشاعر حدود المدح إلى قضية المهدية التي يدعي فيها أن محمد بن الحنفية هو المهدي المنتظر، الذي سيعود في يوم ما، ويعيد مجد العلويين وحقهم الذي سلب منهم. وينقل كثير عزة المعاني التي يمدح بها الشيعة إلى بني أمية فيصف يزيد بن عبد الملك بأنه الإمام السديد الرأي، فيقول آمرا ناقته بالمسير إليه:

إلى الأبيضِ الجُعْدِ ابنِ عاتكةَ الذي ... لهُ فضلُ ملكٍ في البريةِ غالبُ
كريمٌ يَؤولُ الراغبون ببابِهِ ... إلى واسعِ المعروفِ جزلِ المَوَاهِبِ
إمامٌ هُدىً قد سَدَّدَ اللهُ رأيَهُ ... وقد أحكمتْهُ ماضياتُ التَّجَارِبِ
ولم يبلغِ السَّاعونَ في المجدِ سَعْيَهُ ... ولم يَفْضُلوا إفْضَالَه في الأقَارِبِ[2]

وعند المقارنة بين مديح كثير آل البيت، ومديحه الأمويين، يبدو الفارق كبيرا فمديح آل البيت في شعر كثير يبدو نابعا من تجربة شعورية صادقة، مصدرها الحب الشديد لآل البيت، والانتماء الحقيقي لهم، فالمعاني الدينية في هذا المديح بارزة، ومستمدة من واقع الممدوح، ومطابقة لصفات الممدوح، بينما مديحه بني أمية يبدو أقل حماسة؛ لأن مبعثه التكسب، فطلب العطاء في مديحه الأمويين يغلب على الفضائل الدينية التي ينسبها إليهم كصفة الإمامة التي يصف بها يزيد، ويقتصر عليها، مضيفا إليها بعض الأوصاف التقليدية كالكرم، والمعروف، والمجد، والحكمة. ولا يختلف

(١) كثير عزة، ديوان كثير عزة، ص٢٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٤١، ٣٤٢. الجعد: السخي الكريم.

كثيّر في مديحه الأمويين عن ابن قيس الرقيات والأحوص في مضمون هذا المديح التكسبي، وإن كانت هناك بعض الإشارات الدينية، فما هي إلا سلم للوصول إلى غايتهم النفعية.

وقد تلقف الشعراء الذين يشايعون بني أمية هذين المصطلحين من الشيعة، ونسبوهما إلى الخلفاء الأمويين، فقد ورد ذكر الإمام المهدي كثيراً في شعر الفرزدق الذي مدح به بني أمية. وخاصة في مديحه سليمان بن عبد الملك، كقوله:

كُنَّا نُنَادِي اللهَ نسألُهُ ... في الصبحِ والأسْحارِ والعَصْرِ
أن لا يُمِيتَكَ أو تكونَ لنَا ... أنتَ الإمامَ ووالِيَ الأمرِ
فأجَابَ دعوَتَنَا وأنْقَذَنَا ... بِخلافةِ المهديِّ مِنْ ضُرِّ[1]

فالفرزدق في هذه الأبيات يبدو متأثراً بمديح الشيعة أئمتهم، مع قليل من الاختلاف بينه وبين شعراء الشيعة، ففي حين يحدد الشيعة إمامهم المنتظر، وينتظرون خروجه، فإن الفرزدق يجعل سليمان هو المهدي، وهو الإمام الذي ينتظره الناس، ويدعو الله صباح مساء أن يوليه عليهم، وقد استجاب الله دعوتهم وأنقذهم من الظلم والجور الذي كانوا يعانون منه، لأن سليمان ملأ الأرض عدلاً وأمناً، بعد الضرر الذي حلّ بها.

ويواصل الفرزدق نعت سليمان بالمهدية قائلاً:

ما قلتُ إلا الحقَّ تَعرِفُهُ ... في القولِ مُرتجلاً وفي الشِّعْرِ
إنْ نحنُ لم نَمْنَعْ بطاعَتِنَا ... والحبِّ للمهديِّ والشُّكْرِ
فَغَدَتْ علينا في مَنَازِلِنَا ... رُسُلُ العذابِ بِرَغْوَةِ البَكْرِ[2]

وهنا يشير الشاعر إلى طاعة الإمام، بصفته ولي الأمر، وما دام متصفاً بصفات المهدي فطاعته واجبة، وشكره واجب، وحبه واجب، وفي هذا تحذير من عصيان أمره، وإلا حلّ بالأمة ما حلّ بثمود من العذاب، بسبب عصيانهم نبيهم صالحاً عليه السلام، والتمرد على أوامره، بعدم إلحاق الضرر بالناقة، مما أودى بهم إلى الجحيم. ويبدو الشاعر في هذه الأبيات محباً سليمان، متحمساً لسيرته المهدية التي يحكم بها الرعية.

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٢٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٦٣. رغوة البكر: أي بكر الناقة إذا رغا على قوم ثمود فأهلكوا.

ويوغل الفرزدق في مدح سليمان بن عبد الملك أكثر فأكثر، فيحاول أن يستند إلى سند تاريخي تنقصه الموضوعية يدعم حجته في أنّ سليمان هو المهدي المنتظر، فيقول:

أنتَ الذي نَعَتَ الكتابُ لنَا ... في ناطقِ التَّوراةِ والزُّبُرِ
كَمْ كانَ مِنْ قَسٍّ يُخَبِّرُنَا ... بخلافة المهديّ أو حَبْرِ
جَعَلَ الإلهُ لنا خِلافَتَهُ ... بُرْءَ القروحِ وعِصْمَةُ الجَبْرِ[1]

وهذا السند التاريخي الذي يتكئ عليه الفرزدق سند واهٍ، لا يمكن التعويل عليه في نسبة المهدية إلى سليمان بن عبد الملك، ويبدو أن الشاعر عمد إلى التهويل قاصداً تدعيم أقواله في زعمه أن سليمان هو المهدي المنتظر، وأن الله اختاره للخلافة، فكانت خلافته شفاء للناس من الظلم الذي حل بهم قبل مجيء هذا الخليفة. وفي هذه الأبيات وسابقتها ما يدل على أن الأمة كانت تعاني شيئاً من الظلم على أيدي بعض ولاة الأمر في العصر الأموي، وهذا ما سجله الشعراء عند مدحهم أي خليفة عند توليه عرش الخلافة، إذ يشيرون إلى أنه هو المخلّص، وهو الذي أصلح ما أفسده السابقون له، وأن الأمور قد استقامت وارتاح الناس بخلافته؛ حتى إذا ذهب وجاء غيره، أخذ الشعراء ينقضون ما قالوه، فيمدحونه بما مدحوا به من سبقه، متناسين الصفات الدينية التي نسبوها إلى من قبله.

ولا يزال الفرزدق يعلي من شأن سليمان، رافعاً منزلته إلى منزلة المهدي، قارناً ذلك بشيء من صفات المهدي التي يتصف بها سليمان قائلاً:

فأصبحَ صُلْبُ الدين بعدِ التوائه ... على الناس بالمَهْديّ قَوّمَ مايلُهْ
حَمَّلْتَ الذي لم تحملُ الأرضُ والتي ... عليها فَأَدّيتَ الذي أنتَ حامِلُهْ
إلى الله مِنْ حَمْلِ الأمانةِ بعدما ... أُضيعَتْ وغالَ الدينَ عنّا غَوائِلُهْ[2]

ومدح الفرزدق سليمان إنما هو رسم للصورة التي يريد الشاعر أن ينسبها للخليفة، فصلب الدين كان ملتوياً، والأمانة قد ضُيّعت، ولا يستطيع أحد أن يرد الأمور إلى مجاريها إلا من يحمل صفات المهدي المنتظر الذي يراه الشاعر في شخص سليمان، فهو الذي قوّم عصا الدين بعد اعوجاجها، وحمل الأمانة التي عجزت عن

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٢٦٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٩٠.

حملها الأرض وما أقلت، وأدى الأمانة كما أمره الله، وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾(١)

ويوالي الفرزدق مدحه سليمان مخاطبا ناقته المتوجهة إلى إليه قائلا:

فإن أمامك المهديّ يهدي ... به الرحمنُ مَنْ خشيَ الضَّلالا
وقصْرُك مِنْ نَداهُ فبَلِّغِيني ... كفيضِ البحرِ حينَ علا وسالا(٢)

فهذا تأكيد صفة المهدية، فالممدوح يهدي به الله المتنكبين طريق الحق، والضالين الذين يحيدون عن شرع الله، فضلا عن الكرم والجود الذي يتصف به الممدوح، فهو صاحب فضل على الشاعر. وهكذا يمكن القول إن تركيز الفرزدق في مديحه سليمان يقع على صفتين اثنتين: الإمامة والمهدية من ناحية، والصفات العربية من الكرم والندى من ناحية أخرى، وتأتي هاتان الصفتان مقرونتين ببعضهما في أغلب مدائح الفرزدق سليمان، مما يدل على أن الشاعر كان يذهب إلى سليمان مستنديا طالبا للعطاء أكثر من كونه مداحا مسجلا لمآثر الخليفة، ولا يقتصر فضل سليمان على الفرزدق وحده، بل تعداه إلى قوم الفرزدق، الذين يطلب منهم الشاعر أن يشكروا لسليمان صنيعه معهم، إذ فك أسرهم من غوائل الدهر، وطرد عنهم شبح الفقر بعطاياه الكثيرة، يقول الفرزدق مخاطبا قومه:

ألا تشكرونَ الله إذ فَكَّ عَنْكُمُ ... أَداهِمَ بالمهديّ صماً ثِقالُها(٣)

وهذا من الأمور التي يمكن ملاحظتها في المديح في العصر الأموي، إذ كان الشعراء سفراء قومهم عند الخلفاء يعرضون عليهم مشاكلهم، ويصورون همومهم، ويسألون لهم الرفد والعطاء، كما يوصلون شكواهم بسبب ظلم الولاة لهم.

على أن الفرزدق ليس وحده الذي كان يتردد على بلاط سليمان، بل شاركه غيره من الشعراء، ولكن منافسه الذي كان ينازعه المكانة عند سليمان هو الشاعر

---

(١) الأحزاب، الآية ٧٢.

(٢) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص٩٩، ١٠٠.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٣. الأداهم: مفردها أدهم: وهو القيد.

جرير بن عطية الذي كان مداحاً لسليمان بن عبد الملك. وليس ثمة فارق كبير بين مديح الفرزدق ومديح جرير لهذا الخليفة، فالمعاني التي طرقها الفرزدق هي المعاني نفسها التي تناولها جرير في مديحه، وتتمثل في صفات المهدي المنتظر، وفي كرمه العميم وخيره الوفير، فعند مديحه سليمان يحاول جرير أن يبرزه في ثوب الإمامة الطاهر النقي من الدنس، الذي يستمد هذه الطهارة مما ينسبه إليه من صفات المهدي المنتظر، وفي هذا يقول جرير في مدح سليمان:

سليمانُ المباركُ قد عَلِمْتُمْ ... هو المهديُّ قد وضحَ السَّبيلُ
أَجَرْتَ مِنَ المظالِمِ كلَّ نفسٍ ... وَأَدَّيْتَ الذي عَهِدَ الرَّسُولُ[1]

فسليمان هو المهدي في نظر الشاعر دون مواربة، لأنه إمام عادل، حفظ الأمانة التي ائتمنه الله عليها باستخلافه في هذه الأمة، وقد بارك الله في ملكه لما رأب صدع الدين، وأقام موازين العدالة، بعد أن كانت هذه الموازين مضطربة، بسبب الظلم الذي كان يتعرض له الناس، وفي هذا تعريض غير مباشر بالخلفاء الذين سبقوا سليمان والذين مدحهم جرير مدحاً لا يقل عن مدحه سليمان. ويبدو أن الإمامة عند الشاعر جرير وراثية تنتقل من الخليفة إلى ابنه، فهو عند مدحه أيوب بن سليمان يرجو أن تكون الإمامة لأيوب بعد أبيه، وهذه مساندة من الشاعر لسليمان في قضية ولاية العهد، وكأن الشاعر يشير على الخليفة بتولية ابنه من بعده، لأنه أحق بالولاية من غيره؛ لما يتصف به من صفات الإمامة التي اكتسبها من أبيه، وفي هذا يقول جرير:

إنّ الإمامَ الذي تُرْجَى نَوافِلُهُ ... بعدَ الإمامِ وليُّ العهدِ أيوبُ
مُسْتَقْبِلُ الخيرِ لا كَابٍ ولا جَحِدٍ ... بَدْرٌ يَغُمُّ نجومَ الليلِ مَشْبُوبُ[2]

وتظهر صفة الإمامة والمهدية في مدح جرير عمر بن عبد العزيز، وتتضح الصفات الدينية البارزة في شخص الخليفة عمر بن عبد العزيز، فهو الخليفة المبارك الذي تشبه سيرته سيرة المهدي؛ لما يتصف به من تقوى، فهو يقوم الليل بقراءة القرآن، وهو الذي يحاسب نفسه، ولا يتبعها هواها، وهو المثال الحق للخليفة المسلم الزاهد الذي يستحق لقب المهدي بجدارة، كما يقول الشاعر:

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص٣٤٦، ٣٤٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٤. كاب: من كبا الفرس أي عثر كناية عن البخل، يعم نجوم الليل: يستر ضوءها، المشبوب: الواضح المنير.

أنتَ المباركُ والمَهْديُّ سيرَتُهُ تعصي الهوى وتقومُ الليلَ بالسَّوَرِ
أصبحتَ للمِنْبرِ المَعْمُورِ مَجْلِسُهُ زَيْناً وزَيْنَ قِبابِ الملكِ والحجرِ[1]

وتبدو نبرة الصدق واضحة في هذا المديح، لمطابقته واقع الممدوح، واعتراف الشاعر بالفضائل الدينية الحقيقية التي كان يتصف بها عمر بن عبد العزيز، ومنها أنه كان يعلو المنابر، لا ليحسّن صورته أمام الناس بالكلام المنمق، ولا ليفرض رأيه على الآخرين بالقوة، بل ليعظ الناس ويحثهم على طاعة الله، ويحذرهم من عصيانه ومخالفة أمره.

ويصرح جرير بغايته التي يريد بلوغها من وراء مدح هشام بن عبد الملك، الذي يلقبه بالمهدي الذي يفزع إليه إذا اشتدت به الحاجة فيقول:

فَيا ربَّ البريَّةِ أعطِ شكراً وعافيةً، وأبْقِ لنا هِشَامَا
وثِقْنَا بالنَّجاحِ، إذا بَلَغْنَا إمامَ العدلِ والملكِ الهُمَامَا
إلى المهديِّ نفزعُ إنْ فَزِعْنَا ونَسْتَسْقِي بِغُرَّتِهِ الغَمَامَا
رَضينا بالخليفةِ حين كنَّا له تَبَعَاً، وكانَ لنَا إمَامَا
تَبَاشَرَتِ البلادُ لكمْ بحُكْمٍ أقامَ لنا الفرائضَ واسْتَقَامَا[2]

والشاعر في هذه الأبيات يبرز أكثر من صفة دينية لممدوحه، فهو الإمام العادل الذي يطمئن الناس إلى حكمه، وهو المهدي الذي يفزع الناس إليه إذا أمسكت السماء فيستسقون به؛ لما يتصف به من التقوى ومن طهارة الإزار والاستقامة، فضلاً عن إقامة فرائض الإسلام، وهذه الصفات هي صفات المهدي المنتظر الذي ينشدها الشاعر في شخص ممدوحه الذي تشبه سيرته سيرة المهدي المنتظر.

ويكرر جرير بعض هذه المعاني في مدحةٍ أخرى يمدح بها هشام بن عبد الملك فيقول:

تَعَرَّضَتِ الهُمومُ لنا فَقَالَتْ جُعَادَةُ: أيَّ مُرْتَحَلٍ تُرِيدُ
فقلتُ لها الخليفةُ غيرَ شكٍّ هو المهديُّ والحكمُ الرَّشِيدُ[3]

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص٢١٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٠٩، ٤١٠.
(٣) المصدر نفسه، ص١١٦.

ويأبى التكسب إلا أن يظهر في معظم مدائح جرير بني أمية، والدافع لهذا التكسب هذه المرة الهموم التي يعاني منها الشاعر، فهو يسعى إلى المهدي المتمثل في شخص هشام لعله يجد عنده الخلاص من همومه. ويبدو الشاعر واثقاً من نيل مطالبه، فهو يثق ثقة كبيرة في هشام بن عبد الملك، هذا الخليفة الرشيد في حكمه، والبعيد عن الهوى والزيغ والضلال.

وتبقى صفة الإمامة والمهدية من الصفات البارزة في الشعر الأموي، يتناولها الشعراء، من غير تغيير في المضمون، ولكنها تكرار لما سبق، فهذا النابغة الشيباني يمدح يزيد بن عبد الملك فيلبسه ثوب الإمامة، ويذكر بعض الصفات التي يتحلى بها الإمام والبادية في شخص الممدوح، فيقول:

وأنتَ ابنُ الخلائِفِ مِنْ قريشٍ نَمَوْكَ وفي عَدَاوَتِهِمْ إبَاءُ
إمامُ النَّاسِ لا ضَرِعٌ صغيرٌ ولا فَحْمٌ يُثَلِّمُهُ الذَّكَاءُ[1]

فإمام الشاعر رزين وهادئ ولا ينقصه الذكاء، وليس هو بالجبان الذي يقعقع له بالشنان، ويزيده وقاراً واحتراماً أنه سليل خلفاء قرشيين شديدي المراس في عداوتهم، يأبون أن يلينوا لعدوهم.

وهكذا درج الشعراء على هذا النهج، يلقبون ممدوحهم بالإمام، ويضيفون إليه لقباً آخر وهو المهدي، وتجاوز ذلك إلى كثير من الشعراء الذين كانوا يرتادون البلاط الأموي، كالشاعر القطامي الذي حذا حذو غيره من الشعراء في تناول هذا الجانب الديني المتعلق بالسياسية الأموية، إذ يقول مادحاً الوليد بن عبد الملك:

ليسَ المُريبُ بِمَنْ أتى سُلْطَانَهُ طوعاً وطالبَ حاجةٍ فَقَضَاهَا
ارْجُو الخليفةَ إذْ رَحَلْتُ مُيمِّماً والنفسُ تدركُ في الرّحيلِ مُنَاهَا
وإذا عَلِقْتُ مِنَ الوليدِ بِذِمَّةٍ سَكَنَتْ إليّ جوانِحي وَحَشَاهَا
أنتَ الإمامُ ابنُ الإمامِ لأمّةٍ أضْحَى بِكَفِّكَ فَقْرُهَا وغِنَاهَا[2]

ولا عجب أن يمدح الشاعر القطامي الوليد واصفاً إياه بالإمام، ولا عجب أيضاً أن يقبل الوليد هذا المديح من هذا الشاعر، بل العجب في أن كلاً منهما كان يسعى

(١) النابغة الشيباني، ديوان النابغة الشيباني، ص٣٢، ٣٣. ضرع: جبان، يثلمه الذكاء: يضعف أمام ذكاء غيره.
(٢) القطامي، ديوان القطامي، ص١١٩.

لإدراك حاجته عند الآخر؛ فالشاعر أتى الوليد طوعا، وقطع المسافات، ميمما تلقاء الخليفة، متحملاً عناء السفر، متيقناً من تحقيق مبتغاه، ومطمئنا إلى جوار الوليد، هذا الإمام الذي ورث الإمامة عن آبائه وأجداده. وفيما يقابل ذلك، فإنَّ الوليد يريد أن يسمع هذا المدح من الشاعر؛ لأنه يعلي من شأنه بنسبة الإمامة إليه، لما تحمله الإمامة من معانٍ قدسية لها مغزاها الديني والسياسي.

ويدلي الشاعر يزيد بن ضبة[١] بدلوه في قضية الإمامة، إذ يصف ممدوحه الوليد بن يزيد بأنه الإمام الذي يوضح الحق، وينير الطريق للأمة بنور عدله، ثم يقرن هذا الوصف بوصف آخر حين يصفه بالكرم والجود، فهو يهب النوق الغزيرة اللبن، ويهب كرام الإبل لمن يقصده مادحا، يقول:

سَأَرْمِي قَانِصَاتِ البِيـ ـدِ إنْ عِشْتُ بِعُسْبُورِ
لِتَعْتَامَ الوليدَ القَـ ـرْمَ أهلَ الجودِ والخيرِ
كريمٌ يهبُ البُزْلَ مَعَ الخُورِ الجَرَاجِيرِ[٢]

ويفعل الشاعر طريح بن إسماعيل الثقفي[٣] الشيء نفسه مع الوليد بن يزيد، فيمدحه بقوله:

أنتَ إمامُ الهدى الذي أصلحَ اللـ ـهُ بهِ الناسَ بعدما فَسَدُوا
لمَّا أتى الناسَ أنَّ مُلْكَهُمُ إليكَ قد صارَ أمرُهُ سَجَدُوا
واستبشروا بالرِّضا تَبَاشُرَهُمْ بالخُلْدِ لو قيلَ إنَّكُمْ خُلُدُ[٤]

---

(١) يزيد بن ضبة: يزيد بن مقسم الثقفي، من موالي ثقيف، وضبة أمه، من أهل الطائف، انقطع إلى الوليد بن يزيد بالشام، فكان لا يفارقه، ت(١٣٠ هـ/٧٤٧م) (أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الرابع، ص٦٩. والزركلي، الأعلام، المجلد الثامن، ص١٨٩)

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الرابع، ص٧١، ٧٢، العسبور: الناقة الشديدة، تعتام: تختار، الخور: النوق الغزيرة اللبن، الجراجير: الإبل الكريمة.

(٣) طريح بن اسماعيل بن عبيد بن أسيد الثقفي، أبو الصلت، شاعر الوليد بن يزيد الأموي وخليله، انقطع إليه قبل أن يلي الخلافة، واستمر اتصاله به، وأكثر شعره في مدحه، ت(١٦٥هـ/٧٨١م) (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج٢، ص٧٨. والزركلي، الأعلام، المجلد الثالث، ص٢٢٦)

(٤) طريح بن اسماعيل الثقفي ت(١٦٥ هـ/٧٨١م)، شعر طريح بن إسماعيل الثقفي، دراسة وجمع وتحقيق: د. بدر أحمد ضيف، دار المعرفة، الاسكندرية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص٨٣.

وقد يعجب المرء عند سماع هذا المديح لشخص الوليد بن يزيد، ولكن العجب يزول حين يعلم أن طريح بن إسماعيل كانت له حظوة كبيرة عند الوليد؛ وذلك لخئولة الوليد في ثقيف، وقد كان معظم شعر طريح في الوليد بن يزيد، وكان الوليد يقربه ويكرمه، ويأذن له، وقد خُص بالوليد حتى صار من ندمائه المقربين[١]. ويحاول طريح في هذا المديح أن يكسب ممدوحه شيئاً من القداسة بوصفه بالإمام الذي أصلح الله به الناس بعد فسادهم، كما يصور فرحة الناس بخلافته، وهذه الفرحة جعلتهم يسجدون شكراً لله على هذه النعمة التي أنعم الله عليهم بها، واستبشروا بهذه الولاية، وبدت عليهم علامات الرضا، وتمنوا دوام هذه الخلافة ذات الطابع القدسي.

وهذا المديح من الشاعر طريح بن إسماعيل، ومن قبله الشاعر يزيد بن ضبة دلالة واضحة على مدى المبالغة لدى هذين الشاعرين تجاه الوليد بن يزيد الذي تكاد معظم المصادر التاريخية أن تجمع على مجونه وفسقه.

(١) أبو الفرج الاصفهاني، الأغاني، المجلد الثاني، ص٤٦٧.

المبحث الثالث

إرث النبوة وشرعية الحكم

حمل الصحابة رضوان الله عليهم هذه الرسالة وأكملوا هذه المسيرة بعد رسول الله، وكانوا يتبركون بكل ما له علاقة به، وكانوا يتشبهون به في سنته، ويسيرون على نهجه، ويتبعون منهجه في الدعوة إلى الله. وأصبح التمسك بإرث النبوة مطلباً يسعى إليه كل المسلمين، ويعدونه عنواناً لمدى التزامهم بشرع الله. وامتدّ هذا الشيء إلى النواحي السياسية بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وظهور الصراع على السلطة.

وكان خلفاء الأمة الإسلامية وولاتها يحرصون على أن يلتصق بهم شيء من هذا الإرث النبوي؛ لأهميته في إضفاء مزيدٍ من الشرعية على هذا الحاكم أو ذاك، وكان التقرب من نسب النبي ﷺ من أهم الأمور التي كانوا يحبون أن يمدحوا بها؛ لهذا يظهر في الشعر الأموي وخاصة شعر المديح كثير من الأشعار التي تتناول هذا الجانب؛ إذ عمد الشعراء إلى إضفاء القداسة على الممدوح بتقريب نسبه من نسب رسول الله ﷺ.

وإذا كانت فكرة الجبر والاختيار سادت في شعر المديح الذي قيل في بني أمية، فإن المدح بإرث النبوة وما يتعلق بها قد برز بوضوح في الشعر الذي قيل في مدح الهاشميين، وخاصة عند الكميت بن زيد الأسدي في هاشمياته.

وعند استعراض هذا المديح المتعلق بموضوع إرث النبوة، تظهر صورة الممدوح صاحب التقوى الذي يسير على سنة الرسول، مهتدياً بهديه، ومتبعاً منهجه في معاملة الرعية، أو يبدو عليها شيء من المهابة والقداسة لقربه من الرسول ﷺ، يقول عبيد الله بن قيس الرقيات مادحاً عبد الله بن جعفر، وكان ذلك في علته التي مات فيها:

هَاشِمِيّ بِكَفّهِ مِنْ سَجَالِ الـ ... ـمجدِ سَجْلٌ يُهانُ فيه المَتَاعُ
بَيْتُهُ مِنْ بيوتِ عبدِ مُنَافٍ ... مَدَّ أطْنَابَهُ المكانُ اليَفَاعُ
مُنْتَهى الحمدِ والنبوةِ والخيـ ... ـرِ إذا قصّر اللّئَامُ الرُّضَاعُ [1]

---

(١) عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان عبيد الله بن قيس الرقات، ص ١٤٨، السَجل: الدلو، اليفاع: كل ما ارتفع من الأرض، الرُّضاع: رَضُعَ رضاعة فهو راضع أي خسيس لئيم .

وتبدو صورة الممدوح واضحة المعالم، إذ رسم الشاعر لممدوحه صورة قدسية مستمدة من إرث النبوة، فالممدوح من بني هاشم الذين اصطفى الله منهم نبياً، وهذا الممدوح سليل المجد؛ لأنه من بيوت عبد مناف الذين منهم رسول الله ﷺ، فهو في أعلى مرتبة من بني هاشم، وقد بلغ منتهى المجد، ومنتهى الجود والكرم، لأن نسبه قد ارتقى به، في حين تأخر بغيره نسبهم الوضيع، فلم يستطيعوا مجاراته، وفي هذا تعريض بالأمويين خصوم الهاشميين.

ويمدح الشاعر عبد الله بن همام السلولي[١] محمد بن الحنفية قائلاً:

وفي ليلةِ المُخْتارِ ما يُذْهِلُ الفَتَى ... ويُلْهِيهِ عَنْ رُود الشَّباب شموعِ
دَعَا: يا لثاراتِ الحسينِ فأقْبَلَتْ ... كتائِبُ مِنْ هَمَدَانَ بعد هَزِيعِ
فآب الهدى حقاً إلى مُسْتَقَرِّهِ ... بخير إيابٍ آبه ورجوعِ
إلى الهاشميّ المُهْتَدَى بضيائِهِ ... فنحنُ له مِنْ سامِعٍ ومُطيعِ[٢]

فهذه الأبيات قيلت في إحدى وقائع المختار الثقفي الذي كان يدعو إلى الهاشميين، ويقاتل بسيفهم، ولا يخفي الشاعر فرحته برجوع الأمر إلى نصابه، وبأوبة الهدى إلى مستقره، ومكانه الصحيح. ومحمد بن الحنفية في نظر الشاعر هو حامل إرث النبوة،وهو أحق بإمامة المسلمين من غيره،وعلى المسلمين أن يسمعوا له ويطيعوا أمره؛ لأنه ابن علي بن أبي طالب ﷺ،الذي يرى الشيعة أن تكون الإمامة في أبنائه.

وفيما يناظر ذلك نجد الشاعر أبا دهبل الجمحي يمدح عبد الله بن عثمان بقوله[٣]:

قَضَتْ وَطَراً مِنْ اهلِ مَكَّةَ ناقتي ... سوى أملٍ في الماجِدِ ابنِ حِزَامِ
جميلِ المُحَيّا مِنْ قريشٍ كأنّه ... هلالُ بدا من سُدْفَةٍ وظلامِ
فأكْرِمْ بنسلٍ منك بين محمدٍ ... وبينَ عليٍّ فاسْمَعَنْ كلامِي

---

(١) عبد الله بن همام السلولي: من بني مرة بن صعصعة، شاعر إسلامي،أدرك معاوية،وبقي إلى أيام سليمان بن عبد الملك، كان يقال له العطار لحسن شعره ت(١٠٠ هـ/٧١٨م) (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج٢، ص٦٥١. والزركلي، الأعلام، المجلد الرابع،ص ١٤٣).

(٢) محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، السفر الثاني، ص ٦٣٣ – ٦٣٥.

(٣) عبد الله بن عثمان: هو عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، وأمه رملة بنت الزبير، وزوجته سكينة بنت الحسين، (الزبير بن بكار ت(٢٥٦هـ/٨٩٦م)، جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج١، ص ٣٨٨).

وبينَ حكيمٍ والزُّبَيرِ فلن ارى لهم شَبَهاً في مُنْجِدٍ وتهامِ[١]

ويبدو الممدوح مشرق الوجه قرشي النسب،ينمي نسبه إلى أعالي قريش،فهو فرع من أصول شريفة النسب،كعلي والزبير وحكيم بن حزام،وقد لا يكون نسب الممدوح يتصل فعلاً بمن ذكرهم الشاعر،ولكن لكونه ينتسب إلى قريش،فإنه يلحقه شيء من شرف هؤلاء ويتصف ببعض ما اتصفوا به من صفات لها علاقة كبيرة بإرث محمد ﷺ.

ولقد كان نسب رسول الله وأهل بيته الشرفاء مصدر إلهام لكثير من الشعراء الذين كانوا يعلنون صراحة ولاءهم لآل البيت، ويلاقون جراء ذلك كثيراً من العنت والجفاء من خصومهم، ولكنهم يمضون غير آبهين بهذه المعاناة في سبيل حب نبيهم وحب آل بيته، وعلى هذا درج معظم شعراء الشيعة ومن دار في سلكهم.

ويعد الشاعر كثيّر عزّة من أبرز الشعراء الذين تعصبوا لآل البيت؛لأنه كما يقول الرواة كان ينتمي إلى فرقة الكيسانية[٢] من الشيعة،ويؤمن بالرجعة؛فبدهي أن يظهر ذلك في أشعاره التي كان يبدي فيها حبه للأئمة من آل البيت؛وخاصة محمد بن الحنفية، إذ يقول في أبيات يعرض فيها بابن الزبير،ويبدي نقمته عليه بسبب حبسه لابن الحنفية:

لك الويلُ مِنْ عَينَي خُبَيْبٍ وثابتٍ وحمزةَ أشباهِ الحِداءِ التّوائمِ
تُخَبِّرُ مَنْ عاديتَ أنّك عائذٌ بلِ العائذُ المظلومُ في سِجْنِ عارِمِ
وَمَنْ بِرَ هذا الشيخَ بالخيفِ مِنْ مِنًى مِنَ الناسِ، يَعلَمْ أنّهُ غيرُ ظالِمِ
وصيُّ النبيِّ المُصْطَفَى وابنُ عَمِّهِ وفكّاكُ أغلالٍ وقاضي مَغارِمِ[٣]

فكثيّر لا يخفي نقمته على ابن الزبير الذي حبس محمد بن الحنفية، الذي أبوه علي بن أبي طالب، وابن الزبير ظالم لابن الحنفية، وهو يدعي أنه عائذ بالبيت الحرام، ولكن العائذ الحقيقي بالله هو هذا الإمام، وهذا الحكم هو حكم الناس جميعاً. وهذا القول يدل على تعصب كثيّر لمحمد بن الحنفية وبغضه لابن الزبير.

---

(١) أبو دهبل الجمحي ت(٦٣ هـ/٦٨٢م)، ديوان أبي دهبل الجمحي، رواية أبي عمر الشيباني، تحقيق: عبد العظيم عبد المحسن، ط١، النجف الأشرف، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص٥١، السدفة: ظلمة فيها ضوء من أول الليل وآخره.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الخامس، ص٦.

(٣) كثيّر عزة، ديوان كثيّر عزة، ص ٢٢٤، ٢٢٥، عائذ: محتم بالبيت، عارم: السجن الذي حبس فيه محمد ابن الحنفية.

ويشارك الفرزدق في هذا الموضوع، ويوظف إرث النبوة في مدائحه، فعند مدحه سعيد بن العاص يحاول أن يجعل نسب سعيد قريباً من نسب رسول اللهﷺ، فيقول:

تَرى الشُّمَ الجَحَاجِحَ مِنْ قريشٍ ... إذا ما الأمرُ في الحَدَثَانِ عَالَا
بني عمّ الرسولِ ورهطِ عمروٍ ... وعثمانَ الذين عَلَوْا فَعَالَا
قياماً ينظرونَ إلى سعيدٍ ... كأنَّهُمُ يرونَ بِهِ هِلَالَا[1]

فالشاعر يحاول بأي شكل من الأشكال أن يكسب ممدوحه شرفاً بجعله فرعاً من شجرة النبوة، فهو يجعل سعيداً ورهطه أبناء عم النبي ﷺ؛ وذلك لأن انتسابهم جميعاً إلى قريش يجعل بينهم هذه الصلة، ثم بعد ذلك يعقد الشاعر الصلة في القربى بين سعيد وبين الخلفاء الراشدين الذين يعدون من إرث النبوة، لأنهم ساروا سيرة النبي في قيادة الأمة من بعده. ولعل أبرز ما يوضح هذا الجانب قصيدة الفرزدق المشهورة التي قالها مادحاً بها زين العابدين علي بن الحسين، والتي يقول فيها:

هذا الذي تعرف البطحاءُ وَطْأَتَهُ، ... والبيتُ يَعْرِفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ اللّه كُلِّهِمُ ... هذا التقيّ النقيّ الطاهرُ العَلَمُ
هذا ابنُ فاطمةٍ إنْ كنتَ جاهِلَهُ ... بِجَدِّهِ أنبياءُ الله قَدْ خُتِمُوا[2]

وهذه الأبيات تفيض بالعاطفة الدينية الصادقة، التي تنم عن مدى حب الشاعر لرسول الله وآل بيته الأطهار، فزين العابدين بن الحسين من سلالة النبي، وهو ابن فاطمة رضي الله عنها، وأبوه الحسين سيد شباب أهل الجنة، وجده علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً، وهذا يجعل زين العابدين من أحفاد النبي، وأكرم بذلك نسباً، فهو شريف، سليل أشراف، تزينه العفة وتجمله الأخلاق الكريمة التي ورثها عن بيت النبوة، فهو خيار من خيار.

ويمضي الفرزدق في مدحه زين العابدين مشيراً إلى أصوله الطيبة الرائحة فيقول:

مَنْ يَشْكُرِ اللهَ يَشْكُرْ أوليّةَ ذا؛ ... فالدينُ مِنْ بيتِ هذا نَالَه الأمَمُ
يُنْمَى إلى ذُروةِ الدينِ التي قَصُرَتْ ... عنها الأكُفُّ وعن إدرَاكِهَا القَدَمُ

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص ٧٠، ٧١، الجحاجح: جمع جحجاح وهو السيد، الحدثان: ما يحدث من نوائب الدهر، عال: فدح، وثقل .

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٧٨، ١٧٩.

مَنْ جَدُّهُ دانَ فَضْلُ الأنبياءِ لهُ ... وفضلُ أُمَّتِهِ دانتْ لهُ الأُمَمُ
مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسولِ اللهِ نَبْعَتُهُ ... طَابَتْ مَغَارِسُهُ والخِيْمُ والشِّيَمُ[1]

فالمعاني الدينية بادية بوضوح، والفرزدق يكرر هذه المعاني، ويوظفها توظيفاً صادقاً؛ لإظهار ممدوحه بالمظهر الذي يليق به. والشاعر لم يبالغ حين وصف زين العابدين بهذه الصفات، بل كان مصوراً لواقع الممدوح، الذي ينتمي حقيقة إلى بيت النبوة الذي خرج منه نور الهداية إلى البشرية كافة، فجده أفضل الأنبياء، وأمته أفضل الأمم، ولاعجب في أن تكون أخلاقه حميدة، ومغارسه طيبة؛ لأن هذه الصفات كان يتحلى بها جده رسول الله ﷺ، وجده علي بن أبي طالب ﷺ.

ويمكن الملاحظة أن مدح الفرزدق زين العابدين، يختلف عن مدحه سعيد بن العاص لما بين الشخصيتين من فرق كبير في النسب إلى بيت النبوة، ففي حين تبدو أبيات الفرزدق في مدح سعيد تقوم على استعمال الأوصاف والتشبيهات المادية وتعمد إلى المبالغة، فإن أبياته في مدح زين العابدين تستند إلى صدق التجربة وتصوير الواقع.

وقال الفرزدق يمدح الوليد بن عبد الملك محاولاً إضفاء الشرعية على حكمه، حين يربط بين الحكم الأموي وإرث النبوة:

وما زلتُ أرجو آلَ مروانَ أنْ أرى ... لَهُمْ دَوْلَةً والدهرُ جمٌّ دوائِرُهْ
لَدُنْ قُتِلَ المظلومُ أنْ يَطْلُبُوا بهِ ... وَمولى دَمِ المظلومِ مِنْهُمْ وثَائِرُهْ
وَمَا لَهُمُ لا يُنْصَرونَ ومِنْهُمُ ... خَليلُ النبيِّ المُصْطَفَى ومُهاجِرُهْ
ملوكٌ لهمْ ميراثُ كلِّ مَشُورَةٍ ... وبالله طاوي الأمرِ منهُمْ وناشِرُه[2]

وهنا تظهر محاولات الفرزدق في الربط بين حكم الأمويين، والخلفاء الراشدين، فهو يجعل حكم الأمويين حكماً شرعياً؛ وذلك لمطالبتهم بدم عثمان ﷺ، فهم الذين ثاروا من أجل عثمان، وهم موالي دمه، ثم يجعل نصرهم على أعدائهم بسبب انتمائهم إلى عثمان بن عفان، وإلى الخليفة أبي بكر ﷺ، وهذه الصفات التي يلصقها بالأمويين، هي صفات دينية مستمدة من إرث النبوة، وهذه الصفات تكسب الحكم الأموي مزيداً من

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص١٨٠. النبعة: شجرة تصنع منها القسي، وهو من أجود الشجر. الخيم: الطبيعة والسجية.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٥٠ .

القداسة والشرعية، ليظهرهم بمظهر الوريث الحقيقي لتراث رسول الله ﷺ، وليدفع عنهم التهمة باغتصابهم الخلافة غصباً، وهنا تبدو محاولات الفرزدق واهية؛ لأن سندها الديني ضعيف، ولكن الفرزدق يلجأ إلى هذا التهويل من أجل تحقيق مآربه الخاصة عند بني أمية.

وتتكرر المبالغة عند الفرزدق في مديحه يزيد بن عبد الملك إذ يقول:

ولو كانَ بعدَ المُصْطَفَى من عبادِهِ ... نبيٌّ لهُمْ منهُمْ، لأمرِ العَزَائِمِ
لكنتَ الذي يختارُهُ اللهُ بعدَهُ ... لِحَمْلِ الأماناتِ الثِّقَالِ العَظَائِمِ
وَرِثْتُمْ خليلَ اللهِ كلَّ خِزَانَةٍ ... وكُلَّ كتابٍ بالنُّبوّةِ قائِمِ
بِحُكْمِ الذي فوقَ السماواتِ عرْشُهُ ... بما في ثرى سَبْعٍ من الأرضِ عالِمِ[1]

وهذا هو ديدن الفرزدق يحاول أن يعلي قدر ممدوحه، ويلبسه ثوب الأمانة ورداء العزيمة، ويحاول أن يجمّل صورته فيظهره بمظهر ديني يجعل منه وريثاً لرسالة النبي ﷺ، فهو الذي ورث كتاب النبوة، وأخذ على عاتقه أن يستمر في هذا النهج الرباني الذي اختطه الرسول ﷺ، وما هذه الولاية إلا بأمر من الله عالم الغيب والشهادة.

ويتمادى الفرزدق في مبالغاته حين يمدح يزيد، إذ يجعل سيف النبوة بأيدي بني أمية، ثم يستمر في تماديه فيجعل النبوة من حق بني أمية، ثم يزداد تمادياً حين يجعل يزيد أفضل الناس بعد النبي ﷺ؛ ثم يبلغ أقصى حدود التمادي حين يجعل سلطان النبوة وعصا الرسول وخاتمه إرثاً ليزيد بن عبد الملك، ثم في النهاية يرضى بحكم أهل المشرق والمغرب على يزيد بأن سيرته التي يسير عليها في حكمه للرعية مستمدة من سيرة رسول الله ﷺ فيقول:

هل تعلمونَ بني أُمَيّةَ قاتلوا ... إلا بسيفِ نُبُوّةٍ لم يُفْلَلِ
ضَرَبُوا بحقّ نبوةٍ كانتْ لَهُمْ ... وسيوفِ أسدٍ خَفِيّةٍ لم تَنْكُلِ
أعطى ابنَ عاتكةَ الذي ما فَوقَهُ ... غَيْرَ النبوةِ والجلالِ الأجْلَلِ
سلطانَهُ وعصا النبيّ وخاتَمَاً ... ألقى له بِجِرَانِهِ والكَلْكَلِ
أهلُ المشارقِ والمغاربِ إذ رأوا ... مَا فيهِ، ذكرُ محمدٍ لم يُنْحَلِ[2]

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص ٢٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٢٤، ١٢٥. الجران: باطن العنق.

وهذه متاجرة من الشاعر بالمعاني الدينية، يلجأ إليها من أجل تثبيت قدميه في البلاط الأموي، وتزلفا إلى الخليفة الأموي، الذي يدعي الشاعر أنه يستمد شرعيته من إرث النبوة الذي ورثه عن رسول الله ﷺ.

وفي معرض مديحه معاوية بن هشام يلح الفرزدق على موضوع شرعية الحكم المستمدة من إرث النبوة قائلاً:

ورثوا تراثَ محمدٍ، كانوا بِهِ ... أَوْلَى، وكانَ لَهُمْ مِنَ الأقْسَامِ
لما ثُخُوصِمَ في الخلافة بالقَنَا ... وبكلِّ مُخْتَضَبِ الحديدِ حُسَامِ
كانتْ خلافَتُها لآلِ محمدٍ، ... لأبي الوليدِ تُرَاثُها وهِشَامِ[1]

الأمويون كما يزعم الفرزدق ورثوا الخلافة عن النبي ﷺ ولكنها كانت لهم عنوة وبحد الحسام، فهم أولى بها،لأنهم ضحوا في سبيل ذلك، وكانوا أصحاب حق لمطالبتهم بدم عثمان بن عفان ﷺ،ولا يوجد سند ديني يؤيد مزاعم الفرزدق خاصة في جعله آباء الممدوح من آل محمد ﷺ. أما اغتصاب الخلافة،فلا يستطيع أحد أن يماري فيه.

ويتوالى مدح الفرزدق هشاما، وتتكرر معه المعاني الدينية محاولاً إكساب حكم هشام الشرعية عن طريق مدحه له بربطه بإرث النبوة، يقول مادحاً بني مروان في معرض مدحه هشاما:

رأيتُ بني مروانَ عنه توارثوا ... رواسيَ ملكٍ راسياتِ الدَّعَائِمِ
عصا الدينِ والعودينِ والخَاتَمُ الذي ... بِهِ اللهُ يُعْطِي ملكَهُ كُلَّ قَائِمِ[2]

فخلافة المروانيين خلافة راسية الدعائم، لأنهم ورثوها عن رسول الله ﷺ، وهي خلافة شرعية، لأنهم يملكون رموز الخلافة من الأشياء التي كانت تخص رسول الله ﷺ كالعصا والمنبر، كما أنهم مؤيدون بخاتم النبوة الذي يضفي عليهم شيئاً من القداسة والشرعية الدينية في أمر الخلافة.

ولكن هذا الإلحاح على شرعية خلافة بني أمية، ليس إلا محاولة للوصول إلى ما يصبوا إليه من حظوة لدى الخليفة هشام بن عبد الملك، وهذا ما يمكن أن تلسمه في كثير من مدائحه. كمثل قوله في هشام أيضاً:

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص٢٨٣، ٢٨٤ .

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٠٢ . العودان: منبر النبيﷺ.

وكانَتْ له كفانِ إحداهُمَا الثَّرَى ثَرى الغيثِ والأخرى كانَ بها أنْعَمَا
ضربتَ بها النُّكَّاثَ حتى اهتدوا بها لِمَنْ كانَ صلّى مِنْ فصيحٍ وأعْجَمَا
بسَيفٍ به لاقى ببدرٍ محمدٌ، إذا مَسّ أصحابَ الضَّريبةِ صَمَّمَا[1]

فسيف هشام هذا هو سيف النبي الذي لاقى به المشركين في غزوة بدر، وهو سيف مبارك لا ينبو؛ لأن الساعد الذي كان يحمله ساعد مبارك. ولا ينسى الفرزدق أن يلمح إلى حاجته بأسلوب غير مباشر، حين يشير إلى كرم هشام بن عبد الملك، وإلى آياديه السابقة التي مَنّ بها على الشاعر.

هكذا كان الفرزدق في مديحه بني أمية، يعلي من شأنهم، ويحاول إكساب حكمهم الشرعية؛ موظفا فكرة الجبر والاختيار تارة، وإرث النبوة تارة أخرى، وكل ذلك كان بسبب ضعف حجة الأمويين في توليهم الخلافة، وبسبب ضعف السند الديني الذي يستندون إليه في الترويج لآرائهم السياسية.

أما الكميت بن زيد الأسدي، شاعر الهاشميين، فما برح يدافع عن الهاشميين في أشعاره ويندب حظهم، ويشن الحملات على خصومهم الذين سلبوا حقهم في الخلافة التي يرى الشاعر أن الهاشميين أهل لها بجدارة لمنزلتهم من النبي ﷺ. وعند استعراض هاشميات الكميت يظهر البون الشاسع بين مدح الكميت الهاشميين ومدحه غيرهم، كما يبدو الفرق واضحا كذلك مقارنة بمدح شعراء الحزب الأموي بني أمية، فالهاشميات من أبرز سماتها أنها تظهر ولاء الشاعر للهاشميين، هذا الولاء الخالص الذي كان يشعر به الكميت نحو الهاشميين وهو الذي جعل هاشمياته تفيض بالمشاعر الدينية الصادقة تجاه بني هاشم الذين تعصب لهم الكميت تعصبا شديدا، جرّ عليه كثيرا من العنت ومعاداة الخلفاء الأمويين وولاتهم، يقول في إحدى هاشمياته يمدح بني هاشم:

طربتُ وما شوقاً إلى البيضِ أطربُ ولا لعباً مِنّى وذو الشيبِ يلعبُ[2]

وبعد مطلع القصيدة وتصوير مشاعره النفسية ينتقل إلى المدح فيقول:

ولكنْ إلى أهلِ الفضائلِ والنُّهَى وخيرِ بني حواءَ والخيرُ يُطْلَبُ

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص١٨٩، صممنا: نفذ إلى العظم.

(٢) الكميت بن زيد، ديوان الكميت بن زيد، ص ٥١٢.

بني هاشمٍ رهطِ النبيّ فإنّني بهمْ ولهُمْ أرضى مِراراً وأغْضَبُ[١]

فالكميت يبدأ قصيدته بتصوير مشاعره النفسية، وهمومه العاطفية، فهو يطرب، ولكن طربه ليس شوقاً إلى البيض بقدر ما هو ناتج عن حبه للهاشميين رهط النبي ﷺ، فهم خير بني حواء، وهم أهل الفضائل، وأهل العقول النيرة، وهذا الحب الخالص لبني هاشم يعده الشاعر قربى له عند الله سبحانه وتعالى، وتظهر مشاعر الشاعر نحو الهاشميين أكثر فأكثر حين يقرن رضاه برضاهم، وغضبه بغضبهم، ثم يستمر الشاعر في قصيدته مصوراً مشاعره نحو الهاشميين ومادحاً إيّاهم بأفضل الصفات الدينية الصادقة التي تليق بمقام الهاشميين فيقول:

إليكُمْ ذوي آل النَّبيِّ تَطَلَّعَتْ نَوازِعُ من قلبي ظِمَاءٌ والبُبُ[٢]
أناسٌ بهمْ عزّتْ قريشٌ فأصبحوا ومنهُمْ خِبَاءُ المَكْرُمَاتِ المطَنَّبُ
مُصَفَّونَ في الأحْسَابِ مَحْضُونَ نَجْرُهمْ هُمُ المَحْضُ مِنّا والصَّريحُ المُهذَّبُ[٣]

فالشاعر لا يستطيع أن يخفي ولاءه وحبه للهاشميين، فنوازع قلبه إلى بني هاشم، وعقله مشغول بالتفكير فيهم، لأنهم أهل المكارم، وبيتهم أعرق بيوت قريش، وبعزهم عزّت قريش، وهم مبرءون من الدنس، وهم أشرف قريش نسباً، وكل هذا المدح، وكل هذه المعاني التي تفيض بالحب للهاشميين منبعها الولاء الخالص للهاشميين. ويقول الكميت مادحاً الهاشميين من قصيدة أخرى:

بَلْ هوايَ الذي أَجُنّ وأُبْدِي لبني هاشمٍ فروعِ الأنامِ
للقريبينَ منْ ندىً والبعيدي ـنَ مِنَ الجَوْرِ في عُرَى الأحكامِ
والمصيبينَ بابَ ما أخطأ النا سُ ومُرسِي قواعدَ الإسلامِ[٤]

وهذه الصفات التي ينسبها الكميت للهاشميين ليس فيها شيء من المبالغة، إذ يبدو الهاشميون في هذه الأبيات أهل العدل، وأهل الدين، وأهل الرأي السديد، وهم ملجأ

(١) الكميت بن زيد، ديوان الكميت بن زيد، ص٥١٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٥١٨، ألبب: عقول .
(٣) المصدر نفسه، ص٥٣٦، ٥٣٧، مصفون: مبرءون من الدنس، النجر: الأصل، المحض: الخالص.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٨٨.

المظلومين، وهم حماة الدين، والذادة عن الإسلام، لذلك يستحقون حب الكميت ما يسر منه وما يعلن.

ويستمر الكميت في مدحه الهاشميين أصحاب إرث النبوة، ورهط النبي ﷺ فيقول:

أسرةُ الصادقِ الحديثِ أبي القاسم ... فرعِ القُدَامِسِ القُدَّامِ
خيرِ حيّ ومَيّتٍ مِن بني آ ... دَمَ طُرّاً مأمومِهِمْ والإمامِ[1]

وفي هذين البيتين يكرر الكميت معانيه السابقة في مدح الهاشميين، فهم أسرة النبي ﷺ الذي هو أفضل بني آدم حيهم وميتهم، مأمومهم وإمامهم، وهم فوق ذلك أهل الشرف الرفيع والنسب العريق الذي ما فوقه نسب:

ويصر الكميت في هاشمياته على الربط بين الهاشميين وإرث النبوة، فيقول:

فَدَعْ ذكرَ مَنْ لستَ مِن شَأْنِهِ ... ولا هَوَ مِنْ شانِكَ المُنْصِبِ
وهاتِ الثَّنَاءَ لأهلِ الثَّنَاءِ ... بأصوبِ قولِكَ فالأصوبِ
بني هاشمٍ فهُمُ الأكرمونَ ... بني الباذِخِ الأفضلِ الأَطْيَبِ[2]

فليس كل الناس يستحقون الثناء، إنما هنالك أهل للثناء، وهم بنو هاشم، فمن يمدحهم يجب أن يكون حريصا على اختيار أقواله، لأنهم الأكرمون، وهم سلالة أشرف الخلق عند الله جل شأنه.

ويبدو أن الكميت يصور واقع الهاشميين، فهم كما يصفهم شرفا وعزة وكرامة وتقوى، فقد كانت سيرة الهاشميين في العصر الأموي تنم عن هذه الصفات مجتمعة، فلا غرابة في أن يكون الكميت صادقا في نسبة الفضيلة إليهم؛ لأنهم أهل لها، وهم منبعها الذي نبعت منه.

ولا يقتصر الأمر على شعراء الأحزاب السياسية في المدح بهذا المعنى الديني، الذي كان يلقى قبولا لدى الممدوحين، بل تعداه إلى شعراء آخرين، فقد مدح الشاعر القطامي عبد الواحد بن الحارث بن الحكم[3] بأبيات يقول فيها:

---

(١)الكميت بن زيد، ديوان الكميت بن زيد، ص٥٠٠، القدامس: أعلى الشرف، القدام: القديم، طرا: جميعا.

(٢) المصدر نفسه، ص٦١٨.

(٣) عبد الواحد بن الحارث بن الحكم بن العاصي. (لم أعثر له على ترجمة)

أهلُ المدينةِ لا يَحْزُنْكَ شأنُهُمَ ... إذا تَخَطَّأُ "بعبدِ الواحِدِ" الأجَلُ
أمّا قريشٌ فلنْ تلقاهم أبداً ... إلا وهُمْ خيرُ من يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ
إلا وَهُمْ جَبَلُ اللهِ الذي قَصُرَت ... عنه الجِبالُ فما ساوى بِهِ جَبَل
قومٌ همُ ثَبَّتُوا الإسلامَ وامتنعوا ... قومُ الرسولِ الذي ما بَعْدَه رُسُلُ[1]

فهذا شاعر سلك مسلك من سبقه من الشعراء في توظيف المعاني الإسلامية في شعره، وهذا يدل على رواج هذه البضاعة في سوق المديح في العصر الأموي، فالشاعر همّه الأول التكسب، وهو يحرص على ما يرضي الممدوح، ومادامت المعاني الإسلامية تؤدي هذه المهمة، فلا مانع من توظيفها في شعره؛ فالقطامي يجعل أهل المدينة بخير وعافية مادام عبد الواحد بينهم، ثم إنّ عبد الواحد من قريش، وقريش لم يسامها أحد في الشرف والرفعة؛ لأنّ لهم شرف نشر الإسلام، ولكونهم قوم الرسول ﷺ، وهذا شرف ما بعده شرف.

(١) القطامي، ديوان القطامي، ص٢٩ .

المبحث الرابع

الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الإسلام

من أهم الأمور التي جاء بها الإسلام الدعوة إلى عبودية الله وحده، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. وقد أباح الإسلام للمسلمين أن يقاتلوا دفاعا عن أنفسهم في بداية الأمر، قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[1] فهب المسلمون مدافعين عن أنفسهم ومجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله.

وقد أعلى الإسلام منزلة الشهيد فجعلها مع النبيين والصديقين، فدأب المسلمون على التسابق على هذه الفضيلة، مقدمين أرواحهم رخيصة في سبيل الله.

وكانت للحروب الداخلية والخارجية انعكاساتها على شعر المديح في العصر الأموي، إذ حرص الشعراء على إبراز صورة الممدوح وجعله حريصا على حماية الإسلام والمدافع عنه، " وأصبحت حماية الدين المطلب الأول من الخليفة في صور شعراء المدحة الأموية "[2]، ودأب الشعراء على إبراز هذه المعاني الدينية المتعلقة بالجهاد وحماية الدين في مديحهم. " وصوّر هؤلاء الشعراء حروب الدولة الخارجية، كما صوروا حروبها الداخلية، وأشادوا بها، ونوهوا بقادتها وجعلوا نصرهم قدرا مقدورا "[3].

وقد أبرز الشعراء الحروب الداخلية في شعر المديح حسب أهوائهم وانتماءاتهم الحزبية، وصوروا ممدوحيهم تصويرا دينيا يتمثل في الحاكم المسلم الذي يسعى إلى حماية الدين، " وحرصوا على تصوير هذه الحروب جهادا خالصا في سبيل الله والدفاع عن الإسلام "[4].

---

(١) سورة الحج، الآية ٣٩.

(٢) مي خليف، التيار الإسلامي في القصيدة الأموية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٢٥٧.

(٣) وهب رومية، قصيدة المديح حتى نهاية العصر الأموي بين الأصول والإحياء والتجديد، ص٤٦٧.

(٤) مي خليف، التيار الإسلامي في القصيدة الأموية، ص٢٩١، ٢٩٢.

ويظهر ذلك في شعر شعراء الأحزاب الإسلامية التي كانت تبني فكرها على هذا المبدأ، وهو حماية الدين والجهاد في سبيل الله، وأصبح كل حزب يسعى إلى إبراز هذه الصورة للأمة في شتى وسائله الإعلامية، ولقي هذا المديح رواجا في بلاط ساسة العصر الأموي ورحبوا بالشعراء، الذين يُعَدَّون أبرز الوسائل الإعلامية في تلك المدة. وشعر المديح في العصر الأموي يفيض بمثل هذه المعاني الدينية المتعلقة بالجهاد في سبيل الله والدفاع عن الإسلام. فهذا الشاعر أبو دهبل الجمحي يصف عبد الله ابن الزبير بالشجاعة، وخوض غمار الحروب مدافعا عن الإسلام،وقد لحق به جراء ذلك العنت الكبير،ولم يبق في جسده موضع إلا وأصابته السيوف والرماح، فيقول:

أخو نجدات ما يزال مقاتلا ... على الدين حتى جلده متخرّق[١]

ويقول أبو دهبل الجمحي مادحا عثمان بن عبد الله بن الحكيم:[٢]

وَنِعْمَ ابنُ أختِ القوم عثمانُ في الوَغَى ... إذ الحربُ أبدتْ نابَهَا وهيَ تَكْلَحُ
هَوَ التاركُ المالَ النَّفيسَ حَمِيَّةً ... وللموتِ مِنْ بعضِ المعيشةِ أرْوَحُ
وجادَ بنفسٍ لا يُجادُ بمثلها ... لَهَا لَوْ أَقَرَّتْ خُزيةً مُتَزَحْزَحُ[٣]

فهذا الوصف لرجل شديد المراس في الحرب، ترك الدنيا، وبحث عن الشهادة في سبيل الله، فجاد بنفسه، وكان بإمكانه أن يجد له مذهبا لو أراد الخزي والعار، ولكن حميته ونخوته أبتا عليه أن يظهر بمظهر الجبان الذليل الصاغر.

وتظهر صورة مصعب بن الزبير في كثير من جوانبها بصورة البطل المجاهد في سبيل الله، الذي يسير المسلمون تحت رايته مجاهدين في سبيل الله، وقد رضوا قيادته طائعين، يقول عبيد الله بن قيس الرقيات مادحا مصعب ابن الزبير:

على بيعةِ الإسلامِ بايعنَ مُصْعَباً ... كراديسُ مِنْ خيلٍ وجمعا ضَبارِكَا
نفيتَ بنصرِ الله عنهُمْ عَدُوَّهُمْ ... فأصبحتَ تحمي حَوضَهُمْ بسِلاَحِكَا

---

(١) أبو دهبل الجمحي، ديوان أبي دهبل الجمحي، ص١٠٣.

(٢) عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، من سادات قريش وأشرافها، كان مع عبد الله بن الزبير في حروبه، فقتل في الحصار الأول (الزبير بن بكار، جمهرة نسب قريش، ج١، ص٣٨٧)

(٣) أبو دهبل الجمحي، ديوان أبي دهبل الجمحي، ص٨٠.

تَدَارَكْتَ مِنْهُمْ عِشْرَةً نَهَكَتْ بِهِم عَدُوَّهُمُ واللهُ أَوْلَاكَ ذَلِكَا[١]

فبيعة المسلمين لمصعب بن الزبير بيعة شرعية، وهي بيعة على الجهاد في سبيل الله؛ ولأجل ذلك نصرهم الله على عدوهم، وأصبح مصعب حامي حمى الإسلام، لأنه تدارك عثرات المسلمين فوحدهم، وجيش الجيوش، فكان منصوراً على أعدائه بسبب تأييد الله الذي ولى مصعباً هذا الأمر، وأيده بنصره.

ويقول المغيرة بن حبناء[٢] مادحاً المهلب بن أبي صفرة لما هزم قطري بن الفجاءة بسابور[٣]:

أمسى العبادُ بشرٍ لا غِيَاثَ لَهُمْ إلا المهلبُ بعدَ اللهِ والمَطَرُ
وأنتَ رأسٌ لأهل الدينِ مُنْتَخَبٌ والرأسُ فيه يكونُ السَّمعُ والبَصَرُ
شهابُ حربٍ إذا حَلَّتْ بساحتِهِ يَجزي به اللهُ أقواماً إذا غَدَرُوا[٤]

فالشاعر يرسم صورة للوضع الذي كان يعيشه الناس، ومعاناتهم بسبب تجاوزات فرقة الخوارج، مما اضطر الناس إلى الاستغاثة، فأغاثهم الله بالمهلب الذي استطاع أن يكسر شوكة الخوارج بحنكته الحربية، وبإيمانه الصادق، وبنيته الخالصة في الدفاع عن الإسلام. وما فعله المهلب بالخوارج إنما كان جزاء لهم من الله بسبب غدرهم وعصيانهم لولي الأمر.

ومما يدل دلالة واضحة على أن كثيراً من الممدوحين يحبون أن يظهروا في شعر المديح مدافعين عن الإسلام، حاملين راية الجهاد في سبيل الله، حتى وصل بهم الأمر إلى أن يحسد بعضهم بعضا – ما دار بين الحجاج بن يوسف ويزيد بن المهلب؛ إذ نظر الحجاج إلى يزيد يخطر في مشيته، فقال: لعن الله المغيرة بن حبناء حيث يقول:

---

(١) عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، ص١٣٢، كراديس: جماعات، ضبارك: كثير.

(٢) المغيرة بن حبناء: هو المغيرة بن عمرو بن ربيعة الحنظلي التميمي، شاعر إسلامي، كان من رجال المهلب ابن أبي صفرة اشتهر بنسبه إلى أمه، كان أبرصا، مات على مقربة من بخارى سنة ٩١هـ/٧٠٩م (أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد السابع، ص٥٨. والزركلي، الأعلام، المجلد السابع، ص٢٧٨)

(٣) سابور: كورة مشهورة بأرض فارس، تنسب إلى سابور الملك؛ لأنه هو الذي بنى مدينة سابور، كان بها وقائع للمهلب مع قطري بن الفجاءة (ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ج٣، ص١٨٨، ١٨٩)

(٤) نوري حمودي القيسي، شعراء أمويون، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، القسم الثالث، ص٨٧،٨٨.

جَميلُ المُحَيَّا بَخْتَريٌّ إذا مشى وفي الدّرْعِ ضَخْمُ المَنْكِبَيْنِ شَنَاقُ

فالتفت إليه يزيد فقال: إنه يقول فيها:

شديدُ القُوى مِنْ أهلِ بيتٍ إذا وَهَى مِنَ الدينِ فَتْقٌ حُمّلُوا فَأَطَاقُوا

مراجيح في اللأواء إن نزلت بهم ميامين قد قادوا الجيوش وساقوا[1]

انظر كيف كانت غيرة الحجاج من يزيد بسبب وصف الشاعر له بالشجاعة والباع الطويل في ميادين الحروب من أجل حماية الإسلام، مستمداً تلك الصفة من أبيه الذي جالد الخوارج حتى اعترفوا بثقل وطأته عليهم في حربه معهم.

ولا يقتصر الأمر على القصيد في المدح بهذه الصفة الدينية، بل تعداه إلى الرجز، إذ عمد الرجّاز إلى إبراز ممدوحيهم في صورة بطولية، يظهرون فيها مجاهدين في سبيل الله مدافعين عن شريعته السمحة، يقول العجّاج بن رؤبة مادحاً يزيد بن معاوية بن أبي سفيان:

فَقَدْ رأى الراؤونَ غَيْرَ البُطْلِ
أنَّكَ يا يزيدُ يابنَ الأفحلِ
إذ زُلْزِلَ الأقوامُ لم تُزَلْزَلِ
عن دينِ موسى والرسولِ المُرْسَلِ
إذ طارَ بالنّاس قلوبُ الضُّلَّلِ
قتلاً وإضراراً بمن لم يُقْتَلِ
وكنتَ سيفَ الله لم يُفَلَّلِ[2]

وهذا المديح يشم القارئ منه رائحة التدين، التي تبرز صفة من صفات الممدوح، فالشاعر يفضل ممدوحه على غيره في الشجاعة التي يبديها الممدوح دفاعاً عن الإسلام، فهو سيف الله الذي سلطه على رقاب أعدائه، ثم هو بعد ذلك من يثبت في الحروب إذا ضعف الآخرون، وذلك لقوة إيمانه وثباته على الحق .

وربما تعدى الأمر بالشاعر إلى النصح والإرشاد لممدوحه من أجل تحقيق هذه الغاية الدينية في شخص الممدوح،فيقول العجاج بن رؤبة مادحاً عمر بن عبيد الله بن معمر:

---

(١) نوري حمودي القيسي، شعراء أمويون، القسم الثالث، ص٩٥.

(٢) العجاج بن رؤبة، ت (٩٠هـ/٧٠٨م)، ديوان العجاج بن رؤبة، تحقيق: الدكتور عزة حسن، مكتب دار الشرق، بيروت، بدون تاريخ، ص١٦٣، ١٦٤. غير البطل: غير الباطل.

فاعْلَمْ بأنّ ذا الجَلالِ قَد قَدَرْ
في الصحفِ الأولى التي كان سَطَرْ
أمرُكَ هذا فاحتفظْ فيه النَتَرْ
وفَتْرَةَ الأمرِ، ومُودٍ مَن فَتَرْ
فاينما جَرَيْتَ أُعطيتَ الظَفَرْ
شهادةً منها طُهورٌ من طَهَرْ
أو وقعةً تجلو عن الدينِ القَذَرْ[١]

فهذه جملة من النصائح التي يوجهها العجاج إلى ممدوحه؛ إذ يدعوه إلى التمسك بهذا الأمر ويحرص على عدم العجلة والانفلات، لئلا يصيبه الفتور، فيذهب هذا الأمر الذي قدره الله له؛ لأن في الفتور والإهمال هلاكاً، وذهاباً للملك، وهذا الممدوح مؤيد بنصر الله أينما ذهب، وهذه شهادة له تطهره من الذنوب، ثم إنّ حروبه دفاع عن الإسلام وفي هذا شرف له.

وموضوع الجهاد والدفاع عن الدين يبرز في شعر الفرزدق الذي مدح به بني أمية، إذ أشاد بهم ونوه بجهادهم ودفاعهم عن الإسلام، يقول في معرض مديحه عبد الملك بن مروان:

إذا لاقى بنو مروان سَلّوا ... لدينِ الله أسيافاً غِضَابَا
صَوارمَ تمنعُ الإسلامَ منهُمْ ... يُوَكّلُ وَقْعُهُنّ بِمَنْ أَرَابَا
بِهِنّ لَقُوا بمكّةَ مُلْحِدِيهَا ... ومَسْكِنَ يحسنونَ بها الضِّرَابَا
فلم يتركنَ مِنْ أحدٍ يُصلّي ... وراءَ مُكَذّبٍ إلا أَنَابَا
إلى الإسلامِ، أو لاقى ذَميماً ... بِها رُكنَ المنيّةِ والحِسَابَا[٢]

فهذه إشادة ببني أمية،المدافعين عن الإسلام،والذين أخمدوا الفتنة التي قام بها ابن الزبير في الحجاز،وكذلك الفتن التي قام بها الخوارج،ويشير الشاعر إلى موقعة مسكن[٣] التي جرت بين جيوش الأمويين وجيوش الزبيريين في العراق،وفي هذه

(١)العجاج بن رؤبة،ديوان العجاج بن رؤبة،ص٤٨، ٤٩ . النَتَر:الانفلات والعجلة والاختلاس،المودي:الهالك.

(٢) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٢٢. أراب: أقلق وأزعج. (يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى بعث عبدالملك الحجاج إلى مكة لمحاربة ابن الزبير).

(٣) مسكن: موضع على نهر دجيل عند الجاثليق، به كانت الوقعة بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير في سنة ٧٢هـ فقتل مصعب وقبره معروف (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٤٩)

الأبيات تلميح إلى اتهام ابن الزبير بالكذب وبالإلحاد في المسجد الحرام،وهذا هو المبرر لقتال ابن الزبير، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(١)

ويرسم الفرزدق صورة لبشر بن مروان، يظهر فيها فارسا مجاهدا في سبيل الله، فيقول:

يا بشرُ إنّك سيفُ الله صِيلَ به ... على العدوِ وغيثٌ ينبتُ الشَّجَرَا
مَنْ مِثْلُ بِشرٍ لحربٍ غيرِ خامِدَةٍ ... إذا تَسَرْبَلَ بالمَاذِيّ واتَّزَرَا
العاصبِ الحربَ حتى تَسْتَقِيدَ له ... بالمَشْرفيّةِ، والعافي إذا قَدَرَا
سيفٌ يصولُ أميرُ المؤمنين بهِ ... وقد أَعَزَّ به الرحمنُ مَنْ نَصَرَا(٢)

وفي هذه اللوحة الشعرية يبدو بشرٌ فارسا من فرسان بني أمية، الذين كان لهم باع طويل في مضمار الحروب، فهو السيف الذي يصول به الخليفة ويجول، وهو الحامي حمى الإسلام، وهو مشعل الحروب ضد أعداء الدولة وأعداء الدين، ولا ينفك يقاتل في سبيل الله حتى يستقيد له أعداؤه ويأتوه خاضعين، فإن شاء عفا وإن شاء عاقب، وهنا تظهر صورة الفارس المسلم الذي يتزر بالدرع ويتقلد السيف متمثلة في شخص الممدوح، وهذا يدل على أن الجاهزية للجهاد عند بشر بن أبي مروان كانت في أعلى مراتبها.

وثمة فارس آخر حظي بمدح الفرزدق، وتجلت صورته من خلال هذا المديح، وهذا الفارس هو هلال بن أحوز(٣)،أحد قادة جيوش بني أمية،يقول الفرزدق مادحا هلالا:

يقيمُ عصا الإسلامِ منّا ابنُ أحوزٍ ... إذا ما عصا الإسلامِ لانَتْ كُعُوبُها
اخو غَمَرَاتٍ يُفْرِجُ الشَّكَّ عَزْمُه ... وقد ينعمُ النُّعْمَى ولا يَستَثِيبُهَا
لقد قادَ جُرْدَ الخيلِ مِنْ جَنْبِ واسطٍ ... يثورُ أمامَ الرَائِحِينَ عَكُوبُها(٤)

---

(١) الحج، الآية ٢٥.

(٢) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٢٣١. تسربل: لبس: الماذي: الدرع.

(٣) هلال بن أحوز بن أربد المازني المالكي التميمي، قائد من الشجعان القساة، عرّفه ابن حزم بقاتل آل المهلب بقندابيل ت(١٠٢هـ/٧٢٠م) (ابن حزم الظاهري، جمهرة أنساب العرب، ص٢١٠. والزركلي، الأعلام، المجلد الثامن، ص٩٠)

(٤) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٥٦. الرائحون: العائدون مساءً، عكوبها: غبارها.

ولا تختلف صورة هلال بن أحوز عن صورة غيره من فرسان المسلمين عند الفرزدق، فهو المدافع عن بيضة الإسلام، وهو الذي يقيم عصا الدين، وهو الفارس الواري الزند في الحروب، تزينه الأخلاق الحميدة، فلا يطلب الثناء؛ لأنه يفعل كل ذلك من أجل حماية الإسلام، ثم يضفي الشاعر على ممدوحه صفات فروسيةٍ أخرى، فيجعله مقداماً يتقدم الصفوف، باذلاً نفسه رخيصة في سبيل الله، وكل هذه صفات قدسية، يحاول الشاعر أن يلصقها بممدوحه وهذا ما درج عليه الفرزدق في أغلب مدائحه لبني أمية.

وهذه لوحة شعرية أخرى يرسمها الفرزدق لأحد رجال الدولة الأموية، فيقول مادحاً عبد الرحيم بن سليم الكلمي[١]:

أرى ابنَ سُلَيْمٍ يعصمُ الله دينَهُ ... به وأثافي الحربِ تَغْلِي قُدُورُها
هَوَ الحَجَرُ الرامي به الله مَن رَمى ... إذا الأرضُ بالناسِ اقْشَعَرَّتْ ظُهورُها
وكانَ إذا أرضُ العدوّ تَنَكَّرَتْ ... فبابنِ سُلَيْمٍ كانَ يُرمى نَكِيرُهَا
ترى الخيلَ تابى أن تَذِلَّ لفارسٍ ... سوى ابنِ سُلَيْمٍ في اللِّقَاءِ ذُكُورُهَا
وَرُومِيَّةٍ فيها المنايا ضَرَبْتَهَا ... بشَهْبَاءَ يُعشي الناظرين قَتِيرُهَا
ويومَ تلاقَتْ خَيْلُ بَابِلَ بالقَنَا ... كَتَائِبَ قد أبدى الضُّرُوسَ هَرِيرُهَا
فَتَحْتَ لهمْ بالسيفِ والخيلُ تَلْتَقِي ... على الموتِ مِن كلِّ الفريقينِ زُورُهَا[٢]

ويبدو الممدوح في هذه اللوحة الشعرية فارساً مقداماً حين يحجم الآخرون من شدة هول المعركة، وهو الذي يتقدم الصفوف، ويرمي عدوه بالخيل والفرسان الذين يعشي الناظرين لمعان دروعهم، ويبقى يقاتل الأعداء إلى أن تلين قناتُهم، غير آبهٍ لما سيصيبه من عدوه، وغير خائف من سيف المنية، وكل ما يفعله ليس من أجل الرياء والسمعة، بل هو في سبيل الله؛ لأن الله هو الذي رمى العدو بهذا الفارس المقدام، فجهاده وبطولاته كانت دفاعاً عن حوزة الإسلام وإعلاء لكلمة الله سبحانه وتعالى.

---

(١) عبد الرحيم بن سليم الكلمي (لم أعثر له على ترجمة).

(٢) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٢٥٨. الأثافي: الحجارة التي توضع عليها القدر، رومية: كتبة رومية، الشهباء: الكتيبة العظيمة الكثيرة السلاح، قتيرها: دروعها، الزور، الواحد أزور: الناظر بمؤخرة عينيه تغيظاً.

ويستمر الفرزدق في مدحه رجالات بني أمية، وهذه المرة يمدح الحكم بن أيوب[١] فيقول:

ويومٍ تُرى فيه النجومُ شَهِدتُّهُ ... تَعَاوَرُ خَيْلاه الأسنَّة والنَّبْلاَ
كأنّ ذُكُورَ الخيلِ في غَمَرَاتِهِ ... يَخُضْنَ، إذا أُكرِهْنَ فيه، بهِ الوَحْلاَ
صَبَرْتَ به نفساً عليك كريمةً، ... وقد علموا ألا تَضِنُّ بها بُخْلا
تجودُ بها لله ترجو ثَوَابَه، ... وليسَ بمُعطٍ مِثْلَهَا أحدٌ بَذْلاَ[٢]

وهذا تصوير لبلاء الممدوح في الحرب، وتصوير لشدة الموقف، الذي لا يقوى عليه إلا فارس مثل الممدوح، وليس شيء أجمل من أن يصبر الإنسان في المعركة احتساباً لوجه الله، وأملاً في رضاه؛ وليس شيء أجمل من أن يكون الإنسان كريماً يجود بنفسه دفاعاً عن الإسلام، واثقاً من الثواب الجزيل من لدن رب كريم، وهذا ما فعله الممدوح الذي كان يبذل نفسه رخيصة في سبيل الله ودفاعاً عن دينه.

ويقول الفرزدق مادحاً الخليفة يزيد بن عبد الملك ومنوهاً بفضائله الدينية وخاصة حماية الدين والذود عنه، وجهاده في سبيل الله من أجل أن تبقى راية الإسلام عالية خفاقة:

وأنتَ غياثُ الأرضِ والنّاسِ كلّهمْ ... بك الله قَدْ أَحْيَا الذي كانَ بَالِيَا
وما وَجَدَ الإسلامُ بَعْدَ محمدٍ ... وأصحابِهِ للدينِ مِثْلَكَ رَاعِيَا
ضربْتَ بسيفٍ كان لاقى محمدٌ ... به أهلَ بدرٍ عاقدينَ النَّواصِيَا[٣]

وليس في معاني الفرزدق تجديد في هذا الموضوع، فهو يصف ممدوحه بالشجاعة في الحروب جاعلاً منه المنقذ للإسلام مما حلّ به من أعدائه في الداخل والخارج، ثم يصوره مجاهداً في سبيل الله، متوشحاً سيف رسول الله الذي لاقى به

---

(١) الحكم بن أيوب بن الحكم الثقفي، ابن عم الحجاج، ولاه الحجاج على البصرة، ثم عزله، ثم أعاده، قتله صالح بن عبد الرحمن الكاتب مع جماعة من آل الحجاج في خلافة سليمان بن عبد الملك ت(٩٧هـ/٧١٥م) (خليل بن أيبك الصفدي، الوافي في الوفيات، ج١٣، ص٦٩. والزركلي، الأعلام، المجلد الثاني، ص٢٦٦)

(٢) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص١٢٨.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٥٢، ٣٥٣.

مشركي قريش في غزوة بدر؛ ويمكن الملاحظة أن الفرزدق يعلي من شأن ممدوحه عن طريق المعاني الدينية، وخاصة التي تتعلق بالدفاع عن الإسلام، ليجعل منه فارسا مسلما لا هم له إلا حماية الإسلام وإعلاء كلمة الله، وهذا شأن الفرزدق، كلما تولى أحد الخلفاء رفع منزلته عاليا، متناسيا جهود الخلفاء الذين سبقوه، جاعلا منه المخلص والمنقذ الذي أحيا به الله ما رم من أمور المسلمين.

وصورة هشام بن عبد الملك في مديح الفرزدق فيما يتعلق بالجهاد والدفاع عن الإسلام هي الصورة نفسها التي كان الفرزدق رسمها لأخيه يزيد، إذ يجعله حامي حمى الإسلام والذائد عن حرمات المسلمين، والمشعل الحرب ضد أعداء الإسلام فيقول:

هِشَامٌ أمينُ الله في الأرضِ والذي ... به تُمْنَعُ الأيامُ ذاتَ المَحَارِمِ
به عَمَدُ الدّينِ اسْتَقَلَّتْ وأُثْبِتَتْ ... على كلِّ ذي طَوْدَيْنِ للدينِ قائمِ
وسُلَّتْ سيوفُ الحربِ وانْشَقَّتِ العَصَا ... وَهَزَّ القَنَا وردُ الأسودِ القَشَاعِمِ[1]

فهشام أمين الله، وهذه صفة لها قدسيتها، ولها مهابتها، وهشام هو الذي أقام عمود الدين وهو الذي رسخ أسسه، وهو الذي يمنع المظالم ويحمي الحرمات، وكل هذه صفات دينية تجعل من الممدوح شخصية لها مركزها الديني المرموق، وهذا المركز الديني يسعى الممدوح دوما لإدراكه، ولا يدركه إلا بمثل هذه الصفات.

ويتوالى مديح الشعراء لممدوحيهم مصورين قتالهم جهادا في سبيل الله، حتى لو كان هذا الاقتتال بين المسلمين أنفسهم، محاولين التغاضي عن كثير من التجاوزات التي كان يقوم بها الممدوحون، وهذا ما فعله الشاعر جرير بن عطية مع الحجاج بن يوسف، إذ يمدحه قائلا:

دَعَا الحَجَّاجُ مِثْلَ دُعَاءِ نُوحٍ ... فأسْمَعَ ذا المَعَارِجِ فاسْتَجَابَا
صَبَرْتَ النفسَ يا ابنَ أبي عُقَيلٍ ... مُحَافَظَةً فكيفَ تَرى الثَّوَابَا
وَلَوْ لَمْ يرضَ ربُّكَ لم يُنَزِّلْ ... مَعَ النصرِ، المَلائِكَةَ الغِضَابَا
إذا سَعَّرَ الخليفةُ نارَ حربٍ ... رأى الحَجَّاجَ أثْقَبَهَا شِهَابَا
ترى نَصْرَ الإمامِ عليك حقاً ... إذا لَبَسُوا بِدِينِهِمُ ارْتِيَابَا

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص٣٠١.

تَشُدُّ فلا تُكَذِّبَ يومَ زَحْفٍ إذا الغَمَرَاتُ زَعْزَعَتِ العُقَابَا[١]

وهذه اللوحات الشعرية التي يرسمها جرير للحجاج، لا تختلف عن اللوحات الشعرية التي رسمها جرير للحجاج في مواقف دينية أخرى، فالحجاج يبدو رجلا تقيا مستجاب الدعوة، كنبي الله نوح الذي دعا على الكفار كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[٢]؛ كما يبدو الممدوح مؤيداً بنصر الله الذي أنزل ملائكة تقاتل معه؛ لأنه ممتثل لتعاليم الإسلام في طاعة ولي الأمر، فهو يرى نصر الخليفة حقا توجبه الشريعة الإسلامية. كما تبرز في هذه اللوحة ملامح الفارس المسلم الذي لا يتولى يوم الزحف، عندما يحتدم القتال، ويزداد الموقف هولاً. وهذه اللوحة الجميلة التي رسمها جرير للحجاج تغيرت ملامحها بعد وفاة الحجاج، وظهرت مشوهة، كأن لم يكن هذا هو الحجاج الذي مدحه جرير بهذه الصفات، انظر كيف يفعل الشعراء مع ممدوحيهم فيرفعونهم إلى القمة، حتى إذا دالت دولتهم تراهم ينقلبون عليهم، ويتنكرون لمعروفهم ويعودون إلى الصورة الحقيقية التي كان يظهر بها الممدوح.

على أن جريرا يبدو أكثر واقعية في مديحه عمر بن عبد العزيز، حين يمدحه قائلاً:

ونِعْمَ أخو الحروبِ إذا تَرَدّى على الزَّعْفِ المُضَاعَفَةِ النِّجَادَا
وأنتَ ابنُ الخَضَارِمِ مِنْ قُرَيْشٍ هُمُ نصروا النبوةَ والجِهَادَا
وقادوا المؤمنينَ، ولم تُعَوَّدْ غَداةَ الرَّوْعِ خَيْلُهُمُ القِيَادَا[٣]

فالخليفة هو المجرب الحكيم في أمور الحرب، يحسن الاستعداد لها، ويخوض غمارها؛ وقد ورث ذلك عن قريش التي نصرت النبوة، ورفعوا راية الجهاد، وقادوا المؤمنين، وكانوا دائما في الطليعة، ولم تتعود خيلهم القياد لأحد، وإنما كانت هي التي تقود خيل الآخرين. ويمكن القول؛ إن الشاعر اتكأ في مدحه

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص٢٩، العقاب: الراية.

(٢) سورة نوح، الآية ٢٦.

(٣) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص١٠٧، ١٠٨، تردّى: لبس، الزعف: الدرع الواسعة الطويلة، النجاد: حمالة السيف، الخضارم: السادة الكرام.

عمر بن عبد العزيز على نسبه أكثر من الصفات الدينية، ولكنه استطاع بذكاء أن يمزج بين الصفات الدينية، وبين نسب الخليفة في قريش، متجاوزاً بذلك ذكر بني أمية الذين وقف كثير منهم موقفاً عدائياً من الدعوة الإسلامية، وقاوموها مقاومة عنيفة في طور نشأتها.

ويستمر جرير في تسجيل مآثر فرسان المسلمين الذين أبلو بلاءً حسناً في المعارك مع أعداء الدولة الإسلامية مدافعين عن الإسلام، فيقول في مدح عبد العزيز ابن الوليد بن عبد الملك:

إذا قلتَ لي عبدُ العزيز كَفَيْتَنِي ... زماناً فَشَتْ عِلَّاتُه ومَبَاخِلُهْ
فيومَانِ مِنْ عبدِ العزيزِ تَفَاضَلَا ... ففي أيِّ يَوْمَيْهِ تَلُومُ عَوَاذِلُهْ
فيومٌ تحوطُ المسلمين جِيَادُهُ ... ويومٌ عطاءٌ ما تُغِبُّ نوافِلُهْ
وللتركِ مِن عبدِ العزيزِ وقيعةٌ ... وللروم يومٌ ما تُتِمُّ حَوَامِلُهْ
فما وَجَدُوا عبدَ العزيزِ مُغمَّراً ... ولا ذا سِقَاطٍ عِنْدَ أمرٍ يُحَاوِلُهْ
ولا جَافِياً عن قائِمِ السَّيْفِ قَبْضُه ... إذا القَشْلُ الرّعديدُ قُفَّتْ أنَامِلُهْ
فلا هُوْ من الدنيا مُضِيعٌ نصيبَه ... ولا عَرَضُ الدُّنْيَا عنِ الدينِ شاغِلُهْ[1]

ويصر جرير كعادته على أن يقرن مديحه بذل المسألة، إذ يصور الممدوح بصورة الكريم الذي أزاح عنه غوائل الفقر، وكفاه الوقوف عند أبواب البخلاء، ثم ينتقل إلى الجانب الآخر من الصورة، وهو الجهاد في سبيل الله، إذ يبرز فيها الممدوح مجاهداً مدافعاً عن الإسلام، معلياً كلمة الله، يشهد له بذلك وقائعه مع الترك والروم، الذين جربوا شدته وبأسه في الحروب فما وجدوه رعديداً ولا جباناً ولا غرّاً في أمور الحرب، بل وجدوا فارساً قد أحكمته تجاربه في الحروب، وهو فوق ذلك يعمل لدنياه، كما يعمل لآخرته، فلا تشغله الدنيا عن الدين، كما أنه لا ينسى نصيبه من الدنيا، وفي هذا المعنى تلميح لما في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[2]

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٣٤٩. المغمَّر: الصبي الذي لم يجرب الأمور، الفشل: الرجل الضعيف الجبان، الرعديد: الجبان، قفت: انقبضت.

(٢) سورة القصص، الآية ٧٧.

وقال الشاعر ذو الرمة يمدح بلال بن أبي بردة[١]:

رأيتُ أبا عمرٍو بلالاً قضى له ... وليُّ القَضَايا بالصَّوابِ وبالنَّصْرِ
إذا حاربَ الأقوامَ يَسْقِي عَدُوَّهُ ... سِجَالاً من الذِّيفَانِ والعَلْقَمِ الخُضْرِ
أبوكَ تلافَى الدينَ والناسَ بعدما ... تَشَاءَوا وبَيْتُ الدِّينِ مُنْقَلِعُ الكِسْرِ
فشدَّ إصَارَ الدينِ أيامَ أذرحٍ ... وردَّ حُروبا قَدْ لَقِحْنَ إلى عُقْرِ[٢]

وفي هذا المديح يسير ذو الرمة على نهج سابقيه، ويركب موجة المعاني الإسلامية لعله يصل إلى غايته، ويحقق ما يصبوا إليه من منافع مادية، فيخلع على ممدوحه ثوب القداسة والتدين، إذ يبدو مجاهداً في سبيل الله مؤيداً بنصره، يسقي عدوه السمّ الزعاف في الحروب، ثم يشير الشاعر إلى ما فعله جد بلال أبو موسى الأشعري حين تدارى مع عمرو بن العاص في أمر الخلاف بين علي ومعاوية، إذ يجعل لأبي موسى مكرمة عظيمة، فهو الذي رأب صدع الدين بمحاولته الإصلاح بين الفريقين المتنازعين، ومنع حروبا كادت أن تودي بأرواح كثير من أبناء الأمة الإسلامية.

ويسجل النابغة الشيباني واقعة حربية في عهد الوليد بن عبد الملك في معرض مدحه له فيقول:

لا يُخْمِدُ الحربَ إلا ريثَ يوقدُهَا ... في كلِّ فَجٍّ له خيلٌ مَسَانِيفُ
أخْزَى طُرُنْدَةَ مِنْهُ وابلٌ بَرِدٌ ... وعَسْكَرٌ لم تَفُدْهُ العُزّلُ الجُوفُ
ما زالَ مَسْلَمَةُ الميمونُ يَحْضُرُهَا ... ورُكْنُهَا بِثِقَالِ الصَّخْرِ مَقْذُوفُ[٣]

---

(١) بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري، أمير البصرة وقاضيها. كان راوية فصيحا أديبا، ولاه خالد القسري سنة ١٠٩هـ، كان ثقة في الحديث، ولم تحمد سيرته في القضاء، وهو ممدوح ذي الرمة الشاعر، ت(١٢٦هـ) (خليل بن أيبك الصفدي، الوافي في الوفيات، ج١٠، ص١٧٥. والزركلي، الأعلام، المجلد الثاني، ص٧٢)

(٢) ذو الرمة، غيلان بن عقبة، ت(١١٧ هـ/٧٣٥م)، ديوان ذي الرمة، تحقيق د. عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت، بدون تاريخ، ج٢، ص٩٦٩ – ٩٧٤. الذيفان: السم، تشاءوا: تفرقوا، الكسر: أسفل الشقة التي تقع على الأرض، الإصار: الحبل الصغير الذي في وتد البيت، عقر: المرأة التي تحمل، ثم ينقطع عنها ذلك.

(٣) النابغة الشيباني، ديوان النابغة الشيباني، ص١٠١، ١٠٢، مسانيف، جمع مسناف: وهو الفرس الذي يتقدم الخيل في سيره، الجوف: جمع أجوف: وهو من لا عقل له، طرندة: بلد من بلدان الروم.

فهذه جيوش الوليد بن عبد الملك بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك تصب جام غضبها على بلدة من بلدان الروم، فتحاصرها، وتقذفها بالمنجنيق، حتى استقادت لأمر الخليفة بسبب ما عانته من حملات المسلمين المتتالية عليها. والشاعر إذ يسجل هذه الموقعة إنما يسجل موقفاً من مواقف الوليد بن عبد الملك الجهادية، وكان النصر حليف المسلمين بفضل الله ثم جهود قائد المسلمين في تلك الموقعة مسلمة بن عبد الملك الذي كان نعم القائد ونعم المجاهد في سبيل الله.

وبعد أن عُرض موضوع الثوابت الدينية ذات الطابع السياسي في قصيدة المديح الأموية فلا بد من نظرة سريعة لإجمال ما قيل حول هذا الموضوع.

من تناول الشعراء مسألة الخلافة وفكرة الجبر والاختيار، يمكن القول إن هذه الفكرة ظهرت نتيجة لحاجة الأمويين إلى مُسَوِّغ ديني يبرر اغتصابهم للخلافة، ويكون مقبولاً لدى عامة الناس؛ فقد كان الأمويون يفتقرون إلى سند ديني قوي يدعم موقفهم في مسألة الخلافة. كما أن هذه الفكرة لم تظهر إلا في المديح الموجه إلى خلفاء بني أمية، وقد وظفها الشعراء توظيفاً ذكياً من أجل إبراز ممدوحيهم في إطار ديني يجعلهم أجدر باعتلاء عرش الخلافة الإسلامية، فهم مؤيدون من الله، وخلافتهم كانت بمشيئة الله، وهذا التفضيل من الله لأن بني أمية أهل للرياسة ورثوها عن آبائهم وأجدادهم من قريش.

وقد ظهرت هذه الفكرة في شعر كثير من الشعراء الذين مدحوا بني أمية وخاصة الفحول منهم، غير أن هذه الفكرة كانت أكثر جلاءً في شعر جرير بن عطية. وثمة فكرة أخرى كانت ملازمة لفكرة الجبر والاختيار، فقد ظهر التركيز على نسب الممدوح في قريش؛ مدعماً فكرة الجبر والاختيار وجعلها أكثر واقعية، وأقرب إلى التصديق لدى عامة الناس. ومما تجدر الإشارة إليه أنّ فكرة الجبر والاختيار كانت أيضاً مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتكسب وطلب العطاء؛ إذ تكاد معظم قصائد المديح التي ترد فيها هذه الفكرة لا تخلو من التكسب وإراقة ماء الوجه، وهذا يدل على أن الشعراء كانوا يجاملون ممدوحيهم مجاملة دينية قد تصل إلى حد المبالغة في كثير من الأحيان.

أمّا فيما يتعلق بالإمامة والمهدية، فإن هذا الموضوع من المواضيع التي وظفها الشعراء في مديحهم؛ لما لهذين المصطلحين من دلالات دينية وأبعاد سياسية، كان يرمي الشعراء من ورائها إلى إضفاء شيء من القداسة على ممدوحيهم. فهم حين

يطلقون عليهم هذه الألقاب، إنما يقصدون أن ممدوحيهم يتصفون بكثير من الفضائل الدينية المتمثلة في الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الإمام المؤهل لتولي أمور المسلمين؛ ويمكن القول إن المهدية كانت لها جذورها في العقيدة الإسلامية، وأنها ظهرت مبكراً عند بعض شعراء الشيعة أمثال كثيّر عزة، وكانت تحمل إيحاءات دينية قدسية. كما يمكن القول؛ إن قضية المهدية ظهرت متأخرة في شعر المديح الموجه لبني أمية، فقد برزت بوضوح في هذا الشعر عند تولي سليمان بن عبد الملك الخلافة، وكان الفرزدق من أبرز الشعراء الذين أشادوا بسليمان موظفاً المهدية في شعره، وشاركه جرير مدح سليمان بن عبد الملك موظفاً هذه الفكرة أيضاً، وإن كان الفرزدق أكثر إلحاحاً في وصف سليمان بالمهدي. واستمرت هذه الفكرة عند هذين الشاعرين وغيرهم من الشعراء بعد ذلك، وشملت هذه الفكرة من جاء من الخلفاء بعد سليمان بن عبد الملك. وكان الممدوح يظهر في صورة المهدي المخلّص والمنقذ للأمة من الظلم والجور الذي حلّ بها. وعلى عادة شعراء بني أمية فإن طرحهم لقضية الإمامة والمهدية كان يقود بعضهم إلى المبالغة، وربما للكذب في نسبة المهدية والإمامة إلى ممدوحيهم، إذ كانت بعض الأمدوحات بهذين المعنيين ينقصها كثير من الموضوعية للتعارض الكبير بين الصفات التي يظهر بها الممدوح في الشعر، والسيرة التي يظهر بها على مسرح الواقع.

وقد تناول الشعراء أيضاً موضوع شرعية الحكم وحاولوا ربطه بإرث النبوة، إذ راحوا يضفون الشرعية على ممدوحيهم من خلال الربط بين نسب الممدوح ونسب النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت هذه المعاني تتراوح بين الموضوعية والبعد عنها، فقد كان شعراء الأمويين يحاولون بأي شكل من الأشكال أن يجعلوا الصلة وثيقة بين الممدوح وبين النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن لهم حجة في ذلك إلا في جعل الممدوح من قريش التي ينتسب إليها النبي صلى الله عليه وسلم. كما كانوا يعولون في هذا الموضوع على رموز الخلافة التي ورثها الممدوح عن النبي، كالعصا والخاتم والمنبر، أمّا شعراء الشيعة أمثال كثيّر والكميت، فإن مديحهم فيما يتعلق بهذا الموضوع يبدو أكثر واقعية عند مدحهم لآل البيت؛ لأنهم ليسوا بحاجة إلى أن يبحثوا عن رابطة تربط الممدوح بالنبي ﷺ؛ ولذلك كانت مدائحهم صادقة وبعيدة عن غايات التكسب التي كان شعراء بني أمية يسعون إلى تحقيقها.

أمّا الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الإسلام، فقد كان من الموضوعات الدينية البارزة التي شملتها قصيدة المديح في العصر الأموي، إذ استأثر هذا الموضوع بنصيب وافر منها. وبرزت صورة الممدوح فارساً مسلماً حريصاً على إعلاء كلمة الله مقدماً روحه رخيصة في سبيل الله، مدافعاً عن الإسلام، محاولاً نشره في العالمين؛ وكان هذا المديح في معظمه موجهاً إلى قادة الجيوش الإسلامية، سواء أكان ذلك في الحروب الداخلية، أم كان في الفتوحات الخارجية، وكان المديح بهذه الفضيلة يوظف لدعم مركز الحاكم المسلم، بصفته حامي حمى الإسلام وراعي شؤون المسلمين في كل مكان، فقد سجل الشعراء جهود الخلفاء وحكام الأقاليم وقادة الجيوش وما يبذلونه في الحروب من تضحيات من أجل أن تبقى راية الإسلام عالية خفاقة.

ويمكن القول إن الشعر المتعلق بمدح قادة الجيوش في الفتوحات الخارجية يبدو أقرب إلى الصدق إذا قورن بمدح قادة الجيوش في المعارك الداخلية، إذ يبدو هذا المديح الأخير مشوباً بالهوى والتحيز إلى الأحزاب التي ينتمي إليها الشعراء.

وفي النهاية يمكن القول إنّ المديح الديني ذا الطابع السياسي كان يميل في معظمه إلى التكسب، وأنّ الشعراء وظفوا هذه المعاني من أجل مصلحتهم الذاتية، مما اضطرهم إلى الكذب من أجل تحقيق هذه المصلحة، وخاصة الشعراء الذين مدحوا الأمويين، وإن كان هناك بعض الاستثناءات إلا أنها قليلة، أمّا إذا كان الأمر يتعلق بالولاءات الحزبية، فإن هذا المديح يكون قريباً من الواقع، وبعيداً عن المجاملات إلى حدٍ ما.

الفصل الثالث

القيم الإسلامية في قصيدة المديح في العصر الأموي

وفيه ثلاثة مبـــاحث:

المبحث الأول: التقـــوى

المبحث الثاني: العـــدل

المبحث الثالث: محاربة الفتن والفســـــاد

الفصل الثالث

القيم الإسلامية في قصيدة المديح في العصر الأموي

ذكر ابن منظور تعريفا لغويا للقيمة في مادة قوم، فقال: " القيمة واحدة القيم. والقيمة ثمن الشيء بالتقويم، تقول تقاوموه فيما بينهم"[1] ويمكن تعريف القيمة: بأنها تشمل كل ما يرغب الإنسان في التحلي به من فضائل متعارف عليها في مجتمع ما، وتكتسب أهمية في ذلك المجتمع. وقد ذكر قدامة بن جعفر أربع فضائل شاملة لجميع القيم التي يمكن أن يمدح بها الإنسان، وهذه الفضائل هي: العقل، والشجاعة، والعدل، والعفة [2]، وجعل قدامة المادح بهذه الأربع الخصال مصيبا، والمادح بغيرها مخطئا.[3]

وقد قسم قدامة بن جعفر كل فضيلة من هذه الفضائل إلى أقسام[4]، فجعل من أقسام العقل: ثقابة المعرفة، والحياء والبيان والسياسة والكفاية والصدع بالحجة والعلم والحلم عن سفاهة الجهلة وغير ذلك مما يجري هذا المجرى. ومن أقسام العفة: القناعة، وقلة الشره، وطهارة الإزار وغير ذلك مما يجري مجراه. ومن أقسام الشجاعة: الحماية والدفاع، والأخذ بالثأر، والنكاية في العدو والمهابة وقتل الأقران، والسير في المهامه الموحشة والقفار وما أشبه ذلك. ومن أقسام العدل: السماحة، ويرادف السماحة: التغابن، والانظلام، والتبرع بالنائل، وإجابة السائل، وقرى الأضياف، وما جانس ذلك.

وقد كانت معظم هذه القيم سائدة في الجاهلية، واستمر بعضها في الإسلام، واكتسب طابعا دينيا، وازداد الناس تمسكا بهذه القيم؛ لحث الدين الإسلامي على التحلي بها، وأصبحت من وسائل الشعراء للتقرب إلى ممدوحيهم. وقد حرص كثير من الممدوحين على أن يُمدحوا بهذه الفضائل النفسيه. وقد ضرب قدامة بن جعفر لذلك مثلاً من قول عبد الملك بن مروان لعبيد الله بن قيس الرقيات، إذ عتب عليه في مدحه

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، الجزء الثاني عشر، ص٥٠٠، (مادة قوم)

(٢) قدامة بن جعفر، ت (٣٣٧ هـ/٩٤٨م) ، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، ط٣، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٦٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٦٧.

مصعب بن الزبير بالفضائل النفسية التي هي العقل والعفة والعدل والشجاعة، بينما مدح عبد الملك بأوصاف الجسم في البهاء والزينة وما جانس ذلك[١].

كثر المديح بهذه الفضائل الدينية وأصبحت سمة من سمات المديح في العصر الأموي، وأصبح الممدوحون يحثون الشعراء صراحة على مدحهم بهذه الفضائل ؛ لما لها من أهمية في تحسين صورة الممدوح، وإكسابه الشرعية الدينية في تصرفاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ومن أبرز القيم التي ظهرت في شعر المديح في العصر الأموي: التقوى والعدل ومحاربة البدع والفتن والفساد، وهذا ما سيتم توضيحه في هذا الفصل.

(١) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص١٨٩ .

المبحث الأول

التقوى

التقوى إحدى القيم المتفرعة عن العفة[1]، ومفهوم العفة يتغير من زمن إلى زمن، فقد كانت العفة في الجاهلية تعني الترفع عن الغنائم، وعن النظر إلى الجارات، ولكن مفهوم العفة تطور في الإسلام إلى أبعد من هذا المعنى، فأصبحت العفة تشمل الترفع عن الآثام وتقوى الله وإقامة فرائض الدين وطهارة الإزار، وأصبح مفهوم التقوى يشمل جميع هذه الأمور، وأصبحت التقوى هي ميزان الكرامة عند الله قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[2]. وقال ﷺ: "**يا أيها الناس؛ ألا إن ربكم واحد، وإنْ أباكم واحد؛ ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى**"[3].

وهذه الكرامة جعلها الله للإنسان الذي يضع مخافة الله نصب عينيه، في سره وعلانيته. وهذه الفضيلة لا يعلمها إلا الله؛ لأنها بين العبد وربه، وإنْ بدت بعض آثارها على الإنسان المؤمن. إلا أن الكثيرين من المؤمنين يحاولون إخفاء هذه الآثار حتى لا يدخل الرياء إلى قلوبهم. وفيما يقابل ذلك فإن بعض الناس يحاولون أن يظهروا بمظهر الأتقياء الذين يخشون الله، ويرجون رحمته، وقد يلجأ بعض الناس إلى التظاهر بالعفة والتقوى، ظناً منهم أن ذلك سيعلي من منزلتهم الاجتماعية أو السياسية، ومن ثم يستطيعون تحقيق مآربهم الشخصية. وإذا كانت التقوى من مقاييس التفاضل بين عامة المسلمين في الدنيا، بله الآخرة، فإن الخاصة من المسلمين في العصر الأموي كانوا أشد حرصاً على الظهور بهذا المظهر الديني البارز، لذا اتجه أهل الدنيا من الخاصة إلى الدين، وحاكوا أردية من التقوى يتجملون بها للوصول إلى ما يريدون، بعد أن ابتعد المسلمون قليلا عن روح الإسلام القوية التي كانت في عهد الخلفاء الراشدين. ونظراً للصراع العنيف على السلطة في العصر الأموي، أصبح كل من يسعى إلى السلطة حريصاً على أن يظهر بمظهر الحاكم الذي يسعى إلى إقامة تعاليم الإسلام،

---

(١) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص٦٧.

(٢) الحجرات، الآية ١٣.

(٣) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المجلد الخامس، ص٤١١.

والمدافع عن محارم الله، والمطبق لشرعه؛ لذا كان على الحكام أن يتحلوا بالتقوى، أو التظاهر بها عند بعضهم. وقد رأى الشعراء حاجة الحكام إلى نشر هذه الفضيلة بين الناس، فسعوا إليهم مسرعين، وعرضوا خدماتهم في هذا المجال واستقبلهم الممدوحون راضين عما يقولون، بغض النظر عن كثير من المبالغات التي كانوا يأتون بها في أشعارهم. وعند استعراض شعر هؤلاء الشعراء فيما يتعلق بموضوع التقوى، فإن هذه الفضيلة تبرز فيه بوضوح، ومن الأمثلة على ذلك، قول الشاعر أبي دهبل الجمحي في مدح ابن الأزرق[١] :

حنوتَ علينا حَنْوَةَ الوالد الذي ... بنى لبنيهِ ثم وَطَّا فَمَهَّدَا

بطينٌ من التقوى، خميصٌ من الخَنَا ... يُحِبُّ لِذي العرشِ التُّقَى والتَّوَدُّدَا[٢]

فالشاعر يحرص كل الحرص على أن يبدو ممدوحه في أبهى الصور الدينية، إذ يجعله يتقي الله في أموره سرها وعلنها، ويجعل ذلك قربى إلى الله، ومن آثار هذه التقوى أنه حريص على أن يكون رؤوفا رحيماً بأصحابه، فهو بمنزلة الوالد الذي يشفق على أبنائه ويجنبهم المكروه والأذى. ثم هو بعد ذلك ليس بذيئاً ولا متفحشاً؛ لأن تقوى الله تمنعه من ذلك.

وقد تناول معظم شعراء الفرق الإسلامية هذه المعاني، ووظفوها في شعرهم، وكان الحرص على إبراز التقوى في المدح سمة من سمات شعر المديح في العصر الأموي عند معظم شعراء هذه الفرق. ولقد كان شعر الخوارج يزخر بالمعاني الدينية، وخاصة الحث على الجهاد، والتحلي بفضيلة التقوى، فهذا الشاعر عيسى بن فاتك الخطي[٣] يمدح الخوارج الذين انتصروا على جيش من جيوش بني أمية بلغ تعداده ألفي رجل، بينما بلغ عدد الخوارج في تلك الموقعة أربعين رجلاً [٤]، يقول عيسى بن فاتك مسجلاً هذه الواقعة في شعره ومشيداً بالخوارج:

---

(١) ابن الأزرق: هو عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد بن شمس بن المغيرة الهبرزي الأزرق، كان والياً لابن الزبير على الجند، رثاه أبو دهبل وأوصى أن يدفن إلى جانبه (المصعب بن عبد الله الزبيري، نسب قريش، ص٣٣١، ٣٣٢ .

(٢) أبو دهبل الجمحي، ديوان أبي دهبل الجمحي، ص١١١. بطين: ملآن، خميص: ضامر البطن.

(٣) عيسى بن فاتك من بني تيم اللات بن ثعلبة، من أصحاب نافع بن الأزرق (المبرد، الكامل في اللغة والأدب. وينظر: إحسان عباس، شعر الخوارج، ص٥٤).

(٤) المبرد، الكامل في اللغة والأدب، المجلد الثالث، ص٧٩.

أَلْفَا مؤمنٍ فيما زَعَمْتُمْ ... ويَهْزِمُهُمْ بآسك أربعونَا
كَذَبْتُمْ ليسَ ذاك كَمَا زَعمتُمْ ... ولكنَّ الخوارجَ مُؤمِنُونَا
هُمُ الفئةُ القليلةُ غيرَ شَكٍّ ... على الفِئَةِ الكثيرةِ يُنْصَرُونَا
أَطَعْتُمْ أمرَ جَبَّارٍ عنيدٍ ... وما مِنْ طاعةٍ للظَّالِمِينَا[١]

فهذه أبيات يسجل فيها الشاعر أحداث معركة حصلت بين فئتين من المسلمين من أجل التناحر على السلطة، ويشير إلى أن النصر كان للفئة القليلة على الفئة الكثيرة، ويرجع ذلك النصر إلى التقوى وخشية الله التي كان يتحلى بها الخوارج، فهم يطيعون الله ويخافونه، ومن يخف من الله فلن يخاف من غيره؛ لذلك كانت الكفة الراجحة في المعركة للذين يستمدون عونهم من الله، وفي هذا استهزاء ببني أُمية وبجنودهم الذين فروا أمام الخوارج المؤمنين إيماناً راسخاً بمبدئهم الذي يؤمنون به. وفي البيت الثالث إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[٢].

وعند استعراض المديح الذي قيل في الهاشميين فيما يتعلق بهذه الفضيلة، فإن مديح الشعراء لهم يتميز بتصوير الواقع الذي كان يعيشه الهاشميون، فقد كان معظمهم أهلاً للتقوى وخشية الله والصفات الكريمة التي استمدوها من رسول الله ﷺ. فعندما يمدح عبيدُ الله بن قيس الرقيات عبدَ الله بن جعفر بن أبي طالب، فإنه يصفه بكمال العقل وبالتدين؛ فهو تقي نقي طاهر، لم يمس ثوبه دنس ولا رجس، وهو فوق ذلك من الهاشميين أهل الجود والكرم والعفاف، يقول عبيد الله بن قيس:

واضحَ الخَدِّ، كاملَ العَقْلِ والدي ... ـنِ نقيَّ الثيابِ غَمْرَ العِطَافِ
حلَّ في الجَوْهَرِ المهذَّبِ من ها ... شمِ أهلِ النَّدى وأهلِ العَفَافِ[٣]

هذا هو عبيد الله بن قيس الرقيات في مدحه الهاشميين يبتعد عن أوصاف الجسم المحسوسة أو الزينة أو المظاهر المادية. ويتجه إلى الفضائل النفسية، وفي هذا بون شاسع بين هذا المديح ومديحه الأمويين.

---

(١) إحسان عباس، ديوان الخوارج، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص٥٤،٥٥. آسك: فيما بين رامهرمز وأرجان. (إحسان عباس، شعر الخوارج، ص٤٨)

(٢) البقرة، الآية ٢٤٩.

(٣) عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، ص٣٩.

وقد شارك شعراء الخوارج في نسبة فضيلة التقوى إلى ممدوحيهم، فهذا عمران بن حطان يمدح ابن ملجم فيقول:

يا ضربةً من تَقِيٍّ ما أراد بِهَا ... إلا لِيَبْلُغَ مِنْ ذي العَرْشِ رضوانَا
إنّي لأذكُرُهُ حيناً فأَحْسِبُهُ ... أوْفى البَرِيّةِ عند الله مِيزَانَا
أكرِمْ بقومٍ بطونُ الطيرِ قَبْرُهُمُ ... لم يَخْلِطُوا دينَهُمْ بغياً وعُدْوَانَا[1]

وهذا مدح لعبد الرحمن بن ملجم، الذي غدر بالإمام علي ﷺ وقتله، وفيها يصفه الشاعر بأنه تقي، ويزعم أنه لم يقم بهذه الضربة، إلا ليبلغ بها رضوان الله، ثم يتمادى في هذه المبالغات، فيصفه بأن ميزانه أوفى الموازين عند الله، زاعماً أنه من قومٍ لم يخالط دينهم البغي والعدوان، وأن همهم الوحيد هو الجهاد في سبيل الله.

وفي موضوع التقوى يقول العجاج بن رؤبة مادحاً يزيد بن معاوية، مشيداً بصفاته التي كان يتحلى بها:

دونَ يزيدِ الفضلِ وابنِ الأفضلِ
خيرِ الشبابِ وابنِ خيرِ الكُهَّلِ
أقومِهِ عند غُفُولِ الغُفَّلِ
لله بالمثنينَ والمُفَصَّلِ
وبالمَثَانِي مِنْ كتابٍ مُنْزَلِ
وفي الحقوقِ ذو قَضَاءٍ فَيْصَلِ[2]

فالشاعر لا يريد الرجوع دون يزيد بن معاوية، فهو الأفضل ابن الأفضل، وهو خير الشباب تديناً، يقوم الليل يصلي ويقرأ القرآن، تقرباً إلى الله، وطلباً للمغفرة، بينما الناس نائمون وغافلون، أما في القضاء فهو يحكم بين الرعية بالسوية، فلا جور ولا ظلم في القضاء،وهذا ما ينبغي أن يتصف به المسلم الذي يريد ثواب الدار الآخرة.

وعدي بن الرقاع العاملي من الشعراء الذين كان يفيض شعرهم بالمعاني الدينية؛ ومنها فضيلة التقوى، فعند مدحه الوليد بن عبد الملك يشير إلى ذلك قائلاً:

---

(١) إحسان عباس، شعر الخوارج، ط٢، ص١٤٧.

(٢) العجاج بن رؤبة، ديوان العجاج، ص١٦٢. المثاني: سورة الحمد لأنها تثنى في كل ركعة. المفصّل: المقطّع فصلاً فصلاً (الديوان، ص٢٦٣).

فأصبَحَ الأمرُ بعدَ الله قادَتُهُ بنو الأُلى غَضِبُوا مِنْ قَتْلِ عثمانا
الآمرونَ بتقوى الله أُمَّتَهُمْ والكائنونَ على المعروفِ أعْوَانَا[١]

فبنو أُمية هم أهل التقوى، وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وهم ولاة الأمر، الذين أيدهم الله، حين قاموا يطالبون بدم عثمان ﷺ.

ويواصل ابن الرقاع مدحه الوليد بن عبد الملك، مصوراً شوق المسلمين لولاية الوليد، وهم يدعون الله أن يولِّيَ عليهم رجلاً يتصف بالتقوى، فيقول:

غداة يدعون والأبصار خاشعة يا ربنا ولَيِّنَّ الأمر أتقانا[٢]

ثم يستجيب الله، فيتولى أمرهم خيارهم، فيستبشر القوم، ويستبشر الشاعر قائلا:

فالحمدُ للّهِ إذ ولّى خِلافَتَنَا وأمرَنَا خيرَنَا ديناً وأقوانَا[٣]

وفي هذه الأبيات تظهر قدرة الشاعر على المدح، إذ وظف هذا الدعاء من قبل المسلمين، في خدمة مآربه الشخصية، ومن أجل إضفاء مزيدٍ من القداسة على شخص الوليد بن عبد الملك، الذي تولىّ الخلافة استجابة لهذا الدعاء؛ ولأنّ الله رآه أفضل من يتولى الخلافة لتدينه وتقواه.

وهكذا يرسم الشعراء لممدوحيهم صوراً دينيه ناصعة، مستمدة ألوانها من القيم الإسلامية ذات القداسة والمهابة والفضيلة.

وقال زياد بن الأعجم يمدح عبد الله بن الحشرج[٤]، وكان قد وفد عليه زياد وهو أمير بنيسابور:

إنّ السماحةَ والمروءةَ والنَدَى في قُبَّةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الحَشْرَجِ
يا خيرَ من صَعِدَ المنابرَ بالتُّقَى بعدَ النبيّ المُصْطَفَى المُتَحرِّجِ[٥]

---

(١) عدي بن الرقاع، ديوان عدي بن الرقاع، ص١٧٠.
(٢) المصدر نفسه، ص١٧١.
(٣) المصدر نفسه، ص١٧١.
(٤) عبد الله بن الحشرج بن الأشهب بن ورد الجعدي: والٍ من سادات قيس وشعرائها،وأحد الأجواد المعدودين ولي أكثر أعمال خراسان، ت(٩٠هـ/٧٠٨م) (أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد السادس، ص٢٧٨)
(٥) زياد بن الأعجم، ت(١٠٠هـ/٧١٨م)، شعر زياد بن الأعجم، جمع وتحقيق ودراسة، د. يوسف حسين بكار، ط١، دار المسيرة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٤٩. المتحرّج: الكافّ عن الإثم .

فالممدوح فضلاً عنه أن يتحلى بالسماحة والمروءة والندى، فإنه يتحلى بما هو أفضل منهما أيضاً؛ فهو خطيب يرتقى المنابر، ويتقي الله فيما يقول، وليس أحدٌ أفضل منه إلا رسول الله الذي كان يتحرج من الإثم. وفي هذا مبالغه من الشاعر، إذ رفع ممدوحه إلى مرتبه دون الرسول بقليل، متناسياً من هم أفضل من ابن الحشرج من الصحابة والتابعين؛ ولكن هذه المبالغات يعمد إليها بعض الشعراء من أجل الوصول إلى المنافع المادية التي يرجونها عند الممدوحين .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز على قدر كبير من التقوى؛ مما دفع الشعراء إلى مدحه بهذه الفضيلة، يقول كثيّر عزة في معرض وصفه لناقته الذاهبة إلى الخليفة:

تزور امرأً أمّا الإلهَ فَيَتَّقِي وأمّا بفعلِ الصالِحينَ فَيَأْتَمِي (١)

فالخليفة يتقي الله، ويأتم بالصالحين في أفعالهم، فهو ممن يخافون الله ويخشونه، ولقد كان عمر بن عبد العزيز كما وصفه كثيّر تقياً، ورعاً، لا يخشى في الله لومة لائم.

ويمضي كثيّر عزة في مدحه عمر بن عبد العزيز بقصيدة أخرى فيقول:

ولقد لَبِسَتْ لُبْسَ الهلوكِ ثِيَابَها تَرَاءَى لك الدنيا بِكَفٍّ ومِعْصَمِ
وتُومِضُ احياناً بعينٍ مَريضةٍ وتَبْسُمُ عَنْ مثلِ الجُمَانِ المُنَظَّمِ
فاعرضْتَ عنها مُشْمَئِزّاً كأنما سَقَتْكَ مَدُوفاً مِن سِمَامٍ وَعَلْقَمِ(٢)

وهذا القول يدل على أن عمر بن عبد العزيز أعرض عن الدنيا، رغم زينتها وزخرفها إعراض من يرجو الله واليوم الآخر؛ وأعرض عنها إعراض القالي لها، ولم يفعل كما فعل غيره من الخلفاء الذين غرقوا في خضم هذه الزينة الدنيوية ومفاتنها.

ويشير كثيّر في أبيات من القصيدة نفسها إلى أن عمر بن عبد العزيز لم يكن طالب ملك، ولم يكن يسعى إلى الخلافة؛ وإنما جاءته دون سعي ودون مطالبة؛ وهذا يدل على مدى التقوى التي كان يتمتع بها عمر قبل تولي الخلافة؛ إذ لم يكن يتهالك على الدنيا، ولم يكن له رغبة في الخلافة؛ لأنه يعلم أنها أمانة، وأنه مسؤول عنها أمام الله، ومحاسب على جميع تبعاتها، يقول كثيّر في ذلك:

---

(١) كثيّر عزة، ديوان كثيّر عزة، ص٣٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٣٥. الهلوك: البغي الفاجرة من النساء، المدوف: الممزوج والمخلوط.

فلمّا أتاكَ الملكُ عفواً ولم يكُنْ ... لطالبِ دنيا بعدَهُ مِنْ تكلُّمِ
تركتَ الذي يَفْنَى، وإنْ كانَ مُونِقاً ... وآثَرْتَ ما يبقى برأيٍ مُصَمِّمِ
واضْرَرْتَ بالفاني وشَمَّرْتَ للذي ... أمامكَ في يومٍ مِنَ الشَّرِ مُظْلِمِ
ومالَكَ إذْ كُنْتَ الخليفةَ مانِعَ ... سوى اللهِ مِنْ مالٍ رغيبٍ ولا دَمِ[1]

فهذا وصف للظروف التي أحاطت بخلافة عمر بن عبد العزيز. فالخليفة ترك الدنيا؛ لأنها فانية، وآثر الآخرة؛ لأنها باقية، ولم يكن اهتمامه بالحياة الدنيا كثيراً، بل كان عمله للآخرة، أملاً في بلوغ رضوان الله، وخوفاً من عقابه؛ وليس هذا الفعل بسبب عجز عن إدراك مفاتن الحياة الدنيا، بل كان عن إيمان صادق، ويقين راسخ، ومخافة لله؛ وإلا ما الذي يمنعه وهو يتحكم بكرسي الخلافة، وهو الآمر والناهي، وهو المتصرف في شؤون الرعية، يفعل ما يشاء دون رقيب ولا حسيب من بني آدم ؟! ولكن الخليفة كان يرى نفسه أصغر من أن يعصي الله في دنيا فانية زائلة؛ لذلك تركها غير آبهٍ بها، وعمل للآخرة راغباً فيها. وقد استغل كثيّر هذه الصفات الدينية المتمثلة في شخص الخليفة، ووظفها توظيفاً يدل على الحب الصادق والولاء الخالص لهذا الخليفة؛ على الرغم من العطاء القليل الذي كان يعطيه للشعراء.

وعند الانتقال من هذه الصورة التي رسمها كثيّر عزة للخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى صورة أخرى رسمها كثيّر لبشر بن مروان، يجد الناظر في الصورتين بوناً شاسعاً في إيحاءات هاتين الصورتين؛ ففي حين تبدو الصورة الأولى ناصعة مشرقة، فإنّ الصورة الثانية تبدو أقل إشراقاً لما بين الرجلين من فرق كبير في منهج الحياة، يقول كثيّر في مدح بشر بن مروان:

فَدَعْ عنك مالا تستطيعُ طِلابَه ... ومَنْ لك عنهُ لو تفكرتَ شاغِلُ
إلى طيِّبِ الأثْوابِ قد أُلْهِمَ التُّقَى ... هجانُ البنين يَعْتَريهِ المُعاقِلُ
وهوبٌ باعناقِ المِئين عطاؤُهُ ... غلوبٌ على الأمرِ الذي هُوَ فاعِلُ[2]

والفرق واضح بين رجل يتقي الله في أموال المسلمين، ولا ينفق منها إلا بحق، ورجل يتصرف في أموال المسلمين وكأنها ملك له، ويهبها للشعراء قصد استمالتهم لجانب الحزب الأموي، كما يتضح أن صفة التقوى التي نسبها الشاعر إلى بشر

(١) كثيّر عزة، ديوان كثيّر عزة، ص٣٣٥، ٣٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٧٦. هجان البنين: أبناؤه كرام الأصل، المعاقل: الذي يطلب المال ليدفع الديه.

مقرونة بطلب العطاء والمنفعة المادية؛ في حين أن التقوى التي نسبها الشاعر إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز ليس الغرض منها المنافع الدنيوية، بل كانت تصويراً للواقع الذي كان عليه الخليفة؛ وهذا يدل على أن الشعراء كانوا يوظفون هذه القيم الدينية حسب طبيعة الممدوح، وحسب مآربهم الشخصية، وغاياتهم النفعية.

كما تبرز صفة التقوى في خلفاء بني أمية الذين مدحهم الفرزدق، وجعل منهم أئمة هداة مهديين، لا يجاريهم أحدٌ في تقوى الله واجتناب محارمه. يقول في مدح يزيد ابن عبد الملك:

أرى اللهَ قد أعطى ابنَ عاتِكَةَ الذي ... لهُ الدينُ أمسى مُسْتَقِيمَ السَّوالِفِ
تُقَى اللهِ والحُكْمَ الذي ليس مِثْلُهُ ... ورَأْفَةَ مَهْدِيٍّ على الناسِ عَاطِفِ
ولا جارَ بعدَ اللهِ خيرٌ مِنَ الذي ... وَضَعْتُ إلى أبوابِهِ رحلَ خَائِفِ[1]

فهذا الحكم الأموي الذي ليس كمثله حكم في رأي الفرزدق؛ ليس إلا عطاءً من الله، وبسبب ما يتمتع به الخليفة من تقوى ومخافة لله ورأفة وعطف على الناس وإجارة للخائف. وهذه الصفات العظيمة هي من صفات الأنبياء، والشاعر يحاول أن يرقى بممدوحه إلى هذه الصفات النبوية، حين يجعله كالمهدي المنتظر.

غير أن الفرزدق ذهب إلى أكثر من ذلك في مدحه الوليد بن يزيد حين يقول:

إنّي إلى خيرِ البَرِيَّةِ كُلِّهَا ... رحلتُ وما ضاقتْ عليَّ المَطَامِعُ
إلى القائدِ الميمونِ والمُهْتَدَى به ... إذ الناسُ متبوعٌ وآخرُ تَابِعُ
طُبِعْتَ على الإسلامِ والحزمِ والندى ... الا إنَّما تبدي الأمورَ الطَّبَائِعُ[2]

وعند استعراض السيرة الذاتية للوليد بن يزيد،فإن المبالغة تبدو واضحةً في هذه الأبيات؛ فالمعاني الدينية التي طرقها الشاعر غير مطابقة لواقع الممدوح، وإنما لجأ الشاعر إلى هذه المبالغات من أجل تحسين صورة الممدوح في أعين الناس؛ فإذا كان الحزم والندى من صفات الوليد، فإنه ليس خير البرية كما يزعم الشاعر،وليس هو القائد الميمون الذي يهتدي به الناس. وهذا الشعر يدل على أن هذه شطحة من شطحات الفرزدق التي كان يعمد إليها حين يريد التكسب والمنفعة الدنيوية.

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص١٧.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٤١١.

ويدلي الشاعر جرير بن عطية بدلوه في هذا المجال، فيقول مادحاً عبد الملك ابن مروان:

لولا الخليفةُ والقرانُ يقرأُهُ ... ما قامَ للناس أحكامٌ ولا جُمَعُ
أنتَ الأمينُ، أمينُ الله لا سَرِفٍ ... فِيمَا وَلِيتَ، ولا هَيَّابَةٌ وَرِعُ
أنتَ المُبَارَكُ يهدي الله شِيعَتَهُ ... إذا تَفَرَّقَتِ الأهواءُ والشِّيَعُ[1]

فالتقوى صفة من صفات عبد الملك بن مروان، فهو يقرأ القران، فيتدبر حروفه، ويقيم حدوده، وهو بذلك يقيم شرع الله في الأرض، وهو المبارك الذي يأتم الناس به حين تتفرق الأهواء والشيع، وهو أمين الله الذي لا يخطىء في تدبر أمور رعيته، كما أنه ليس بالجبان الذي يحجم إذا رأى للإقدام موضعا.

وهذا المديح بهذه الصفات من الأمور التي كان الخليفة عبد الملك بن مروان ينشدها في شعر الشعراء الذين يمدحونه، وكان يشير إليها صراحة في كثير من محاوراته مع الشعراء الذين يأتون إليه مادحين.

ويستمر جرير في مدحه خلفاء بني أمية، فيقول مادحا هشام بن عبد الملك بهذه الفضيلة الدينية:

أميرَ المؤمنينَ ! جَمَعْتَ ديناً ... وَحِلْمَا فَاضِلاً لذوي الحُلُومِ
أميرَ المؤمنين على صِرَاطٍ ... إذا اعْوَجَّ المَوارِدُ مُستَقِيمِ
ترى للمسلمينَ عليكَ حَقّاً ... كفعلِ الوالدِ الرؤوفِ الرَّحِيمِ
ولِيُّ الحقِّ حين تَؤُمُّ حَجّاً ... صُفُوفاً بينَ زَمْزَمَ والحَطِيمِ[2]

وهنا تبدو صفة التدين، كما يريدها الشاعر لممدوحه، فقد جمع الممدوح التقوى والحلم، كما أن الممدوح يسير في إدارة شؤون الرعية على صراط مستقيم، فهو لا يتنكب الطريق الصحيح، ولا يعوج إذا اعوج الأخرون، كما أنه رؤوف برعيته عطوف عليهم، كفعل الأب مع أبنائه؛ وهذا العطف بسبب خشية الله، وتحمله للمسؤولية التي استرعاه الله لها. ثم يضفي الشاعر على ممدوحه صفة أخرى، حين يجعله إماما للناس في الحج، فيكسبه أفضلية على غيره لما يرمز إليه الحج من مظهر ديني وسياسي.

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص ٢٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٤١١، ٤١٢.

ويظهر أثر التقوى في شعر المديح عند ذي الرمة،فيقول مادحاً بلال بن أبي بردة:

أبيتَ أبا عمرو بلالَ بنَ عامرٍ ... من العيبِ في الأخلاقِ إلا تَرَاخِيَا

تُقَىً للذي فوقَ السماء ونَجْدَةً ... وحِلْمَاً يساوي حِلْمَ لقمانَ وافِيَا[1]

وفي هذا المديح ينهج ذو الرمة نهج الشعراء الذين سبقوه، إذ يلبس ممدوحه لباس التقوى الذي يزينه كرم الأخلاق، والبعد عن الخنا، فضلاً عن الحلم الذي يرتقي به إلى مرتبة لقمان الحكيم. ويمكن القول إنَّ الشاعر يعمد إلى شيء من المبالغة حين يساوي ممدوحه بلقمان الحكيم؛ وليس ذلك إلا تملقاً للممدوح، لعله يصل إلى ما يريد من كسب ومنافع دنيوية أخرى.

وقال ذو الرمة يمدح مهاجر بن عبد الله الكلابي[2]:

وفي قَصرِ حَجرٍ مِنْ ذُؤَابَةِ عامرٍ ... إمامُ هدى مستبصرُ الأمرِ عامِلُهْ

إذا لَبَّسَ الأقوامُ حقّاً ببـاطلٍ ... أبانَتْ لـه أحناؤُهُ وشَوَاكِلُـهْ

يَعِفُّ ويستَحِي ويَعْلَمُ أنَّهُ ... مُلاقي الذي فوقَ السَّمَاءِ فَسَائِلُهْ[3]

ويتضح أثر التدين في هذه الأبيات أقوى من الأبيات السابقة، وتتضح قدرة الشاعر على توظيف هذا الأثر الديني في مديحه المهاجر، الذي يصفه الشاعر بالعفة والحياء والتقوى، وأنه الفيصل بين الحق والباطل، ولذلك فهو إمام المسلمين الذي يهتدون به، ويسيرون على نهجه الإيماني، وهو يفعل كل هذا، خوفاً من الله، وإيماناً بيوم الحساب الذي لا بد أنْ يسأل فيه عن كل شيء عمله في هذه الدنيا. وفي المعاني التي وظفها الشاعر في مدحه إشارة إلى ما ورد في القرآن الكريم؛ ففي عجز البيت الأخير يبدو الشاعر متأثرا بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[4].

---

(١) ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، ج٢، ص١٣١٩.

(٢) مهاجر بن عبد الله الكلابي، والي اليمامة والبحرين في خلافة هشام والوليد بن يزيد، كان جميل الصورة ت(١٢٥هـ/٧٤٢م) تقريباً. (أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الرابع، ص٣٧٩)

(٣) ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، ج٢، ص ١٢٦٥، ١٢٦٧، لبّس الأقوام: خلطوا حقاً بباطل، شواكله: جوانبه.

(٤) الزخرف، الآية ٤٤.

ويجري النابغة الشيباني في مديحه الأمويين مجرى غيره من الشعراء الذين سبقوه، إذ يمدحهم بكثير من الفضائل الدينية ومنها التقوى والعفاف وطهارة الإزار، فيقول مادحا الوليد بن عبد الملك بعد أن يصف ناقته:

تنوي الوليدَ أميرَ المؤمنين وإنْ ... طالَ السِّفَارُ واضحَتْ دونه الطَّبَسُ

خليفةَ الله يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بهِ ... ما مسَّ أثوابَه مِنْ غَدْرَةٍ دَنَسُ[1]

فالخليفة طاهر الإزار، بين التقوى، يستسقي المسلمون به، فيسقيهم الله ببركة هذا الخليفة الذي يؤمن جانبه من الغدر؛ لأنه يخاف الله، ويفي بعهوده ووعوده. وفي مديحه يزيد بن عبد الملك يسهب النابغة الشيباني في مدحه هذا الخليفة، وينسب إليه كثيرا من الفضائل الدينية فيقول:

أُعْطِيَ الحِلمَ والعفافَ مع الجو ... دِ ورأياً يفوق رأيَ الرِّجَالِ

وَحَبَاهُ المليكُ تَقْوىً وبِرّاً ... وهُوَ مِنْ سُوسِ نَاسِكٍ وَصَّالِ

يَقْطَعُ الليلَ آهةً وانْتِحَاباً ... وابْتِهَالاً للهِ أيَّ ابْتِهَالِ

تارةً راكِعاً وطَوراً سُجُوداً ... ذا دُموعٍ تَنْهَلُّ أيَّ انْهِلَالِ

وله نَحْبَةٌ إذا قامَ يَتْلُو ... سُوَراً بعد سُورةِ الأنْفَالِ[2]

وفي هذه الأبيات تبدو معالم القداسة والطهر والعفاف والتقوى واضحة جلية، فالخليفة أعطاه الله الحلم والعفاف فضلا عن الجود والرأي السديد، وحباه الله التقوى ومخافة الله، وهو فوق ذلك ينتمي إلى أصول من صفاتها الزهد والتقوى، ثم يصفه بأنه قوام في الليل بسور القرآن الكريم، يتلو سورة بعد سورة، وينتحب انتحابا ويبتهل إلى الله ابتهالا، خوفا وأملا في العفو من الله. وإذا كان النابغة الشيباني صادقا في نسبة هذه الصفات إلى يزيد، فإن يزيد يبدو مثال الحاكم المسلم الجدير بولاية أمور المسلمين؛ وهذا ما يسعى إليه النابغة الشيباني؛ فهو يحاول أن يظهر ممدوحة بصورة ترضي الراعي والرعية في آن معا؛ غير أن النابغة لجأ إلى المبالغة في كثير من معانيه الدينية لإرضاء رغباته الخاصة، أملا في المزيد من الحظوة عند الخليفة يزيد. ويمكن القول، إن النابغة الشيباني حذا حذو كثير من الشعراء الذين سبقوه في تحسين صورة بعض الخلفاء الأمويين التي كانت تبدو ضبابية في كثير من جوانبها.

---

(١) النابغة الشيباني، ديوان النابغة الشيباني، ص ٨٤، الطبس: بلدة بين نيسابور وأصفهان (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢٣)

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٥، السوس:الأصل، الوصال:كثير العطاء، الابتهال:التضرع.

وتتجلى فضيلة التقوى في شعر الكميت بن زيد شاعر الهاشميين. فقد بلغ حب الهاشميين في قلب هذا الشاعر مبلغاً كبيراً؛ إذ آثرهم بمديحه، ودافع عن حقوقهم السياسية واحتج لهم، مدافعاً عن حقهم في الخلافة، متحملاً العنت الشديد في سبيل الإخلاص للمبدأ الذي يؤمن به. وتزخر هاشميات الكميت بمدح آل البيت؛ فقد قصرها عليهم، وخصهم فيها بالمدح دون غيرهم، وكان ينعتهم بما فيهم مصوراً أخلاقهم الحميدة وتقواهم ومهابتهم وكرمهم وعراقة أرومتهم كقوله:

هيّنُون ليّنونَ في بيوتِهِمُ ... سِنْخُ التُّقَى والفضائِلُ والرّتَبُ
والطيّبونَ المبرؤونَ من الـ ... آفَةِ والمنجبونَ والنُجُبُ
والسالمونَ المطهَّرونَ مِنَ الـ ... ـعيبِ ورأسُ الرُّؤوسِ لا الذنبُ[1]

وهذا هو واقع آل البيت الذين يصفهم الكميت، فهم أصل التقى، وأصل الفضيلة، وهم خيار الناس، وهم المبرؤون من العيوب، والمطهرون من الدنس، وهم الرؤوس وغيرهم الذنب. وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[2].

وفي أبيات أُخرى يواصل الكميت إضفاء مزيد من خصال التقوى على الهاشميين فيقول:

وَهُمُ الآخِذونَ مِنْ ثِقَةِ الأمـ ... ـرِ بتَقواهُمُ عرىً لا انْفِصَامِ
والمصيبونَ والمجيبونَ للدعـ ... ـوةِ والمحرزونَ خَصْلَ التّرامِي
ومحلّون محرمونَ مقرّو ... نَ كلَّ قَرارةٍ وحَرامِ[3]

وفي هذا إشارة إلى تمسك الهاشميين بعرى الدين الحنيف، ووصفٌ لهم بالهداية وإجابة دعوة النبيﷺ، وبلوغ الغاية القصوى في التقوى، والاستمساك بالعروة الوثقى. وهذه الصفات التي يصف بها الكميت الهاشميين، لا تظهر في مدح الكميت للأمويين، وفي هذا ما يدل على أن الكميت بقي متعصباً للهاشميين على الرغم من تحوله لبني أُمية عملاً بمبدأ التقية عند الشيعة.

---

(١) الكميت بن زيد، ديوان الكميت بن زيد، ص٥٦٩، ٥٧٠. السنخ: الأصل والجمع أسناخ .

(٢) الأحزاب، الآية ٣٣.

(٣) الكميت بن زيد، ديوان الكميت بن زيد، ص٤٩٧. خصل الترامي: البلوغ إلى موقع الرمي.

المبحث الثاني

العـــدل

العدل قيمة كانت لها مكانتـها فـي الجاهليـة، إذ كـان العـرب يحبـون أن يتصفـوا بهذه الصفة؛ لما لها من أثر في إبراز المكانة الاجتماعية والسياسـية للإنسـان الـذي يتحلـى بها. وكل من يتصف بالعدل كان ينظر إليه نظرة إيجابية فـي المجتمـع الـذي يعيـش فيـه. وجاء الإسلام، وأقرّ كثيراً من القيم التي كان يتحلـى بهـا الجـاهليون، والعـدل قيمـة من هذه القيم التـي أقرّهـا الإسـلام، ودعـا إليـها قـال تعـالى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[1] وقـال رسـول الله ﷺ: " **سبعـة يظلـهم الله في ظلـه يـوم لا ظل إلا ظله... وذكر منـهم الإمـام العـادل**"[2].

وقد حذّر رسول الله صلى الله ﷺ مـن الجـور فـي الأحكـام وظلـم النـاس، وذكّـر بالمسؤولية الملقاة علـى عـاتق القضـاة فقـال: " **القضاة ثلاثة؛ واحد في الجنة واثنان في النار، فأمّـا الـذي في الجنـة فرجـل عـرف الحـق فقضـى بـه، ورجـل عـرف الحـق فجـار في الحكـم فـهو في النار، ورجـل قضى للناس على جـهل فـهو في النـار**"[3].

وبقيت أمور الرعية منضبطة حتى جاءت الفتنة التـي بـدأت بمقتـل الخليفـة عثمـان ابن عفان رضي الله عنه. وبعد ذلك تغـيرت الأحـوال، وأصبـح النـاس يشـعرون بشـيء مـن الظلـم والجور في الأحكام، نظراً لطبيعة الحكم الذي كان يسير أمـور الدولـة، وعـادوا مـن جديـد يسألون الخلفاء والولاة الإنصاف في كثـير مـن أمورهـم، وينشـدونهم العـدل والمسـاواة. وأصبح العدل مطلباً لكثير من المسلمين، وأصبـح الاتصـاف بـالعدل مطلبـاً ينشـده بعـض المسؤولين عن إدارة السياسة الأموية، لذلك حرصوا علـى إظـهار أنفسـهم بمظـهر الحكـام العادلين الذين يحكمون بما أنزل الله، وكـان كثـير مـن الشـعراء يسـتغلون حاجـة الحكـام

---

(١) الحجرات، الآية ٩.

(٢) مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت(٢٦١هـ/٨٧٤م)، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق محمد فـؤاد عبـد الباقي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، المجلد الرابع، ج٧، ص١٠٧.

(٣) سليمان بن الأشعث السجستاني، ت(٢٧٥هـ/٨٨٨م)، سنن أبي داود، دراسة وفهرسة: كمال يوسف الحوت، ط١، دار الجنان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج٢، ص٣٢٢.

والولاة إلى الاتصاف بهذه الصفة؛ من أجل ذلك وظف كثير من هؤلاء الشعراء هذه القيمة الدينية في شعرهم، وبالغ كثير منهم في نسبة هذه القيمة إلى بعض ممدوحيهم الذين لا تطابق سيرتهم ما ينسبه إليهم الشعراء.

وقد برزت هذه القيمة الدينية في شعر بعض الشعراء الذين كانوا يغدون إلى البلاط الأموي. فهذا عدي بن الرقاع يسجل مآثر بني أمية في العدل، فيقول في معرض مدحه الوليد بن عبد الملك:

يباس الظُّلْمُ أن يكونَ بأرضٍ ... هُمُ بهَا أو يجيءُ من حيثُ جاءوا

سُنَّةُ اللهِ والرَّسُولِ فَمَا في ... أمْرِهِمُ رِيْبَةٌ ولا لَحْجَاءُ[١]

فالأمويون حكام عادلون، بعيدون عن الظلم الذي يئس أن يحل بأرضهم؛ لأنه لا مكان له بينهم، وهذا كناية عن صفة العدل التي كان الأمويون يحبون أن يتحلوا بها. ولم يقتصر ابن الرقاع في مديحه على الخلفاء، فقد تعداهم إلى أبنائهم ومدحهم بهذه الفضيلة التي يرى أنهم ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، فيقول في مدح عمر بن الوليد بن عبد الملك متعرضا لوصف بني أمية بالعدل:

لو نَاضَلُوا الناسَ عن أحسابِهِمْ نَضَلُوا ... وإنْ قَضَوا لم يَجُوروا في الذي حَكَمُوا

في أنَّ عِنْدَهُمُ واللهِ فَضْلَهُمُ ... للحمدِ سوقٌ وللمظلومِ مُنتَقِمُ[٢]

وهنا تبرز قيمة العدل التي يطلقها الشاعر على ممدوحيه مصحوبة بالسبق في شرف النسب الذي يدافع عنه الأمويون، فهم من أعرق بيوت قريش، وهم عون للمظلوم، وهم أهل للحمد كابراً عن كابر، وهم أهل للانصاف والعدل، والبعد عن الجور في الأحكام.

وعندما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، جاءه ابن الرقاع مادحاً ومعدداً كثيراً من الفضائل الدينية التي كان يتحلى بها، ومن أبرز هذه الفضائل فضيلة العدل التي لمسها الناس حقيقة، ونعموا بها طيلة مدة خلافته، فيقول ابن الرقاع في معرض تعداده صفات الخليفة:

وخامسةٌ في الحكم أنَّكَ تنصفُ الضَّـ ... ـعيفَ وما مَن علَّمَ اللهُ كالعَمِي[٣]

---

(١) عدي بن الرقاع، ديوان عدي بن الرقاع، ص١٦٠. لحجاء: اللحج: الميل والاعوجاج.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص١٣١.

هذه صورة الخليفة عمر بن عبد العزيز، تتجلى في شعر ابن الرقاع وغيره من الشعراء، صورة الخليفة الذي أزاح الظلم عن المسلمين قولاً وفعلاً، ورد المظالم إلى أهلها، حتى وإن طال ذلك العدل أقرب الناس إليه، مما جرّ عليه كثيراً من العنت من أبناء البيت الأموي بسبب تعرضه لهم، وأخذه المظالم منهم، وردها إلى أصحابها.

وتظهر فضيلة العدل في شعر الأحوص الانصاري الذي مدح به الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك، حين يقول:

مَنْ يكُنْ سائلاً فإنَّ يزيداً ... مَلِكٌ مِنْ عَطَائِه الإكْثَارُ
عَمَّ معروفُه فعزَّ به الدّ ... ينُ، وذَلَّتْ لملكِه الكُفَّارُ
وأقامَ الصِّرَاطَ فابْتَهَجَ الحـ ... ـقُّ منيراً كَمَا أنارَ النَهَارُ[1]

ويمكن للقارئ أن يستنتج أن الشاعر قد ألمح إلى حاجته، وهي طلب النائل من الخليفة الكثير العطاء، وكان هذا الطلب قبل المديح، كما يشير الأحوص إلى أن ممدوحه قد عم معروفه جميع أفراد رعيته، وبذلك عزّ به جانب الدين، وارتاح الناس، وانقاد الكفار لأمره طائعين، ثم بعد ذلك يأتي الشاعر إلى صفة العدل التي يضفيها على ممدوحه، فهو الذي أقام ميزان العدل، فابتهج الناس بإحقاق الحق ودفع الظلم، وفي هذه الأبيات يبدو الخليفة وقد اكتسب مسحة دينية جعلته أهلاً لأن يكون خليفة لهذه الأمة بحق.

غير أنّ قيمة العدل تبرز بوضوح في مديح كثيّر عزة للخليفة عمر بن عبدالعزيز الذي أخلص له كثيّر في مديحه وكأنه من آل البيت، لما يتمتع به هذا الخليفة من صفات دينية أقرّ له بها الموافقون والمخالفون، يقول كثيّر:

وَلِيْتَ فلمْ تَشْتُمْ علياً ولمْ تُخِفْ ... بَرِيّاً ولم تَقْبَلْ إشَارَةَ مُجْرِمِ
وأظهرتَ نورَ الحقِّ فاشتدّ نورُهُ ... على كلِّ لَبْسٍ بارقِ الحقِّ مُظْلِمِ
وعاقَبْتَ فيما قد تقدمتَ قَبْلَه ... وأعرضْتَ عَمّا كانَ قبلَ التَّقَدُّمِ
وَصَدَّقْتَ بالفعلِ المقالَ مع الذي ... آتيتَ، فامسى راضياً كلُّ مُسلِمِ
تَكَلَّمْتَ بالحقِّ المبينِ وإنَّما ... تَبينُ آياتُ الهدى بالتَّكَلُّمِ[2]

---

(١) الأحوص الأنصاري، شعر الأحوص الأنصاري، ص١٥٢.

(٢) كثيّر عزة، ديوان كثيّر عزة، ص٣٣٤.

ولعل الشعراء الذين مدحوا الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يوفوه حقه من المديح، بل كانت تبدو صورته في مديحهم كصورة كثير من خلفاء بني أمية الذين مُدحوا بهذه الصفات التي مُدح بها هذا الخليفة، على الرغم من الفارق الكبير في مدى مطابقة الصورة للواقع الذي كان يعيشه كلا الطرفين. فأفعال الخليفة عمر بن عبد العزيز هي التي أطلقت لسان الشاعر كثيّر بهذا المديح، فالشاعر يبدي رضاه بما فعله الخليفة الذي ألغى عادة شتم علي بن أبي طالب على المنابر، والتي جعلها معاوية سنة يسير عليها كل من يرغب في الولاء للحزب الأموي، ويبدو أن الشاعر كان يرى نفسه محقاً في نسبة هذه الفضائل الدينية لهذا الإمام العادل، الذي أظهر نور الحق، وبدد أستار الظلام، بما أقامه من عدل صدع به علانية لا يخشى فيه لومة لائم. فهو الذي أخذ على أيد المجرمين، وأصبح البريء آمناً لا يخاف ظلماً من أحدٍ، وكان عمر يقول القول فيتبعه بالفعل. ولم ينسَ الشاعر بعض الصفات الملازمة للعدل، كالعفو عما سلف، وعدم التجاوز عن المسيء الذي يقترف ذنبه بعد إنذار الخليفة له.

ثم يواصل كثيّر عزة إبرازه قيمة العدل عند عمر بن عبد العزيز فيقول:

فما بينَ شرقِ الأرضِ والغربِ كلِّها ... منادٍ ينادي من فَصيحٍ وأعجَمِ
يقولُ أميرَ المؤمنينَ ظلمتني ... بأخذٍ لدينارٍ، ولا أخذِ درْهَمِ
ولا بسطِ كفٍّ لامرئ غيرِ مجرِمٍ ... ولا السَّفْكِ منهُ ظالماً مِلءَ مِحْجَمِ[1]

وهنا تنفجر عاطفة الإعجاب بالخليفة الذي أذهل الكثيرين بعدله، والدنيا كلها تشهد له بهذا العدل الذي عمَّ جميع أرجاء ملكه شرقاً وغرباً، وعم جميع أبناء الرعية عربهم وعجمهم، وقد صور الشاعر ذلك بصورة موحية ومعبرة، حين نفى أن يكون هناك أحد يشكو ظلم الخليفة في مشارق الأرض ومغاربها، ولا أحد ينادي بالمطالبة بحق ضائع له، ولا يوجد بريء يشكو من معاقبته بغير حق. ولم يكن كثيّر عزة مبالغاً في أقواله هذه، بل كانت تطابق سيرة الخليفة الذي يأمنه البريء ويخافه المسيء.

وعند النظر في مديح الفرزدق لبني أمية، يمكن القول؛ إن فضيلة العدل كانت بارزة كغيرها من الفضائل الدينية التي مدح بها الفرزدق الأمويين. كقوله في سليمان ابن عبد الملك:

ألستَ ابنَ الأئمّةِ من قريشٍ ... وحَسْبُكَ فارسُ الغبراءِ خَالا

---

(١) كثيّر عزة، ديوان كثيّر عزة، ص٣٣٦.

إمـــامٌ منهُـــمُ للنـاسِ فيهـــمْ أقمـتَ المَيْـلَ فاعتـدَلَ اعْتِـدَالاَ
عَمِلْـتَ بسنَّـــةِ الـفـاروقِ فيهـمْ ومِنْ عثمـانَ كُنْـتَ لها مِثَـالاَ[١]

ويظهر الممدوح في هذه اللوحة الشـعرية عريـق النسـب، ويكفيـه فخـراً أن قيـس ابن زهير الملقب بفارس الغبراء خاله، كما تبدو صفة العـدل فـي شـخص الخليفـة سـليمان الذي أقام العدل بين أبناء رعيته، وقوَّم ما اعـوج بسـبب الظلـم، ومـا ذاك إلا لأنـه سـار على سنة الخلفاء الراشدين أمثال عمر بن الخطاب وعثمـان بـن عفـان. ويمكـن القـول؛ إن الفرزدق كان يقدم المديح بالنسب على الفضائل الدينية كثيراً فـي مديحـه لبنـي أميـة، ويـدل ذلك على أنّ العصبيات القبلية كان لها وجودها القوي فـي العصـر الأمـوي، ولـها تأثيرهـا القوي على مجريات السياسة فـي ذلـك العصـر. والتركـيز علـى نسـب الممـدوح صفـة ملازمة للفضائل الدينية في شعر الفرزدق الذي يمدح به الأمويين، فقلمـا تجـد مدحـة مـن مدائح الفرزدق للأمويين تخلو من هذيـن المعنيين.

وقد حظي سليمان بن عبد الملك بنصيـب وافـر مـن مديـح الفـرزدق بنـي أُميـة، ويمكن القول؛ إن الفرزدق لم يتقرب إلـى خليفـة أمـوي أكـثر مـن تقربـه لسـليمان بـن عبد الملك الذي سلّ سيفه على الظلم فقتله. يقول الفرزدق فـي مـدح سـليمان:

وَقد عَلِمَ الظلـمُ الـذي سلَّ سيفُـهُ على الناسِ بالـعدوانِ أنّك قَاتِلُـهْ
وليسَ بمحيي الناسِ مَنْ ليس قاضـياً بحقٍ ولمْ يَبْسُطْ عـلى الناسِ نابِلُـهْ
جعلتَ مكانَ الجَوْرِ في الأرض مِثْلَهَ مِنَ العدلِ إذْ صارتْ إليك مَحَـاصِلُـهْ[٢]

وفي هذا المديح يظهر سليمان بن عبد الملك بمظـهر المـهدي المنتظـر الـذي يمـلأ الدنيا عدلاً بعدما ملئت جوراً، فهو الذي قتل الظلم الـذي كـان يخيّـم علـى النـاس، وأقـام عمود الدين بعد اعوجاجه، وأحيا الناس بإحيائه سنة العدل التـي كـانوا يبحثـون عنـها عنـد غيره فلا يجدونها. كما يشير الشاعر إلى كرم ممدوحه كصفـة مرادفـة للعـدل، بـل يمكـن القول إن الشاعر جعل التبرع بالنائل من العدل؛ وهذا ما أشار إليـه قدامـة بـن جعفـر حيـن جعل السماحة من أقسام العدل، وجعل التبرع بالنائل ممـا يـرادف السـماحة[٣] .

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص١٠١.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٩٠.

(٣) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص٦٨.

ولم يقتصر مدح الفرزدق بصفة العدل على سليمان فقط، بل تعداه إلى ابنه أيوب الذي يسير على نهج أبيه في الحرص على العدل، فيقول:

نَزَلْنَا بأيوبٍ، ولم نرَ مِثْلَهُ ... إذا الأرضُ بالناس اقشعرَّتْ ظهورُهَا
جعلتَ لنا للعدلِ بعدَكَ ضَامِناً ... إذا أمَّةٌ لم يعطِ عدلاً أميرُهَا
أقمتَ به الأعناقَ بعدك فانتهتْ ... إليكَ بأيدي المسلمينَ مُشِيرُهَا
فأنتَ أحقُّ الناسِ بالعدلِ والتُّقَى ... وأنْتَ ثرى الأرضِ الحَيَا وَطَهُورُها
فأصبحتما فينا كداود وابنه ... على سنةٍ يُهدى بها من يَسيرها[1]

فهذا المدح موجه لأيوب ابن الخليفة سليمان بن عبد الملك، ويبدو فيه شيء من الإشارة إلى استحقاق أيوب لولاية العهد بعد أبيه، وكأن الشاعر يدعو سليمان إلى أن يعهدَ إلى أيوب بالخلافة من بعده؛ لما فيه من الصفات التي ورثها عن أبيه؛ فهو عادل إذا جار الآخرون، وهو فوق ذلك تقي، وفي هذا التقى حياة للرعية، فهو بذلك يستحق أن يرث الخلافة عن أبيه كما ورث سليمان عليه السلام النبوة عن داود عليه السلام. ويتضح من خلال هذا المديح مدى اعتماد الخلفاء على الشعراء في ترويج الأفكار التي يريدون أن يوصلوها إلى الرعية، كما يتضح أيضاً مدى اعتماد الشعراء على القصص القرآني في بلورة كثير من المعاني الدينية التي يحاولون أن يلصقوها بممدوحيهم، كإشارة الشاعر إلى قوله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [2].

ولهشام بن عبد الملك نصيب من العدل في شعر الفرزدق، فقد مدحه بأبيات يشير فيها إلى فضيلة العدل، ومهد لذلك بانتعاش الناس بخلافة هشام الذي سار على نهج الخليفتين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، فكان شفاء للصدور من أسقام الظلم التي كانت تعاني منها الأمة، يقول:

أميرُ المؤمنين به نُعِشْنَا ... وجُدَّ حبالُ آصارِ الإثَامِ
فجاءَ بسُنَّةِ العمرين، فيهَا ... شفاءٌ للصُّدُور مِنَ السَّقَامِ
رأيتُك قد ملأتَ الأرضَ عدلاً ... وضوءاً وهي مُلْبَسَةُ الظَّلامِ

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٢٤٦، ٢٤٧.

(٢) النمل، الآية ١٦.

رأيتُ الظُّلْمَ لمّا قمتَ جُدَّتْ عُراهُ بشَفْرَتَي ذَكَرٍ هُذَامِ[١]

فالأرض ملئت عدلاً في خلافة هشام، بعد أن كان ظلام القهر والجور يخيّم عليها، وهشام هو الذي أزاح هذا الظلام، وهو الذي أقام العدل بحزمه وصفاته الدينية التي اكتسبها نتيجة اتباعه سنة الخليفتين؛ عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز اللذين ضربا أروع الأمثلة في العدل بين الرعية.

ولا يزال الفرزدق يلح في أشعاره على صفة العدل، وإبراز الممدوحين وكأنهم منار العدل الذي يُهتدى به، فيقول مادحاً هشام بن عبد الملك أيضاً:

خليفةُ أهلِ الأرضِ أصبحَ ضوؤُهُ به كان يَهدي للهدى كُلَّ مُهْتَدِ
فإنَّ أميرَ المؤمنينَ محيطةٌ يداه بأهلِ الأرْضِ مِنْ كلِّ مَرْصَدِ
فلستُ أخافُ النَّاسَ ما دمتَ سالماً ولو أجْلَبَ السَّاعي عليّ بحُسّدِي
سيابى أميرُ المؤمنين بعدلِه على الناس والسَّبْعَينِ في راحةِ اليدِ
ولا ظُلْمَ ما دامَ الخليفةُ قائماً هشامٌ، وما عن أهلِهِ مِنْ مُشرَّدِ[٢]

وفي هذا إلحاح من الفرزدق على صفة العدل، وكأنها دعوة إلى الخليفة ليكون عادلاً مع الشاعر، الذي يرى أن العدل مطلب يجب أن يتوفر لكل من يريد أن يوطد أركان ملكه من الخلفاء، ولكل من يريد أن يمتلك قلوب الرعية. فالشاعر لا يخاف الظلم مادام الخليفة مالكاً زمام الأمور وينصب ميزان العدالة لرعيته، ويحكم بما أنزل الله. وفي هذا ما يدل على أن صفة العدل هذه متأتية للخليفة نتيجة لخوفه من الله الذي يملك السماوات السبع ومن الأرض مثلهن، وهذا تلميح إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٣].

ولا يختلف جرير بن عطية عن الفرزدق في تناوله قيمة العدل في مديحه بني أمية وولاتهم؛ إذ يتضح من هذا المديح أنه يعزف على القيثارة نفسها التي عزف عليها الفرزدق، محاولاً إبراز ممدوحيه وإظهارهم خلفاء يقيمون موازين العدالة، ويخلّصون الرعية من الظلم الذي وقع عليها. فهو عندما يمدح سليمان بن عبد الملك يلبسه ثوب

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص٢٩٤. ذكر هذام: سيف قاطع.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٤٠.

(٣) الزمر، الآية ٦٧.

العدالة الإلهية بإكسابه صفة المهدي المنتظر، ويجعل حكمه مباركاً؛ لأنه أجار الناس من الظلم باتباعه لسنة رسول الله ﷺ، فأصبح ميزان العدل مستقيماً، يعم نفعه الضعيف والقوي، والفقير والغني، وهذا ما يجعل سليمان أهلاً للخلافة التي حاول الوليد أن يزحزحه عنها، إلا أن الوليد توفي قبل أن يتم هذا الأمر، وتمت البيعة لسليمان من بعد الوليد، يقول جرير مادحاً سليمان:

سليمانُ المباركُ قد عَلِمْتُمْ ... هو المهديُّ قد وضَح السَّبيلُ
أجَرْتَ مِنَ المَظالِم كلَّ نفسٍ ... وأدّيْتَ الذي عَهِدَ الرسولُ
صفتْ لك بيعةٌ بثباتِ عهدٍ ... فوزنُ العدلِ أصبَح لا يميلُ[1]

وعند مدحه عمر بن عبد العزيز تبرز قيمة العدل واضحة جلية في قوله:

إنّ الذي بَعَث النبيَّ محمداً ... جَعَلَ الخِلَافَةَ في الإمَامِ العَادِلِ
ولقد نَفَعْتَ بما مَنَعْتَ تَحَرُّجاً ... مَكْسَ العشورِ على جسورِ الساحِلِ
قد نَالَ عَدْلُكَ مَنْ أقامَ بأرضِنَا ... فإليك حاجةُ كلِّ وفدٍ راحِلِ[2]

ولا بد لجرير أن يقرّ بعدل عمر بن عبد العزيز كما أقرّ به الشعراء الذين مدحوا هذا الخليفة، فعدل عمر لا يمكن لأحد أن يتجاهله، لا من الشعراء ولا من غيرهم؛ فهو الذي أتبع القول بالفعل وطبق شرع الله، وأنصف المظلومين، ورد الأمور إلى نصابها، فانتعشت الأمة، وعم الرخاء، وأغنى الناس عن المسألة. هذا الخليفة يستحق أن يمدح بأن ولايته كانت رحمة للناس، ويستحق أن يمدح بالعدل؛ لأنه ألغى كثيراً من السنن التي استنها الأمويون لجباية الأموال من الناس. لقد كان جرير محقاً في نسبة فضيلة العدل إلى عمر، فهو أهل لها، وقد طبقها قولاً وفعلاً.

والمتتبع شعر المديح في العصر الأموي يرى أن كثيراً من الشعر الذي قيل في مدح الخليفة عمر بن عبد العزيز كان بعيداً عن التملق، وكان مصوراً لما كانت عليه أمور الدولة في عهده تصويراً واقعياً وإن كان بعض هذه الأماديح القصد منه التكسب، إلا أنها تبدو صادقة في كثير من جوانبها، لإيمان الشعراء بعدل الخليفة عمر بن عبدالعزيز.

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص٣٤٦، ٣٤٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٣١.

ولكن ربيع عمر بن عبد العزيز لم يدم طويلا، فقد اختاره الله إلى جواره، وترك الدنيا جريا للآخرة التي كان يعمل لها ليل نهار، وخلف من بعده يزيد بن عبد الملك، فعادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل عهد عمر بن عبد العزيز، وجاء جرير يبحث عن الدنيا عند الخليفة الجديد ويمدحه بما مدح به من سبقه، متخذا من الفضائل الدينية وسيلة للوصول إلى قلب الخليفة مركزا على فضيلة العدل، فيقول:

هَوَ الخليفةُ فارضَوا ما قَضَى لَكُمُ ... بالحقِّ يَصْدَعُ ما في قَولِهِ جَنَفُ
يقضي القضاءَ الذي يُشْفَي النِّفَاقُ به ... فاستبشرَ الناسُ بالحقِّ الذي عَرَفُوا
أنتَ المباركُ والميمونُ سيرَتُهُ ... لولا تُقَوِّمُ دَرْءَ الناسِ لاخْتَلَفُوا[١]

وهذا مديح لا يختلف في شكله ومضمونه عن المديح الذي مدح به سليمان بن عبد الملك، فالشاعر يصف ممدوحه بالعدل، ويطلب من الناس أن يرضوا بحكمه العادل؛ لأنه يصدع بالحق، وما في أحكامه انحراف عن تعاليم الإسلام، وهذا ما يغيظ أهل النفاق، والناس يستبشرون بهذا القضاء الذي عرفوا فيه الصدق والبعد عن الزيغ. كل هذا أدى إلى أن يكون حكم يزيد حكما مباركا وسيرته سيرة طيبة بعيدة عن النفاق. وهذا العدل هو الذي منع فساد الناس، واضطراب أمورهم، وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ [٢].

ولا ينسى الشاعر جرير أن يمدح الخليفة هشاما بما مدح به أخويه من قبل فيقول:

أميرُ المؤمنينَ قضى بعدلٍ ... أحَلَّ الحِلَّ واجْتَنَبَ الحَرَامَا
أتَمَّ اللّهُ نعمتَهُ عليكُمْ ... وزادَ اللهُ مُلْكَكُمَ تَمَامَا[٣]

فالعدل من شيم هشام بن عبد الملك مثلما كان من شيم سليمان ويزيد من قبل، فهو خليفة الله في الأرض، يقضي بين رعيته بالعدل، فيحل ما أحل الله، ويجتنب ما حرم الله، وهذه من صفات المؤمن التقي الذي يرجو الله واليوم الآخر. وقيمة العدل من القيم التي تبرز بقوة في مدح جرير الخلفاء الأمويين أصحاب العدل وأصحاب التقوى

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٣٠٨.

(٢) البقرة، الآية ٢٥١.

(٣) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٤٠٩.

الذين يتمنى جرير أن يتم الله نعمته عليهم، ويزيدهم بسطة في الملك، ويحفظهم الله بحفظه.

ولا يخفى ما في هذه المعاني من تكرار يعمد إليه الشاعر لتثبيت هذه الصفات وإرساء دعائمها في البلاط الأموي، الذي يزينها بالبذل والانفاق بسخاء على الشعراء دون حسيب أو رقيب.

وإذا مدح جرير ولاة بني أمية، فإن مدحه هؤلاء الولاة لا يختلف عن مدحه الخلفاء من بني أمية، فها هو يمدح المهاجر بن عبد الله الكلابي الذي كان أمير اليمامة والبحرين في خلافة هشام بن عبد الملك، فيضفي عليه شيئاً من الفضائل الدينية، إذ ينسب إليه صفة العدل التي استمدها هذا الوالي من أخلاق بني أمية الذين اختاروه لهذه الولاية فيقول:

لقد بعث المهاجرَ أهلُ عدلٍ ... بعهدٍ تَطْمَئِنُ به القلوبُ
تنجّبك الخليفة غير شكٍ ... فساس الأمر منتجبٌ نجيبُ
ينكّلُ بالمُهَاجِر كُلُّ عاصٍ ... ويدعى في هواك فيستجيبُ
فَحُكْمُكَ يا مهاجرُ حكمُ عدلٍ ... ولو كَرِهَ المنافقُ والمُرِيبُ
إذا مَرِضَتْ قُلُوبُهُمُ شفاهُمْ ... نِطَاسِيٌّ بدائِهِمْ طَبِيْبُ[1]

وهنا تظهر صورة هذا الوالي الذي أخلص لبني أمية في ولايته، وكان عند حسن الظن به، فقد ولاه الأمويون وهم واثقون من تقواه وواثقون من أنه سوف يعدل في ولايته بين الرعية، وها هو المهاجر يسير سيرة حسنة، فيقيم العدل، ويأخذ على أيدي العصاة وأهل الزيغ والانحراف، ويخلِّص الناس من شرور هؤلاء المنافقين وأصحاب البدع.

ويتضح مما سبق أن جريراً لم يأت بجديد في مضمون المديح فيما يتعلق بصفة العدل؛ فقد طرق من المعاني ما كان يتداوله الشعراء من قبله، فمعانيه كلها تكرارلما سبق، وهو يدور حول معانٍ بعينها، يصوغها في قوالب شكلية مختلفة، وهذا يدل على أن كثيراً من الشعراء، ومنهم جرير، كانوا يتداولون هذه المعاني الدينية، ويوظفونها توظيفاً ذكياً في مدحهم بسبب ما كانت تتميز به هذه المعاني من بريق أخّاذ يلقى

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٣٨.

رواجا في البلاط الأموي الذي يفضل خلفاؤه أن يظـــهروا بمظـــهر الأئمـــة الذيـــن يتصفـــون بالعدل، اقتداء بسنة النبـــيﷺ.

وعند استعراض شعر الشـــاعر ذي الرمـــة، يمكـــن القـــول؛ إن الشـــاعر قـــد طـــرق أبواب الخلفاء الأمويين وولاتهم مستجديا كما استجدى غـــيره مـــن الشـــعراء، مشـــيدا بمـــآثر الأمويين، وموظفا بعض الفضائل الدينية فـــي مـــدح هـــؤلاء الخلفـــاء والـــولاة، إلا أن هـــذه الفضائل الدينية تبدو ضئيلة عند ذي الرمة إذا ما قورنـــت بمثيلتـــها عنـــد الفـــرزدق وجريـــر والنابغة الشيباني، ولعل السبب يكمـــن فـــي أن ذا الرمـــة كـــان شـــاعرا بدويـــا يولـــي جـــل اهتمامه لوصف الصحراء؛ فعند مدحه الملازم بـــن حريـــث الحنفـــي تبـــدو بعـــض مظـــاهر هذه الفضائل الدينية، وخـــاصة صفة العدل، يقول فـــي مـــدح المـــلازم:

أعَـاذِلُ إنْ بنـهـضْ رَجَـائِي بـصدرِهِ ... إلى ابـنِ حُرَيْثٍ ذي النّدى والمكـارِمِ
فَرُبَّ امرئٍ تنـزو من الخـوف نَفْسُهُ ... جَـلَا الـغَـمَّ عنه ضـوءُ وجـهِ المُـلازِمِ
يـوالـي إذا اصْـطَـكَّ الخـصومُ أمامَهُ ... وجـوهَ القـضـايـا مِن وجـوهِ المَظالِمِ
صَـدُوعٌ بحـكـمِ اللّـهِ في كلِّ شُـبْـهَـةٍ ... تـرى الـنـاسَ في ألْبَاسِـهـا كالبَـهَـائِـمِ[1]

فبعد الإشارة إلى كرم الملازم ونداه، يشـير الشـاعر إلـى عـدل المـلازم وإنصافـه الناس فيما يُعرض عليه من قضايا، فيصدع بالحق الـــذي يلتبـــس علـــى كثـــير مـــن النـــاس، فيعجزون عن التفريق بين الحلال والحرام. وهو فـــوق ذلـــك عصمـــة للمظلـــوم الـــذي يلجـــأ إليه فيجلو عنه الغم والهم بعدلـــه.

وقد حذا الشاعر النابغة الشيباني حذو من سبقه من الشعراء فـــي مدحـــه بنـــي أميـــة، متخذاً من المعاني الدينية مادة لمديحـــه، وموظفـــاً فضيلـــة العـــدل فـــي مدحـــه عبـــد الملـــك ابـن مـروان، فيقـول:

داودُ عـــدلٌ فاحـكُـــمْ بسنّتِـــهِ ... وآلُ مـروانَ كـانوا الله قد نَصحَـوا
فـهُـمْ خـيارٌ فاعـملْ بسنّتِـهِـــمْ ... واحـيَ بخـيرٍ واكْـدَحْ كَمَـا كَدَحُـوا[2]

فهذا مديح موجه لواحدٍ من أبرز الخلفـــاء الأمويـــن دهـــاءً وحنكـــة سياســـية، وفـــي هذا اعتراف من الشاعر بعدل هذا الخليفة؛ لأنه يسير على نـــهج داود عليه السلام فـــي العـــدل بيـــن

---

(١) ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، ج٢، ص٧٦٩، ٧٧٠. يوالي: يتابع ويعزل ذا من ذا ، ألباسها: أخلاطـــها ومـــا ألبس منها.

(٢) النابغة الشـــيباني، ديوان النابغة الشيباني، ص٤٩.

الرعية، وقد عمد الشاعر إلى القصص القرآني من أجل اثبات صفة العدل لممدوحه، وفي هذا إشارة إلى ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داوود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ﴾(١).

ولا يقتصر الشاعر على تشبيه ممدوحه بداود عليه السلام، بل تعداه إلى دعوة الخليفة إلى أن ينهج نهج الخلفاء الذين سبقوه في العدل بين الرعية، ويعمل بسنتهم وهنا يلمح الشاعر إلى مكانة الأمويين في الجاهلية وفي الإسلام، وهذه المكانة ما كانوا ليصلوا إليها لولا الجد والكفاح والمثابرة.

وعند مدحه يزيد بن عبد الملك يركز النابغة على صفة العدل فيقول:

عادلٌ مقسطٌ وميزانُ حقٍّ ... لم يَحِفْ في قَضائِه للمُوالي

موفياً بالعهودِ مِنَ خَشْيَةِ اللـ ... ـه مَن يَعْفُهُ يكنْ غيرَ قالِ(٢)

فصفة العدل مازالت تلازم الشاعر في مديحه بني أمية، فهو يصف يزيد بالعدل كما وصف به أباه من قبل، فهو عادل قد تجاوز حدود العدل إلى القسط، كما أنه لا يفرق في قضائه بين العرب والموالي، فكلٌّ يأخذ حقه دون انتقاص، وهو فوق ذلك موفٍ بالعهود التي يقطعها على نفسه، نزولاً عند أمر الله سبحانه وتعالى. وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾(٣).

ويمدح النابغة الشيباني عبد العزيز بن الوليد بما مدح به من سبقه من أبناء البيت الأموي قائلاً:

وهُوَ الثالثُ الخليفةُ للـ ... ـهِ إمامٌ للمؤمنينَ أميرُ

إن أرادوا التُّقى فَعَدْلٌ تقيٌّ ... أو أرادوا عَدْلاً فليسَ يجُورُ(٤)

فالشاعر يصف ممدوحه بالعدل، فضلاً عن التقوى التي يستمد منها الممدوح عدله، ثم هو أمير يأتم الناس به؛ لأنه ابنٌ الخليفة، وقد اكتسب هذه الصفات الحميدة من

---

(١) ص، الآيتان ٢١، ٢٢.

(٢) النابغة الشيباني، ديوان النابغة الشيباني، ص١٤٥.

(٣) الإسراء، الآية ٣٤.

(٤) النابغة الشيباني، ديوان النابغة الشيباني، ص٧٧:

سيرة والده. وكغيره من الشعراء لم يأت النابغة بجديد، فهو يكرر المعاني التي وردت في شعر المديح الأموي بشكل عام، وخاصة ما يتعلق بالفضائل الدينية.

ولم يقتصر المديح بصفة العدل على الشعراء العرب، بل تجاوزه إلى الشعراء الموالي، فهذا الشاعر إسماعيل بن يسار الذي كان يميل إلى الزبيريين يتملق بني أمية، فيمدحهم بما يظن أنه يوافق هواهم، ويجلب له المنفعة المادية، فيقول مادحاً الغمر بن عبد الملك ويذكر آباءه المروانيين:

وخَمسةُ آباءٍ لـه قـد تَتَابَعُـوا ... خَلائِفُ عدلٍ مُلْكُهُمْ مُتَواتِرُ
هُمُ خيرُ مَنْ بينِ الحُجُونِ إلى الصَّفا ... إذا اسْتَبَقَتْ في المَكْرُمَاتِ المَعَاشِرُ
وَهُمْ جَمَعُوا هذا الأنامَ على الهدى ... وقَدْ فَرَّقَتْ بينَ الأنامِ البَصَائِرُ[1]

فآباء الممدوح خلفاء عدل، توارثوا الخلافة، وتوارثوا الصفات الحميدة أباً عن جدٍ، فهم خير قريش إذا عدت المكارم والفعال الأفضل، وهم قدوة الناس، يهدونهم بأخلاقهم وبما يتحلون به من فضائل دينية أهلتهم لقيادة هذه الأمة.

وقد تعدى المدح بفضيلة العدل الشعراء المشهورين إلى شعراء مغمورين، مارسوا الصعلكة وقطع الطرق، وعندما ضاقت بهم السبل توجهوا إلى الخلفاء طالبين العفو والصفح، مادحين بصفات كالعدل، مبينين صفاتهم الكريمة، كقول الخطيم المحرزي[2] الذي كان من لصوص العرب وشعرائهم يمدح سليمان بن عبد الملك:

سَنَنْتَ لأهلِ الأرضِ في العدلِ سُنَّةً ... فَغَارَ بَلاءُ الصِّدْقِ مِنْكَ وأنْجَدَا
وأنْتَ المُصَفَّى كُلَّ أمْرِكَ طَيِّبٌ ... وأنتَ ابنُ خيرِ الناسِ إلا مُحَمَّدَا[3]

فالشاعر يرفع منزلة الخليفة إلى منزلة دون النبي ﷺ بقليل، إذ جعله المصفى من بين كل الناس، وجعل جميع أمره طيباً، وكل ذلك بسبب اتصافه بالعدل الذي أكسبه صدقاً مع أبناء رعيته.

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الثاني، ص٥٤٨.

(٢) الخطيم المحرزي: هو الخطيم بن نويرة العبشمي المحرزي العُكْلي، من لصوص العرب، كان من أهل الدهناء، ت(١٠٠ هـ) تقريباً. (الزركلي، الأعلام، المجلد الثاني، ص٣٠٨)

(٣) نوري حمودي القيسي، شعراء أمويون، القسم الأول، بغداد، ١٩٨٦، ص٢٢٦.

المبحث الثالث

محاربة الفتن والفساد

دأب رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده على التحلي بهذه الصفة الحميدة المتمثلة في محاربة الفساد، لا يخشون في الله لومة لائم، فضربوا على أيدي العصاة المفسدين في الأرض، وضربوا أروع الأمثلة على التفاني في سبيل أن يكون المجتمع الإسلامي خالياً من الفساد، تسوده الطمأنينة، وينعم بالأمن والاستقرار .

ونظراً لتوسع الدولة الإسلامية وكثرة الفتن والثورات، فقد خفّ سلطانها على كثير من ولاياتها؛ مما دفع الكثيرين إلى التحلل من قيود الشريعة والتمرد على سلطانها، فكثر الفساد واضطرب الأمن، وهذا ما حصل في العصر الأُموي، عصر الحروب الأهلية المريرة، التي أضعفت سلطان الدولة وأفقدتها كثيراً من هيبتها داخلياً وخارجياً. كل هذا أدى إلى أن يُنظر إلى من يحارب البدع والفساد نظرة إجلال وإكبار في المجتمعات الإسلامية. وكان الأقدر على التحلي بهذه الصفة ولاة الأمر والمتحكمون في أُمور الرعية، فقد كانوا يحاولون رأب الصدع في هذا الجانب المهم من جوانب الحياة في الدولة الأُموية.

وقد سجل الشعراء في العصر الأموي بعض هذه المواقف، ومدحوا من قام بها، كقول عبد الله بن الزبير الأسدي في مدح بشر بن مروان:

أقولُ أميرَ المؤمنينَ عَصَمْتَنَا ... ببشرٍ منَ الدهرِ الكثيرِ الزّلازِلِ

وأطفأتَ عنا نَارَ كُلِّ منافقٍ ... بأبيضَ بَهْلولٍ طَويلِ الحمائِلِ

أقامَ لنا الدينَ القويمَ بحِلْمِهِ ... ورأيٍ لهُ فَضْلٌ على كُلِّ قائِلِ[1]

ويبدو أن بشراً كان عصمة للرعية من ويلات الدهر ومصائبه، فهو الذي أقام الدين، وذلك بمحاربة المنافقين والمفسدين في الأرض، وما كان ذلك ليتم لولا بشرٌ السيد الجامع لخلال الخير، الحليم، نقي العرض، وصاحب الرأي السديد، وهذا يعني أن من يتصدى لمحاربة الفساد يجب أن يتحلى بكثير من الفضائل الإسلامية التي تعينه

---

(١) عبد الله بن الزبير الأسدي، شعر عبد الله بن الزبير الأسدي، ص١١١، ١١٢. الأبيض: نقي العرض من الدنس، البهلول: السيد الجامع لكل خير، الحمائل، مفردها حمالة: وهي علاقة السيف.

على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويمضي عبد الله بن الزبير الأسدي في مدحة بشرٍ بهذه الفضيلة قائلاً:

لبشرِ بنِ مروانَ على الناس نعمةٌ ... تروحُ وتغدو لا يُطَاقُ ثَوابُهَا
به أمّنَ اللهُ النفوسَ منَ الردى ... وكانَ بحالٍ لا يَقَرُّ ذُبَابُهَا
دفعتَ ذوي الأضغانِ يا بشرُ عنوةً ... بسيفكَ حتى ذلَّ منها صِعَابُهَا
وكنتَ لنا كهفاً وحصناً ومَعْقِلاً ... إذا الفتنةُ الصَّمَّاءُ طارت عُقَابُهَا
وَطَّدْتَ لنا دينَ النبيِّ محمدٍ ... بحلمكَ إذ هرّتْ سِفَاهاً كِلاَبُهَا[١]

فالشاعر هنا يعد محاربة الفساد والقضاء على الفتنة نعمة تفضّل بها بشر على الناس، فهو الذي أمّن النفوس، وأنقذها من براثن الخوف، وكانت قبله فزعة مضطربة، لا يقر لها قرار، وهو الذي دفع بسيفه وبسطوته أصحاب الزيغ والضلال، فكان للناس حصناً منيعاً يلجأون إليه عند اشتداد الفتنة، وعند احتدام الأمور التي يصعب علاجها عند غير بشر بن مروان. وفي هذه الأبيات إشارة إلى معاناة الناس من هذا الفساد وهذه البدع والفتن، مما كان يضطر كثيراً من الولاة إلى أخذ المجرمين بالشدة حتى يتسنى للناس أن يعيشوا حياتهم في أمن وطمأنينة.

وفي بشر بن مروان يقول أيمن بن خريم، وقد ذهب مغاضباً من عند عبد العزيز بن مروان:

ركبتُ مِن المُقَطَّمِ في جُمادى ... إلى بشرِ بنِ مروانَ البريدَا
ولو أعطاك بشرٌ ألفَ ألفٍ ... رأى حقاً عليك أن يَزِيْدَا
أميرَ المؤمنين أَقِمْ ببشرٍ ... عَمُودَ الدينِ، إنّ له عَمُودَا
ودعْ بشراً يقوّمْهُمْ ويُحْدِثْ ... لأهلِ الزَّيْغِ إسلاماً جَديدَا[٢]

فالشاعر ذهب إلى بشر بن مروان بعد الجفوة التي حصلت بينه وبين عبد العزيز بن مروان، لعلّة يلقى عنده ما كان يلقى عند عبد العزيز؛ لذلك ينوه الشاعر ببشر، ويطرح عليه من الأوصاف الدينية التي تجعله أهلاً لأن يحارب أهل الزيغ

---

(١) عبد الله بن الزبير الأسدي، شعر عبد الله بن الزبير الأسدي، ص٦٢، ٦٣. ذبابها: الشر أو الجنون، الصماء: التي لا سبيل إلى تسكينها.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد العاشر، ص٤٢٥.

والبدع الذين انحرفوا عن الإسلام، ويحث أمير المؤمنين على أن يقيم عمود الدين ببشر، ويعيد الأمور إلى مجاريها بسيفه. وعلى عادة كثير من الشعراء الذين يمدحون بني أمية، فإن أيمن بن خريم يمهد لهذا المديح بالإشادة بكرم بشر بن مروان، أملا في الوصول إلى غايته المتمثلة في الكسب المادي الذي تعود علية عند الأمويين. وأيمن بن خريم كغيره من الشعراء الذين يميلون إلى العلويين، يحاول التملق لبني أمية بوصفهم بهذه الأوصاف الدينية الباهتة ألوانها مقارنة بمديحه العلويين، الذين يضفي عليهم كثيرا من الفضائل الدينية والمعاني النفسية التي يرى أنها تليق بهم، وهو يفعل ذلك مع العلويين ليس طمعا في كسب مادي، بل تعصبا لهم وإيمانا بصدق المبدأ الذي يسيرون عليه.

وفي مدحها الحجاج بن يوسف تتناول ليلى الأخيلية المعاني الدينية المتمثلة في محاربة المفسدين والمبتدعين، فهي تنسب إليه القوة والسطوة المقرونة بتوفيق الله له فتقول:

أَحَجَّاجُ إنّ الله أعطاك غايةً ... يَقْصُرُ عَنْهَا مَنْ أرادَ مَدَاهَا
أحَجَّاجُ لا يَفْلُلْ سِلاحُكَ إنَّما الـ ... ـمنايا بِكَفِّ اللهِ حيثُ تَرَاهَا
إذا هَبَطَ الحَجَّاجُ أرضاً مريضةً ... تَتَبَّع أقْصَى دائِهَا فَشَفَاهَا
شَفَاهَا من الدَّاءِ العُضَالِ الذي بِهَا ... غلامٌ إذا هَزَّ القَنَاةَ سَقَاهَا
سَقَاهَا دِمَاء المارقينَ وعلَّهَا ... إذا جُمِعَتْ يوماً وخِيفَ أذَاهَا
أحَجَّاجُ لا تعطِ العُصاةَ مُنَاهُمُ ... ولا اللهُ يُعْطِي للعصاةِ مُنَاهَا[1]

وما هذا المرض الذي تعنيه الشاعرة في أبياتها إلا الفساد الذي كان يعاني منه العراق وأهله، ولكن الحجاج استطاع أن يشفي العراق من هذا الداء الذي استشرى بسبب الفتن وضعف الولاة، وفي هذا دعوة للحجاج إلى أن يستمر في نهجه الذي يسير عليه في معاملة المارقين من الدين، ولا يترك لهم فرصة لتحقيق أمنياتهم بزعزعة استقرار الأمة، وهنا تبدو صورة الحجاج الحريص على دين الله، المحارب للفساد، المتفاني في خدمة الخلافة الأموية.

---

(١) ليلى الأخيلية، ت(٨٠هـ/٦٩٩م)، ديوان ليلى الأخيلية، عني بجمعه وتحقيقه: خليل ابراهيم العطية وجليل العطية، دار الجمهورية، بغداد، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص١٢٠، ١٢٢. علها: سقاها الشربة الثانية.

وهذا أعشى همدان[١] يلقي بـه حظـه العـاثر بيـن يـدي الحجـاج، فيقـول شـعراً مستعطفاً إياه وطالباً منه العفو، ممهداً لذلـك بـالمديح:

أبـى اللهُ إلّا أنْ يتمّـمَ نـورَهُ ... ويطفئَ نارَ الفاسقينَ فتَخْمُدَا
وَينْزِلُ ذلاً بالعـراقِ وأهـلِـه ... لمَّا نَقَضُوا العهدَ الوثيقَ المُؤَكَّداَ
ومـا زاحَفَ الحَجَّـاجُ إلا رأيتَـهُ ... حُساماً مُلقّى للحروبِ مُعَوَّدا
فكيفَ رأيتَ اللهَ فـرّقَ جَمْعَهُـمْ ... وَمَزَّقَـهُمْ عُرْضَ البلادِ وشَـرَّدَا
بما نَكَثُوا من بيعـةٍ بعـد بيعـةٍ ... إذا ضَمِنُوها اليومَ خاسُوا بها غَدَا
وما أَحْدَثُوا من بـدعـةٍ وعظيمـةٍ ... مِنَ القولِ لم تَصْعَد إلى اللهِ مَصْعَدا[٢]

وهنا تبدو صورة الحجاج ناصعة جلية،فـهو مؤيـد بنصـر الله،مجـرب فـي أمـور الحرب،قد أخمد الله به نار الفاسقين، وأتم الله به نوره، فهو الـذي وطـد الحكـم فـي العـراق بعد أن نكث أهل العراق بعهودهم ومواثيقهم، وهو الذي قضـى علـى البـدع والفتـن. هكـذا انقلب الشاعر فجأة من مبغضٍ للحجاج إلى مداح له؛ فقد كـانت أشـعار أعشـى همـذان فـي مجملها تدعو إلى الثورة على الحجاج وإراحة الناس منه، إذ كان الشـاعر تحـت رايـة ابـن الأشعث يحث الناس على قتال الحجـاج والنيـل منـه. ولكـن كيـف بشـاعر يـرى النطـع والسيف ماثلين أمام ناظريه !؟؛ فهو يحاول أن ينجو من ربقـة المـوت بـهذه الأبيـات التـي لا تطابق واقع الحجاج من وجهة نظر الشاعر. غـير أن هـذا الاسـتعطاف؛ وهـذا المديـح لم يغن عنه شيئاً مع دهاء الحجاج وجبروته، فقد أمـر الحرسـي أن يضـرب عنقـه[٣].

ويقول الراعي النميري مادحاً عبدالملك بن مروان مشيراً إلـى اسـتتاب الأمـن فـي عـهده:

واللهِ أخْـرَجَ من عَمْيَاءَ مُظلِمَـةٍ ... بحـزمِ أمـرِك والآفـاقُ تَجْتَلِـذُ

---

(١) أعـشـى هـمـدان: هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث الهـمذاني، شاعر اليمانيين بالكوفة، يعـد من شعراء الدولة الأموية انحاز إلى ثورة عبد الرحمن بن الأشعث،وجيء به أسيراً إلـى الحجـاج فقتلـه (ت٨٣هـ/٧٠٢م).(أبو الفرج الأصفهاني،الأغـاني،المجلـد الثـالث،ص٣١٣.والزركلـي،الأعـلام،المجلـد الثالث،ص٣١٢)

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الثالث، ص٣٣٢. خاسوا: غدروا ونكثوا.

(٣) المصدر نفسه، المجلد الثالث، ص٣٣٣.

فأصبح اليومَ في دارٍ مباركةٍ عند المليكِ شِهاباً ضوؤُهُ يَقِدُ[١]

فالراعي النميري يشير ههنا إلى الحزم الذي كان يتصف به الخليفة في أخذه المجرمين والمفسدين في الأرض بالشدة، وهذا أدى إلى توطيد أركان دولته، فأصبحت دولة عدل وسلمٍ وآمان. ويظهر من هذا محاولة الشعراء إظهار هذا الممدوح أو ذاك بمظهر الحريص على أن يكون ملكه ملكاً خالياً من الفساد ومن البدع؛ لما في ذلك من استقرار ودوام للملك؛ من أجل ذلك حرص الخلفاء والولاة على توفير الأمن والطمأنينة لأبناء رعيتهم، حتى لا يكون الفساد مغمزاً في حكمهم ومدعاة للثورة عليهم. كما أن انعدام الأمن وتفشي الفساد يدلان على ضعف الخليفة أو الوالي، ويعدان إنذاراً بأفول نجم هذا الحكم وزواله.

ويتواصل مدح الشعراء ممدوحيهم بهذه الفضيلة، فيقول عدي بن الرقاع العاملي مادحا الوليد بن عبد الملك:

وَعَمَرْتَ أرضَ المسلمين فأقبلتْ وَنَفَيْتَ عنها مَنْ يُريدُ فَسَادَهَا
وأصبْتَ في أرضِ العدوِّ مُصِيْبَةً بلغت أَقَاصِي غَورِهَا ونِجَادَهَا[٢]

فالخليفة عمر الأرض بما حققه من الأمن والطمأنينة للرعية، فهو الذي نفى المفسدين من الأرض، وهو الذي وصلت جيوشه أقاصي أرض العدو لنشر الإسلام وإعلاء كلمة الله.

ويقول ابن الرقاع مادحا عمر بن عبد العزيز في معرض تعداده صفات هذا الخليفة:

وثالثةٌ أنْ ليسَ فيك هوادةٌ لِمَنْ رامَ ظلماً أو سَعَى سعيَ مُجْرِمِ[٣]

فمحاربة الفساد ودفع الظلم من شيم عمر بن عبد العزيز الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يتهاون في الأخذ على أيدي الفاسدين، وقد كان هذا الأمر يتجلى

---

(١) الراعي النميري، ديوان الراعي النميري، ص٦٣.

(٢) عدي بن الرقاع، ديوان عدي الرقاع، ص٩١.

(٣) المصدر نفسه، ص١٣٠.

بوضوح في سيرة هذا الخليفة الذي رد المظالم إلى أهلها، وأول ما بدأ به رَدُّ المظالم التي اغتصبها بنو أُمية أنفسهم.

ويشارك الفرزدق في هذا الموضوع مادحاً عبدَ الملك بن مروان بإعادته الأمن إلى العراق بعد الخراب والدمار الذي حل به جراء الفتنة وجراء الحروب، فيقول:

أمّا العراقُ فقد أعطتْكَ طاعتَهَا ... وعَادَ يعْمُرُ مِنْها كُلُّ تَخْرِيبِ
أرضٌ رميتَ إليها وهي فاسدةٌ ... بصارمٍ من سيوفِ اللهِ مَشْبُوبِ
لا يُغْمِدُ السيفَ إلا ما يجرِّدُه ... على قَفَا مُجرِمٍ بالسوقِ مَصْلُوبِ
فالأرضُ للهِ ولاَّهَا خليفَتَهُ ... وصاحبُ اللهِ فيها غيرُ مَغْلوبِ
بعد الفسادِ الذي قد كانَ قامَ بِهِ ... كذّابُ مَكَّةَ من مكرٍ وَتَخْريبِ
والناسُ في فتنةٍ عَمْيَاءَ قد تَرَكَتْ ... أشرافَهُمْ بينَ مَقْتُولٍ ومَحْرُوبِ[1]

وهذا تصوير لما أحدثته الفتنة التي نتج عنها ويلات كثيرة، من انعدام الأمن وكثرة الفساد، واستمر هذا الأمر حتى جاء عبد الملك بن مروان الذي رمى العراق بالحجاج بن يوسف، الذي يصفه الشاعر بأنه سيف من سيوف الله، وبأنه يتحلى بالحزم والشدة، وليس أدل على ذلك من صلبه للمجرمين أمام الناس في الأسواق. ويعزو الفرزدق سبب الفساد في العراق إلى ما أحدثه ابن الزبير من فتن وما جره على الناس من بدع، ولكن الله أنقذ الناس بعبد الملك بن مروان وبشرطيه الحجاج بن يوسف.

ويتجرأ الفرزدق ويصف ابن الزبير بالكذب والمكر، على الرغم من أن سيرة ابن الزبير تتنافى مع ادعاءات الفرزدق هذه، ولكن الشاعر ينافق بني أمية نفاقا كبيراً، ألجأه إليه التكسب والمنافع الدنيوية.

وثمة أمور أخرى مدح بها الفرزدقُ الحجاج بن يوسف، وهذه الأمور تتعلق بنوع من الفساد استشرى في الدولة الأموية، وخاصة بين موظفي الدولة بسبب ضعف الولاة وعدم قدرتهم على متابعة أمور دولتهم، يقول الفرزدق مادحاً الحجاج بالأخذ على أيدي المرتشين:

وكنّا بأرضٍ يا ابنَ يوسفَ لم يكنْ ... يبالي بها ما يَرْتَشِي كلُ عامِلِ

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٢٤. كذاب مكة: يقصد عبد الله بن الزبير.

يرونَ إذا الخصمانِ جاءا إليهِمُ أَحَقُّهُمَا بالحقِّ أهلُ الجَعَائِلِ
وما تُبتَغَى الحاجاتُ عندك بالرُّشى ولا تُقْتَضَى إلّا بما في الرّسائِلِ[١]

وليس شيء أبلغ من هذا الوصف في تصوير هذا الداء الذي أصاب عمال الدولة الأموية، وما هذه الأبيات إلا تصوير لمظهر من مظاهر الحياة في العصر الأموي. وقيمة هذه الأبيات تكمن في أنها تمثل الواقع الذي كان يعيشه الشاعر في ظل الظروف السياسية التي كانت سائدة في عصره. وإذا كانت هذه الأبيات تبرز الحجاج مدافعاً عن الإسلام، محارباً للمفسدين في الأرض، إلا أنها تعد دليلا على الحالة التي وصل إليها الناس بسبب التصرف غير المسؤول من كثير من عمال الدولة الأموية.

وتبدو صورة الحجاج في مديح جرير بن عطية أكثر وضوحاً منها في مديح الفرزدق، خاصة فيما يتعلق بمحاربته للفساد وقضائه على الرشوة، يقول جرير مادحاً الحجاج:

إنّ ابنَ يوسفَ فاعْلَمُوا وتيقنوا ماضي البصيرةِ واضحُ المِنْهَاجِ
ماضٍ على الغَمَراتِ يُمضي هَمَّهُ والليلُ مُختلفُ الطّرائقِ داجِي
مَنَعَ الرُّشا وأرائكُمْ سُبُلَ الهدى واللصُّ نَكَّلَه عن الإدلاجِ
فاسْتَوسِقُوا وتَبَيَّنُوا سُبُل الهدى وَدَعوا النَّجِيَّ فليسَ حينَ تَنَاجِي
يا رُبَّ ناكثِ بيعتينِ تركتَهُ وخِضَابُ لحيتِهِ دَمُ الأوداجِ[٢]

هذا هو الحجاج بن يوسف الحريص على ولايته، يدفع عنها غوائل الفساد بمنعه الرشا وبتنكيله باللصوص الذين يتغافلون الناس، ويسرقون ممتلاكتهم. وصفات الحجاج هذه تبدو صفات حميدة ينبغي أن يتحلى بها كل حاكم يريد لرعيته الأمن والطمأنينة. وهذه صورة جميلة يرسمها جرير للحجاج، لا يلبث أن يشوهها بمدح الحجاج بما فعله بسعيد بن جبير الذي قتله الحجاج إرضاء لبني أمية؛ لأنه رفض الظلم الذي قبله غيره من الناس. وفي هذا دليل على أن أكثر الشعراء كانوا يميلون حيث مالت رياح الممدوح، غير مبالين بمصداقية مديحهم من عدمها.

---

(١)الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص١٣٧. ضجاج: باطل.

(٢) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص ٧٤.

وهذه صورة أُخرى من صور الحجاج يعرضها جرير في القصيدة نفسها، يقول فيها:

مَن سدّ مُطّلَعَ النّفَاقِ عليهمُ ... أم مَنْ يصولُ كصولةِ الحَجّاجِ
أم مَن يَغارُ على النساء حفيظةً ... إذْ لا يَثِقْنَ بِغَيْرَةِ الأزواجِ
وإذا رأيتَ منافقينَ تَخَيَّرُوا ... سُبُلَ الضَّجَاجِ أقمتَ كلَّ ضَجَاجِ
داويتَهُمْ وشفيتَهُمْ من فِتْنَةٍ ... غَبْرَاءَ ذاتِ دواخِنٍ وأُجَاجِ
ولقد كسرْتَ سِنَانَ كلِّ منافقٍ ... ولقد منعتَ حقائِبَ الحُجّاجِ[1]

وصورة الحجاج هذه أنصع من سابقاتها، إذ يظهره الشاعر بمظهر الغيور على حرمات المسلمين، فهو يغار على نساء المسلمين أكثر من غيرة أزواجهن عليهن، كما أنه سد السبل على المنافقين الذين اختاروا طريق الفساد في الأرض، فكسر شوكتهم، وأعادهم إلى جادة الصواب، فحقن بذلك دماء المسلمين، وأمّن طريق الحج، ووفر الطمأنينة للذين يريدون تأدية هذه الفريضة. وكل ذلك ما كان ليتم لولا سطوة الحجاج، صاحب العزيمة والبأس الشديد.

ولا يزال جرير يكيل للحجاج المديح، معدداً صفاته، مجدداً معانيه مرة، ومكرراً مرة أُخرى، فيقول:

وثِنْتَانِ في الحَجّاجِ لا تَركُ ظَالِمٍ ... سوياً ولا عند المُرَاشَاةِ نائِلُ
وَمَنْ غَلَّ مالَ الله غُلّت يمينُهُ ... إذا قيلَ: أدّوا لا يَغُلَّنَّ عامِلُ
وما نَفَعَ المستَعْمِلِينَ غلولُهُمْ ... وما نَفَعَتْ أهلَ العُصَاةِ الجَعائِلُ
قَدِمْتَ على أهلِ العِرَاقِ ومنهُمُ ... مُخَالِفُ دينِ المسلمينَ وخاذِلُ
فكنتَ لِمَنْ لا يبرئُ الدينُ قلبَهُ ... شفاءً، وخفَّ المُدْهِنُ المُتَثَاقِلُ[2]

وليس الاعتداء على أموال الدولة أمراً مستحدثاً، بل هو أمر ملموس منذ نشأت الدولة الإسلامية. وإن كان هذا الأمر قليلاً في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، إلا أنه ازداد في العصر الأموي، وهذا ما سجله جرير في هذه الأبيات، التي يبدو فيها

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص٧٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٥٥. الغلول: الأخذ من الغنيمة قبل أن تُقسَّم.

الحجاج محارباً لأصحاب الغلول، وأهل الرشوة، والمنافقين، والذين يحدثون البدع في دين الله.

ويمضي جرير في مديحه الحجاج، فيرسم له صورة مضيئة مشرقة، يتنازعه فريقان من الناس، فريق محب له، راضٍ عما يفعله، وهم أصحاب الدين وأصحاب التقوى، الذين يرون الحجاج محقاً فيما يفعله بالمارقين والمفسدين، والفريق الآخر هو فريق المنافقين الذين يبغضون الحجاج، بسبب تنكيله بهم، فيقول:

وَمَنْ يامَنِ الحَجّاجَ أمّا عِقابُهُ ... فَمُرٌّ وأمّا عَقْدُهُ فَوَثِيقُ
يُسرُّ لك البغضاءَ كلُّ منافقٍ ... كَمَا كلُّ ذي دِيْنٍ عليك شَفِيقُ
واطفأتَ نيرانَ العراقَ وقد عَلا ... لَهُنَّ دخانٌ ساطعٌ وحريقُ
وإنّ امرأ يرجو الغلولَ وقد رأى ... نَكَالَكَ فِيْمَا قد مَضَى لَسَرُوقُ
وأنتَ لنا نورٌ وغَيثٌ وعِصْمَةٌ ... ونَبْتٌ لِمَنْ يرجو نَدَاكَ وَرِيقُ
ألا رُبَّ عاصٍ ظالمٍ قد تَرَكْتَه ... لأوداجِهِ المُستَنْزِفَاتِ شَهِيقُ[1]

ويلح جرير على إبراز دور الحجاج بن يوسف في مكافحة الفساد، فيمضي في تصوير مواقفه مع أهل الزيغ والنفاق، ويبين كيف نكّل بهم وبأهل الغلول الذين يرتكبون هذه الفعلة الشنيعة التي ورد التحذير منها في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2]. ولكن ما الذي يدعو جرير إلى الإلحاح على وصف الحجاج بهذه الصفات ؟ ولعل الإجابة عن هذا السؤال تكمن في أن أيام الحجاج كانت مقبلة، وأيام غيره مدبرة، والشعراء لا يهمهم إلا مصالحهم الذاتية، فجرير كان يريد أن يصل إلى قلب الحجاج بأي وسيلة كانت، سواء أكان ذلك بالنفاق أم كان ذلك بغيره، فالمهم أن يعلي من شأن الحجاج أملاً في نيل الحظوه لديه، وأملاً في الوصول إلى البلاط الأموي. وإذا كان جريرٌ صادقاً فيما ينسبه إلى الحجاج من هذه الصفات الحميدة، فما الذي جعله يصفه بالظلم بعد وفاته معدداً كثيراً من أعماله المنافية لتعاليم الإسلام كما يقول جرير؟

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص٣١٦. وريق: كثير الورق.

(٢) آل عمران، آية ١٦١.

ولا يترك جرير الحجاج إلا بعد أن يفيه حقه من المديح بهذه الصفة التي يرى الشاعر أن الحجاج برع فيها، وفاق كل ولاة بني أمية. إذ وطد الحكم لبني أمية بدهائه وحنكته السياسية وجبروته، فيقول:

عَفَاريتُ العراقِ شَفْيَتَ مِنْهُمْ ... فامَسَوا خَاضِعِيْنَ لك الرِّقَابَا
وقالوا: لن يُجَامِعَنَا أميرٌ ... أقامَ الحدَّ واتَّبَعَ الكِتَابَا
إذا أُخِذُوا وَكَيْدُهُمُ ضَعيفٌ ... بباب يمكرونَ فَتَحْتَ بَابَا
واشْمَطَ قد تردَّدَ في عَمَاهُ ... جعلتَ لشيب لِحيتِهِ خِضَابَا
إذا عَلِقَتْ حِبَالُكَ حَبْلَ عاصٍ ... رأى العاصي مِنَ الأجلِ اقْتِرَابَا[1]

ولا يزال الحجاج في نظر جرير مؤمنا تقيا، متبعا لكتاب الله وسنة نبيه، محاربا للفساد، استطاع أن يخضع العراقيين الذين استعصوا على الولاة من قبله، فقد حاربهم بسلاحهم الذي يتمثل في المكر والكيد والدهاء، فضلا عن السطوة والكثير من أعمال البطش والعنف التي كان يتميز بها الحجاج.

وصورة الخلفاء عند جرير لا تختلف عن صورة الولاة في محاربة الفساد، فكلهم ذوو قوة، وذووا حزم في التعامل مع المارقين من الدين، ومع المفسدين في الأرض، ولكنهم بالمقابل رحماء مع من يستقيم ويلقي عصا الطاعة لولي الأمر. يقول جرير في مدح هشام بن عبد الملك:

يَعُمُّ على البَرِيَّةِ منكَ فضلٌ ... وتُطْرِقُ مِنْ مَخَافَتِكَ الأسودُ
وإن أهلُ الضَّلالَةِ خالفوكُمْ ... أَصَابَهُمْ كَمَا لَقِيَتْ ثَمُودُ
وأمّا مَنْ أَطَاعَكُمُ فَيَرْضَى ... وذو الأضْغَانِ يَخْضَعُ مُستَقِيدُ[2]

ويمكن القول: إن الشاعر ذا الرمة نهج في مديحه بهذه الفضائل الدينية نهج الفرزدق وجرير، فقد تناول المعاني الدينية واتخذ منها ثوبا ألبسه ممدوحه الذي يحارب الفساد والبدع. فيقول مادحا بلال بن أبي بردة:

ومثلُ بلالٍ سَوَّسَ الأمرَ فاستوتْ ... مَهابَتُهُ الكُبْرَى وَجَلَّى عن الثَّغْرِ

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص١١٧.

إذا التكّتِ الأوراذُ فرّجَتْ بينها ... مصادرُ ليستْ من عَبَامٍ ولا عَمْرِ
ونَكّلْتَ فُسّاقَ العراقِ فأقْصَرُوا ... وغَلّقْتَ أبوابَ النّساءِ على سِترِ
فلم يبقَ إلا ذاخِرٌ في مُخيَّسٍ ... ومنحجرٍ من غيرِ أرضِهِ في جُحْرِ[١]

وهذا المديح صورة للوضع الذي كان يعاني منه العراق في العهد الأموي من فسق ونفاق واضطراب في الأمور؛ مما دعا الولاة إلى أخذ هذا البلد بالشدة والعنف؛ وهذا ما فعله بلال بن أبي بردة مع العراقيين الذين نكّل بلالٌ بأهل الفسوق والعصيان منهم، وحمى أعراض النساء اللاتي أصبحن آمنات في بيوتهن، وكل هذا بجهود بلال الذي يتصف بالحزم والقوة والحنكة السياسية، ولا تنقصه الخبرة العملية في هذا المجال؛ لذلك لم يبق من اللصوص والعصاة إلا من كان في السجن أو من أغلق عليه باب داره واختبأ.

ويمضي ذو الرمة في مدح ولاة بني أمية، ولكن هذه المرة يمدح مالك بن المنذر بن الجارود[٢]، فيرسم له صورة لا تختلف عن صورة بلال بن أبي بردة، فيقول:

تقولُ التي امستْ خَلُوفاً رجالُهَا ... يغيرون فوقَ المُلْجَمَاتِ العَوالِكِ
لجارَتِهَا: أُفْنَى اللّصوصَ ابنُ مُنْذِرٍ ... فلا ضَيرَ ألّا تُغْلِقي بابَ دارِكِ
وآمنَ ليلُ المسلمينَ فَنَوّمُوا ... وما كانَ يمشي آمِنَا قَبْلَ ذلك
تَرَكْتَ لُصوصَ المِصْرِ مِنْ بين يائسٍ ... ومِنْ بينِ مَكْنُوعِ الكراسِيعِ بارِكِ[٣]

وليس في هذه المعاني ما يدل على التجديد عند الشاعر، فهي تكرار لما سبق، فالأمن قد استتب بفضل جهود ابن منذر الذي نكّل باللصوص الذين كانوا ينغّصون على الناس عيشهم، فأصبحت النساء اللاتي ذهب أزواجهن إلى الحرب آمنات في بيوتهن، ولسن بحاجة إلى إغلاق البيوت عليهن.

---

(١) ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، ج٢ ص٩٧٧، ٩٧٩. التكّت: التبست، مصادر: أصدرت كل شيء مصدره، عبام: الثقيل الوخم، غمر: لم يجرب الأمور، ذاخر: صاغر، المُخيَّس: السجن.

(٢) مالك بن المنذر بن جارود العبدي، ت(١١٠هـ/٧٢٨م)، من بني عبد القيس، والٍ أمّره خالد بن عبد الله القسري على شرطة البصرة، وولاه مصعب بن الزبير على بني عبد القيس في حربه مع المختار، توفي في سجن هشام بن عبد الملك (ابن الاثير الجزري، الكامل في التاريخ، المجلد الرابع، ص٣٧٦،٣٨٣)

(٣) ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، ج٢، ص٦٦١، ٦٦٢. العوالك: الخيل التي تعلك اللجم، المكنوع: المقطوع، الكراسيع مفردها كرسوع: وكرسوع القدم: مفصلها من الساق.

ومديح الشعراء الولاة بهذه الصفة لم يأتِ من فراغ، وإنما يدل على أن أحوال الدولة كانت في اضطراب شديد، بسبب ما تعانيه من انقسامات حزبية، وظلم من بعض الولاة، مما جعل الشعراء يسجلون هذه المواقف، آخذين بعين الاعتبار مصالحهم الذاتية، ثم مصالح ممدوحيهم، متناسين معاناة الناس بسبب تصرفات بعض الولاة، وتجاوزهم لحدود الشريعة في التعامل مع الوضع الذي كان سائداً.

وهكذا يرى الدارس أن الشعراء تناولوا القيم الدينية ووظفوها في قصيدة المديح توظيفاً واضحاً، مستفيدين مما كانت تلقاه هذه المعاني من قبول لدى الممدوحين. وأولى هذه القيم التي برزت في قصيدة المديح الأموي قيمة التقوى، التي أظهر الشعراء الممدوح بها تقياً ورعاً يخاف الله ويخشاه في السر والعلن، صواماً بالنهار قوّاماً بالليل، جاعلاً ذلك قربى له عند الله.

ويمكن القول، إن الشعراء كانوا يمزجون بين فضيلة التقوى وكرم الممدوح في كثير من مديحهم، مما يدل على أن الغاية من المديح بهذه الصفة كانت التكسب والمنفعة الدنيوية. كما يمكن القول إنّ المديح بفضيلة التقوى كان يتفاوت حسب طبيعة الممدوح؛ فمديح الشعراء لبني أُمية يختلف عن مديحهم للهاشميين والزبيريين والخوارج، ففي حين يبدو مديحهم للهاشميين والزبيريين صادقاً، فإن مديحهم للأمويين كان يشوبه شيء من تجاوز الحد والمبالغة في وصف الممدوح بالتقوى في بعض الأحيان.

أمّا قيمة العدل، فكانت هي الأخرى من القيم التي وظفها الشعراء في مديحهم، فقد برز الممدوح إماماً عادلاً، يضع الموازين ويعدل بين أبناء رعيته، وكان المدح بهذه الفضيلة مرتبطاً بصفة الكرم أيضاً، مقروناً بطلب العطاء. ولأن الأمويين هم ولاة الأمر فقد ركز الشعراء على نسبة هذه الفضيلة إلى خلفائهم وولاتهم، وأكثر الخلفاء الذين نوه بهم الشعراء في مديحهم بفضيلة العدل عمر بن عبد العزيز الذي كان يبدو في هذا الشعر إماماً عادلاً بحق، ثم يأتي بعده سليمان بن عبد الملك الذي أوصله الشعراء إلى القمة في العدل، وقرنوا صفاته بصفات المهدي المنتظر وخاصة عند الفرزدق وجرير، كما نوه الشعراء بولاة بني أمية الذين يختارونهم عن تجربة وثقة بهم في مجال العدل والبعد عن الجور.

أما الفضيلة الأخرى التي تناولها الشعراء في مديحهم فهي محاربة البدع والفتن والفساد. وقد برزت هذه الفضيلة في شعر المديح في العصر الأموي بشكل واضح.

وعند النظر إلى هذا الشعر يمكن استنتاج بعض الأمور منها: اضطراب الأوضاع السياسية والاجتماعية في ذلك العصر، إذ كانت الدولة تعاني من الفساد والفتن، وقد ظهر ذلك من المدح بالقضاء على الرشوة والغلول واللصوصية ودلج الليل. كذلك برزت بعض الأسماء التي كان لها الدور الأكبر في محاربة الفساد، كالخليفة عبد الملك ابن مروان والحجاج بن يوسف وبلال بن أبي بردة وغيرهم. وقد قرن الشعراء بين المدح بهذه الصفة وبين صفة الحزم التي كان يتحلى بها هؤلاء الممدوحون، فضلاً عن الصفات الدينية الأخرى التي تؤهلهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويمكن القول، إن المديح بالقيم الدينية كان يأتي في كثير من الأحيان مقروناً بالتكسب والعطاء مما أفقده كثيراً من مصداقيته.

الفصل الرابع

الـــــدراســـــة الـــفـــنـــيـــة

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الهيكل العام للقصيـــــدة

المبحث الثاني: البناء اللغـــــوي:

أ- الصورة الفنيـــة

ب- اللغة والأســـلوب

ج- الأوزان والقوافـــي

المبحث الأول

الهيكل العام لقصيدة المديح في العصر الأموي

اهتم النقاد بالهيكل العام للقصيدة الجاهلية، وأولوه عناية كبيرة، إذ فرقوا بين "القصيدة" و"المقطوعة" فما تجاوز الأحد عشر بيتاً فهو قصيدة، وما قلّ عن هذا العدد فهو مقطوعة(١). ويرى حازم القرطاجني أن القصائد منها بسيطة الأغراض، ومنها مركبة، فالبسيطة مثل القصائد التي تكون مدحاً صرفاً أو رثاءً صرفاً، والمركبة هي التي يشتمل الكلام فيها على غرضين، مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومديح(٢).

على أنّ كثيراً من النقاد القدامى والمحدثين اهتموا بدراسة القصيدة وتركوا المقطوعة لما تمثله القصيدة من احتوائها على مقومات الشعر العربي الموروثة، ولكثرة القصائد وغلبتها على المقطوعات، فضلاً عن عوامل الضياع التي تعرضت لها القصيدة العربية عامة، فليس بعيداً أن يكون أكثر هذه المقطوعات بقايا قصائد طويلة أو قصيرة مسها الدهر بضر(٣).

أما القصيدة في الشعر الجاهلي فقد اتخذت شكلين؛ الأول قصائد تشتمل على أكثر من موضوع واحدٍ كالمعلقات، والثاني هو القصائد القصار والمقطعات، أما القصائد الطوال ذات الموضوعات المتعددة، فإنها تسير على نظام معين ونسق موروث سنه القدماء من عهد الجاهلية،وتبعه من جاء بعدهم في صدر الإسلام وسار على نهجه كثير من شعراء العصر الأموي والعباسي على تفاوت في مقدار التبعية والالتزام(٤).

وقد دأب الشعراء الجاهليون على ابتداء قصائدهم بذكر الديار وأطلالها، وبكوا عندها وخاطبوا ربعها، واستوقفوا الرفيق عليها، وتغزلوا بصاحباتها المرتحلات، ووصفوا رواحلهم، ثم انتهوا إلى غرضهم الرئيسي من مدح وهجاء وغيره. وقد علل ابن قتيبة هذا التقليد الجاهلي بقوله :" وسمعت بعض أهل العلم يذكر أنّ مُقصِّدَ القصيد

---

(١) ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج١، ص١٢٥.

(٢) أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني، (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص٣٦٠.

(٣) د. وهب رومية، قصيدة المديح حتى نهاية لعصر الأموي بين الإحياء والتجديد، ص١٦.

(٤) د. يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٢٤١،٢٤٢.

إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين"(١).

كما يعزو ابن قتيبة التشبيب الذي يرد في مقدمات القصائد إلى الحاجة إلى استمالة القلوب نحوه وجلب الأسماع إليه؛ وذلك لأنّ التشبيب كما يقول لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء(٢). ثم يمضي ابن قتيبة في بيان سبب هذا التعدد في موضوعات قصيدة المديح فيقول بشأن الرحلة: " فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقّب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر وسُرى الليل وحر الهجير وإنضاء الراحلة والبعير"(٣). ثم يأتي ابن قتيبة إلى الغرض الرئيسي قائلا: "فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في السير بدأ المديح، فبعثه على المكافأة، وهزّه للسماح، وفضله على الأشباه، وصغّر في قدره الجزيل"(٤).

ويذهب ابن رشيق القيرواني مذهب ابن قتيبة في توضيح أسباب هذا التقسيم في هيكل القصيدة الجاهلية فيقول:"وكانوا قديماً أصحاب خيام ينتقلون من موضع إلى آخر؛ فلذلك أول ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار، ولما كانت دوابهم الإبل لكثرتها وعدم غيرها، ولصبرها على التعب وقلة الماء والعلف، فلهذا أيضاً خصوها بالذكر دون غيرها"(٥).

ويرى يحيى الجبوري أنّ الوقوف بالديار عند الشاعر الجاهلي ليس تقليداً "لأن الشاعر يعبر عن إحساسات صادقة وعواطف حميمة تملأ نفسه"(٦).

ويلاحظ المتتبع للقصائد القديمة أنها كانت تبدأ بالمقدمة الطللية والغزلية، وغلبت هاتان المقدمتان على القصيدة الجاهلية، ويعزو يوسف بكار سبب اهتمام النقاد بالمقدمة الطللية والغزلية إلى نقص استقراء القدماء للشعر الجاهلي، فضلاً عن كثرة المقدمات الغزلية والطللية كثرة استحقت الاهتمام عندهم.(٧) أما حسين عطوان فيرى أن مطلع

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، ص٧٤.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٧٥.

(٥) ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج١، ص٢٢٦.

(٦) يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ص٢٥٠.

(٧) د. يوسف بكار، بناء القصيدة العربية، دار الثقافة، القاهرة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٢٧٩.

القصيدة القديمة يشتمل على غير مقدمة، فبالإضافة إلى المقدمة الطللية والغزلية هناك مقدمات أخرى مثل وصف الظعن ووصف الطيف والشيب ووصف الطبيعة والشباب والفروسية[١].

أما في العصر الأموي فقد تغيرت حياة العرب نتيجة لحياة الترف وألوان النعمة التي طرأت عليهم في المأكل والمشرب والملبس والمسكن[٢]، ولكن التطور في الحياة العربية لم يشمل العرب كافة، فقد بقيت القبائل العربية، وخاصة التي في البادية بعيدة عن مظاهر الترف والحضارة، وبقيت تعيش حياتها كما كانت في الجاهلية، معتمدة على الرعي وتربية الماشية "وهذا مكنهم من المحافظة على تقاليدهم وعاداتهم البدوية الأصيلة"[٣]. ويندرج هذا على الشعر، فقد تمسك كثير من الشعراء الأمويين بمقومات القصيدة العربية القديمة، والتزموا بالسير على نهجها، ويعزو النقاد القدامى سبب ذلك التمسك إلى أن العلماء والأدباء والممدوحين يفضلون النماذج القديمة ويعلون من شأنها ويدعون الشعراء إلى تقليدها ومحاكاتها[٤]. ويرى حسين عطوان أن العناية بالأشكال القديمة للمقدمات لها ثلاثة أسباب؛ الأول عدم تأثر القبائل جميعها بما جد على الحياة الأموية من مظاهر حضارية،والثاني عدم وجود بديل للتراث الجاهلي يقلده الشعراء، والثالث تفضيل علماء اللغة والنحو الشعر الجاهلي على الشعر المستحدث.[٥]

وبناءً على ما سبق يمكن القول إن قصيدة المديح الأموية سارت على نهج القصيدة الجاهلية مع شيء من الاختلاف الناتج عن تطور الحياة في العصر الأموي وظهور مظاهر جديدة في مناحي الحياة الاجتماعية والحياة السياسية والحياة الدينية "وأول ما يلفت النظر في قصيدة المديح الأموية تلك الملاءمة البارعة بين العناصر التقليدية الموروثة التي كان المديح القديم يعتمد عليها، والعناصر الجديدة المستحدثة التي نفذ إليها الشعراء من خلال ظروف حياتهم التي يحيونها"[٦].

---

(١) د. حسين عطوان، مقدمة القصيدة في العصر الأموي، دار المعارف بمصر، بدون تاريخ، ص١١.

(٢) د. شوقي ضيف، التطور والتجديد في العصر الأموي، ط٦، ص١٠١.

(٣) د. شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص١٤٨.

(٤) ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج٢، ص١٢٣.

(٥) د. حسين عطوان، مقدمة القصيدة في العصر الأموي، ص١٣-١٨.

(٦) د. يوسف خليف، تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، ص١٤٦-١٦٥.

ولكي تبدو الصورة واضحة حول هذا الموضوع، لا بد من الحديث عن الهيكل العام لقصيدة المديح في العصر الأموي. ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام: المقدمة، الرحلة، الغرض الرئيسي.

أولاً: المقدمة:

ويمكن تقسيم المقدمة إلى عدة مقدمات حسب ورودها في قصيدة المديح الأموية:

١- **المقدمة الطللية:** لعل المقدمة الطللية من أبرز المقدمات التي اعتنى بها الشعراء في العصر الأموي، فكان بعضهم يسير فيها على النهج الجاهلي مع شيء من التطوير، وبعضهم حاول التمرد عليها، وكانوا يشيرون إليها إشارة عابرة ولم يحتفلوا بها كثيراً، وقد يقتصر بعضهم على بعض مقوماتها ويلغي بعض المقومات الأخرى، ويظهر ذلك بوضوح عند استعراض بعض المقدمات عند بعض الشعراء في العصر الأموي.

فالشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات "من أوائل من دعوا إلى التحرر من محاكاة القدماء في بكاء الأطلال والوقوف على الديار الدارسة وترديد ذكرى الحبيبة"[١] فقد اقتصرت المقدمة الطللية عند ابن قيس الرقيات على ذكر أسماء الأماكن وتصوير الجو المشحون بالحزن والأسى على فراق أهلها[٢]. وهذا يتضح من قصيدته الهمزية التي قالها في مدح مصعب بن الزبير التي يقول فيها:

أَقْفَرَتْ بعدَ عبدِ شمسٍ كَدَاءُ ... فكُدَيٌّ فالرَّكْنُ فالبَطْحَاءُ
فَمِنًى فالجِمَارِ مِنْ عبدِ شمسٍ ... مُقْفِرَاتٌ فَبَلْدَحٌ فَحِرَاءُ
فالخِيامُ التي بِعُسْفَانَ فالجُحْـ ... ـفَةُ مِنْهُمْ فالقَاعُ فَالأَوْبَاءُ[٣]

فأطلال ابن قيس الرقيات أطلال حية وتعدادها بهذه الطريقة يوحي بحبه لها وحب ساكنيها، كما يوحي بألمه وحزنه لتفرق قومه بعد أن كانت السيادة لهم وديارهم عامرة بالعز والسؤدد والرياسة، كما يمكن ملاحظة أن ابن قيس الرقيات قد نبذ كثيراً

(١) صلاح الدين مصيلحي عبد الله، التقليد والتجديد في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص١٧٠.

(٢) د. وهب رومية، قصيدة المديح حتى نهاية العصر الأموي بين الإحياء والتجديد، ص٦١٦.

(٣) عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، ص٨٧.

من مقومات المقدمة الطللية، فلم يذكر معالمها، ولم يصفها، ولم يتعرض لحيواناتها ولا لطيرها، ولا لرياحها، وهذا يدل على أنّ ابن قيس الرقيات لم يكن حريصاً على استقراء جميع مقومات المقدمة الطللية في كثير من قصائده.

أما الشاعر الأخطل، فقد اعتنى عناية كبيرة بمقدماته الطللية، مختلفاً بذلك عن ابن قيس الرقيات، فكثير من عناصر المقدمة الطللية تبدو واضحة في مقدمات قصائده "فقد استهل نصف مدائحه بالحديث عنها"(١). "على أن الصفة الغالبة على مقدماته أنها طويلة ومفصلة"(٢) ولكنه كان يتروى في صنعها ويتمهل في تنقيحها بصرف النظر عن كونها مدائح أو أهاجي(٣). "وهو يعد من الناحية الفنية امتداداً لمدرسة الصنعة الجاهلية أو مدرسة عبيد الشعر التي كانت تعنى بتجويد شعرها وتهذيبه ونفي فضوله ومعاودة النظر فيه"(٤)، وعند النظر في مقدمات قصائد المديح عند الأخطل، يظهر ما فيها من احتذاء للقوالب الجاهلية من حيث مراعاة الموروث القديم والسير على نهج القدماء في كثير من عناصر المقدمة الطللية، فهو يحيي الديار كما كان يحييها الجاهليون فيقول:

الا حَيِّيَا داراً لأمّ هِشَامِ وكيفَ تنادي دِمْنَةً بِسَلامِ(٥)

كما كان يقلد الجاهليين في سؤال الديار، فيقول:

لِمَنِ الديارُ بحايلٍ فَوِعَالِ دَرَسَتْ وغَيَّرَهَا سنونَ خَوالِي(٦)

وقد يدعو للديار بالسلامة ويستسقي لها فيقول:

ألا يا اسْلَمَا على التَّقَادُمِ والبِلَى بدومةِ خَبْتٍ أيُّهَا الطَّلَلانِ(٧)

ويقول:

سقى اللهُ مِنهُ دارَ سَلْمَى بِرِيَّةٍ على أنَّ سلمى ليسَ يَشْفَى سَقِيْمُهَا(٨)

---

(١) د. وهب رومية، قصيدة المديح حتى نهاية العصر الأموي بين الإحياء والتجديد، ص٣٢٩.

(٢) د. حسين عطوان، مقدمة القصيدة في العصر الأموي، ص٤٩.

(٣) المرجع نفسه، ص٤١.

(٤) د. يوسف خليف، تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، ص١٨٠.

(٥) الأخطل، ديوان الأخطل، ج٢، ص٤٩١.

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٦.

(٧) المصدر نفسه، ج١، ص٢٢.

(٨) المصدر نفسه، ج١، ص٣١٥.

وقد يذكر بعض معالم الديار مثل النؤي والأثافي وغير ذلك كقوله:

وبالصَّريمَةِ منها منزلٌ خَلِقٌ عافٍ تَغيّرَ إلّا النؤيُ والوتدُ[١]

ويمكن القول إنّ الأخطل كان شاعراً مقلداً للجاهليين في مقدماته الطللية "فهو يعنى أشد العناية بنظام بنائها، ولا يسرع فيها إلى غرضه الرئيسي، بل يتأنى بالتمهيد لهذا الغرض بـ"مقدمات فنيّة يجوّد فيها متعمداً حتى ليبلغ من اهتمامه بأمرها وإلحاحه في الوقوف عندها أن يفرد لها من المدحة أحياناً أكثر من نصفها، أو يبلغ بها أحياناً ثلاثة أرباعها"[٢].

أما الفرزدق، فقد كان له مع المقدمة الطللية شأن آخر يختلف عن الأخطل، ومن يقرأ ديوانه يجده يمر مروراً سريعاً بهذه المقدمة الطللية، فكثيراً ما كان يتجاوزها غير آبهٍ بها، فالمقدمات الطللية في ديوانه قليلة جداً، وإن وجدت فهي قصيرة لا تتجاوز بضعة أبيات "فهو لم يعنَ عناية شديدة بمقدمات قصائده، وإنما كان يلم بها إلماماً سريعاً، ثم يقفز عنها مسرعاً قبل أن يوفيها حقها"[٣].

وأبرز ملامح المقدمة الطللية تظهر في مدحته التي يمدح بها بني شيبان ويقول فيها متحدثاً عن الأطلال:

أَلِمّا على أطلالِ سُعْدَى نسلّمِ دَوارِسَ لَمّا اسْتُنْطِقَتْ لَمْ تَكَلَّمِ
وقوفا بها صحبي عليّ وإنّما عرفتُ رسومَ الدارِ بعد التّوهُّمِ
يقولون لا تَهلِكْ أسىً ولقد بَدَتْ لَهُمْ عَبَراتُ المُسْتَهامِ المُتَيَّمِ
فقلتُ لهُمْ لا تَعْذِلوني فإنّها منازلُ كانَتْ مِنْ نَوارَ بِمَعْلَمِ[٤]

فهذه مقدمة طللية قصيرة إذا ما قيست بمقدمات الأخطل الطللية، وتقليد الجاهليين فيها بادٍ بوضوح، فكأنك تقرأ شعراً جاهلياً، ويعلق وهب رومية على هذه المقدمة قائلاً: "ولكن حذار أن تخدعك هذه الرسوم، فتظن أن الفرزدق يبني أطلالاً خاصة به، فإذا

(١) الأخطل، ديوان الأخطل، ج٢، ص٤٣٣.
(٢) السيد مصطفى غازي، الأخطل شاعر بني أمية، ط١، دار المعارف بمصر، ص١٥٠.
(٣) د. حسين عطوان، مقدمة القصيدة في العصر الأموي، ص٣٦.
(٤) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص١٩٤.

استثنيت البيت الأخير لم يبق للفرزدق من هذه الأطـــلال شـــيء، فقـــد تنـــاول بعضـــها مـــن طرفة، وبعضها من زهير، وبعضها مـــن عنـــترة"(١).

ويبدو من قراءة ديوان الفرزدق كثرة المقطوعات المدحيـــة فـــي شـــعره(٢) وهـــذا يـــدل أيضاً على عدم اهتمام الشاعر بالمقدمـــات، وإن شـــئت فقـــل إن الفـــرزدق كـــان يعمـــد فـــي كثير من الأحيان إلى موضوعه الرئيـــس مباشـــرة، وربمـــا بـــدأ قصـــائده الطويلـــة مباشـــرة بدون مقدمة كما فعل في مدحه زين العابدين بن الحسين، ويقـــول محمـــد عبـــد القـــادر أحمـــد: "إن الفرزدق كثيراً ما كان يـــهجم علـــى موضوعـــه مباشـــرة دون التقديـــم إليـــه بالنســـيب وإذا نسب جاء شعره غليظاً نابياً متأثراً بروح الفخر الخالية مـــن صـــدق الشـــعور"(٣).

أما جرير، فإنه يختلف عن الأخطـــل فـــي إكثـــاره مـــن اســـتهلال قصـــائده بوصـــف المنازل الدارسة، تلك التي حافظ في وصفه لها علـــى بعـــض تقاليدهـــا مثـــل التســـليم عليـــها واستيقاف أصحابه بها ودعائه لها بالسقيا(٤) "والكـــثرة المفرطـــة مـــن مقدماتـــه الطلليـــة أنـــه يذكر الأطلال في بيتين أو ثلاثة ثـــم يتركـــها"(٥).

والناظر في ديوان جرير يجد مصداقاً لهذا القـــول، فـــهو يفتتـــح كثـــيراً مـــن قصـــائده بالمقدمات الطللية في بيت أو بيتين أو ثلاثة أبيات ثم ينتقـــل إلـــى موضـــوع آخـــر(٦)، ولكنـــه أكثر عناية من الفرزدق بالمقدمات الطلليـــة، فـــهو يذكـــر بعـــض عنـــاصر المقدمـــة الطلليـــة كتحية الديار والدعاء لها بالسقيا، وذكر الرياح التـــي غيّرتـــها، وقـــد يســـائل صاحبـــه علـــى الديار، يقول في مدحه يزيد بن عبـــد الملـــك:

حـــيّ الـديـــارَ على سَـفْـي الأعاصيرِ ... اسْتَنْكَرَتْنِي أمْ ضَنَّتْ بِتَخْبِيرِي
حـــيّ الـديـارَ التي بلّـــى مَعَـارِفَـهَـا ... كُلُّ البِلَى نَـفْـيانُ القَطْرُ والمَـــورِ
هل أنتِ ذاكرةٌ عـهـداً علـى قِـــدَمٍ ... أسْقَيْتِ مِنْ سَبَلِ الغُرّ المَبَاكِيرِ

(١) د. وهب رومية، قصيدة المديح حتى نهاية العصر الأموي بين الإحياء والتجديد، ص٥٣٣.

(٢) ينظر: الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٤٢،٥٦،٧٠،٩٢،١٥٥،١٦٧،١٧٠.

(٣) د. محمد عبد القادر أحمد، دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي، دار النهضة المصريـــة، القـــاهرة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٩٣.

(٤) د. حسين عطوان، مقدمة القصيدة في العصر الأموي، ص٥٨.

(٥) المرجع نفسه، ص٥٤.

(٦) ينظر: جرير، ديوان جرير، ص٣٣،٧٨،٩٥،١١٢،١١٥،١٤٠،١٦٨.

هل تعرفُ الرَّبْعَ إذْ في الرَّبْعِ عَامِرُهُ فاليومَ أصبحَ قَفْراً غيرَ مَعْمُورِ[١]

وعند الحديث عن الأطلال ووصف الديار، لا بد من التعرض للشاعر ذي الرمة الذي "يعد أكبر من تخصص في وصف الديار الداثرة بحيث يصح أن نسميه "شاعر الأطلال" في العربية، ففي ديوانه سبع وثمانون قصيدة وأرجوزة ومقطوعة، افتتح ما يزيد على أربعين قصيدة بوصف الأطلال"[٢].

ويختلف ذو الرمة عن غيره من الشعراء في أطلاله، فهو يتتبع عناصرها عنصراً عنصراً متأنياً في ذلك، مبرزاً مظاهرها الجاهلية، ويمكن القول إن المقدمة الطللية ليست تقليداً عند ذي الرمة، بل كانت جزءاً من نفسه وحياته ومسرح شبابه وحبه لمية، يقول حسين عطوان: "لقد كان ذو الرمة محباً للصحراء يعشقها كما يعشق مية صاحبته، فلا غرابة أن يعنتي بمقدماته عناية تنم عن هذا اللون الفني الذي يظهر في مقدماته "[٣] ومن هذا المزاج بين الحب والصحراء اكتسب شعر ذي الرمة هذا الطابع الفريد في الشعر العربي"[٤]. "ويوشك ذو الرمة أن يكون أكثر الشعراء القدماء بكاءً، وأغزرهم دموعاً وعبرات، فلا تكاد تخلو قصيدة من شعره من هذه الدموع والعبرات"[٥]. يقول في إحدى مقدماته:

كأن فؤادي هاضَ عرفانُ رَبْعِها به وعْيَ ساقٍ أسْلَمَتْها الجَبَائِرُ
عَشيّةَ مَسْعودٍ يقولُ وقد جَرَى على لحَيَتي من عَبْرةِ العين قاطِرُ
أفي الدارِ تَبْكي أنْ تَفرَّقَ أهلُهَا وأنتَ امرؤٌ قد حلَّمَتْكَ العَشَائِرُ[٦]

أمّا الكميت "فإنه أعطى المقدمة التقليدية تحولاً سلبياً حين كان يدور في عكس اتجاه الشعراء، حين رفض أن يقف في هذه المقدمات على الديار أو يبكي الأطلال"[٧]. ولعل ذلك يعود إلى حبه الشديد للهاشميين، هذا الحب الذي شغله عن أي حب آخر، وهذا ما جعله يستهل مدائحه في الهاشميين بإعلاء حبه لهم، وانقطاعه إليهم حباً

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص١٩٢. النفيان: الرشراش، المور: التراب، المباكير: جمع مبكار وهو السحاب الوسمي لأنه يسم الأرض في أول السنة.
(٢) د. حسين عطوان، مقدمة القصيدة في العصر الأموي، ص١٠٥،١٠٦.
(٣) المرجع نفسه، ص١٠٧.
(٤) د. يوسف خليف، تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، ص٦١.
(٥) د. يوسف خليف، ذو الرمة شاعر الحب والصحراء، دار المعارف، مصر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص١٢٢.
(٦) ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، ج٢، ص١٠١١،١٠١٢.
(٧) د. يوسف خليف، تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، ص١٤٢.

وانقطاعا يشغلانه عن زيارة الديار والبكاء عليها، ويصرفانه عن طلب النساء والميل إليهن كما يقول حسين عطوان[١]. ويعلن الكميت ذلك صراحة في بائيته المشهورة إذ يقول:

طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أَطْرَبُ ولا لعباً مِنّي وذو الشَّيْبِ يَلْعَبُ[٢]

فليس هو ممن تملك لبه النساء وزينتهن، ولا هو من أصحاب اللهو واللعب، ولكنه مغرم بحب الهاشميين الذي لا يشغله عن حبهم شيء آخر.

ولكنه ختم هذه القصيدة بذكر ناقته مخالفا بذلك عامة الشعراء القدامى الذين كانوا يأتون بوصف الناقة بعد مقدمتهم الطللية وقبل الغرض الرئيسي، مما يدل على أن قصده لم يكن كقصد غيره من الشعراء السابقين[٣].

وتأتي المقدمة الطللية عادة في بداية قصائد المديح، فالأخطل في معظم مدائحه تكون المقدمة الطللية –إن وجدت– في مقدمة القصيدة ولا يسبقها شيء، أما الفرزدق فإنه لا يلتزم بنهج معين في بناء قصيدة المديح، فربما تتأخر عنده المقدمة الطللية[٤]، وقلما يفتتح قصائده بها. أما جرير فإنه يكثر من افتتاح قصائده بالمقدمة الطللية، ولكنها قد تتأخر في بعض قصائده أيضا[٥].

والناظر في هذه المقدمات الطللية، لا يجد في كثير منها أثرا للإسلام، لا شكلا ولا مضمونا، فألفاظها وصورها وأساليبها لا تخرج عن الموروث الجاهلي فيما يتعلق بهذه المقدمة، وهذا يبدو في مقدمات الأخطل وجرير والفرزدق، أما عند الشاعر عبيدالله بن قيس الرقيات فتختلف المقدمة بعض الشيء من حيث مضمونها، إذ يقتصر الشاعر على ذكر الأماكن والديار وتعدادها فقط، دون أن يبرز مقومات المقدمة الطللية الأخرى، ولعل ذلك ناتج عن تأثير الإسلام في مقدمات ابن قيس الرقيات، ويمكن القول إن ذكر الديار في مقدماته له صلة بموضوع القصيدة، فمديح الشاعر في معظمه كان

---

(١) د. حسين عطوان، مقدمة القصيدة في العصر الأموي، ص٢٠.

(٢) الكميت بن زيد، ديوان الكميت بن زيد، ص٥١٢.

(٣) صلاح الدين مصيلحي، التقليد والتجديد في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، ص١٦٣.

(٤) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص٢٢٨-٢٣٢.

(٥) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٣٤٦، ٣٧٩، ٤٠٧، ٤٠٨.

للحزب الزبيري، ثم بعد ذلك تحوّل إلى الأمويين ومدحهم، وهؤلاء جميعهم من قريش، كما أنّ الأماكن التي ذكرها في مقدماته هي منازل قريش التي تفرقت في البلاد وانقسمت إلى أحزاب متناحرة، فلذلك تبدو في مقدماته نبرة الحزن والأسى على ما آل إليه قومه.

وكذلك يخلو معظم شعر الخوارج من هذه المقدمة الطللية، ولعل ذلك راجع إلى الصدق الذي يتسم به أدب الخوارج، وراجع إلى انشغالهم بعقيدتهم، وحروبهم مع الدولة الأموية، فكانوا يعمدون إلى موضوعهم مباشرة من غير مقدمات، وانصب اهتمامهم على مضمون القصيدة، فشعرهم مليء بالمعاني الإسلامية، وشعر المديح عندهم قليل، إذ اقتصر على مدح أبطالهم وفرسانهم وزعمائهم، وهذا المديح على قلته يحمل الشيء الكثير من القيم الدينية.

٢- **المقدمة الغزلية:** وهذا لون آخر من المقدمات برز في مقدمة قصيدة المديح في العصر الأموي، وقد تفاوت الشعراء في اهتمامهم بهذه المقدمة، فالشاعر عبيد الله ابن قيس الرقيات تغزل في مقدمات قصائده "فشعره في معظمه مقطوعات وقصائد قصيرة تغلب على مقدماتها نزعة عاطفية تشبه ما نراه عند العذريين"(١). وهذه إحدى قصائده التي مدح بها عبد الملك بن مروان يتغزل فيها بـ"كثيرة" التي اختبأ في دارها بعد مقتل مصعب بن الزبير، يقول فيها:

عَادَ لَهُ مِنْ كَثِيْرَةَ الطَّرَبُ ... فعينُهُ بالدُّموعِ تَنْسَكِبُ
كُوفِيّةٌ نَازِحٌ مَحَلَّتُهَا ... لا أمَّ دَارُهَا ولا سَقَبُ
واللهِ مَا إنْ صَبَتْ إليَّ ولا ... يُعلمُ بيني وبينَهَا سَبَبُ
إلا الذي أورثتْ كثيرةُ في الـ ... ـقلبِ وللحبِّ سَورَةٌ عَجَبُ(٢)

فهذا الذي يذكره ابن قيس الرقيات يدل على شوقه الشديد لكثيرة، ويدل على حزنه الشديد أيضا لفراقها، وتبدو كثيرة في هذه الأبيات امرأة عفيفة ملكت قلب الشاعر لما أسدته إليه من معروف لن ينساه. ويرى شوقي ضيف أن غزل الشاعر بكثيرة ما هو إلا رمز لدنياه ونعيمها الذي طرد منه(٣).

---

(١) صلاح الدين مصيلحي، التقليد والتجديد في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، ص١٦٩.

(٢) عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، ص٢،١. السقب: القريب الملاصق.

(٣) د. شوقي ضيف، الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م، ج٢، ص٢٤٥.

وثمة شيء آخر ظهر في غزل ابن قيس الرقيات، وهو ما يسمى بالغزل السياسي، فقد تغزل بأم البنين زوج الوليد بن عبد الملك نكاية في الأمويين[١]، وتغزل بعاتكة بنت يزيد بن معاوية زوج عبد الملك[٢]. ويرى وهب رومية أن هذا اللون من الغزل ما هو إلا بسبب شوق ابن قيس الرقيات إلى وحدة الجماعة القرشية التي فرقت بينها الأهواء[٣].

ويبدو الأخطل أكثر تقليدا للشعراء القدامى في مقدماته الغزلية من ابن قيس الرقيات، فهو يحذو حذوهم في عناصر هذه المقدمة، وهذا الغزل يأتي في معظم قصائده بعد المقدمة الطللية. فالمقدمة الغزلية توشك أن تضارع المقدمة الطللية عنده، ولكنها أقصر منها في كثير من مدائح الأخطل[٤]. أما حديثه عن صاحبات المنازل فإنه لا يأتي فيه بجديد بل يتتبع آثار الجاهليين فيقتبس منها في معانيه وصوره، وفي كثير من عناصر المقدمة الغزلية التي تتمثل في وصف محاسن النساء وفي صدهن عن الشيوخ وتفضيلهن للشباب وهذا ما يبدو واضحا في قصيدته التي مدح بها يزيد بن معاوية، يقول:

بانَتْ سعادُ ففي العينينِ تَسْهِيدُ ... واسْتَحْقَبَتْ لُبَّهُ، فالقلبُ مَعْمُودُ
وقد تكونُ سُلَيْمَى غيرَ ذي خُلُفٍ ... فاليومَ أُخْلِفَ مِنْ سُعدى المَواعِيدُ
لمعاً وإيماضَ برقٍ ما يَصوبُ لنا ... ولو بَدَا من سُعادَ النَّحْرُ والجِيْدُ
إمّا تَرَيْنِي حناني الشَّيْبُ مِن كِبَرٍ ... كالنَّسرِ أَرْجُفُ والإنسانُ مَهْدودُ
وقد يكون الصِّبا مِنّي بمنزلةٍ ... يوما وتقتادني الهيفُ الرَّعَادِيدُ[٥]

فالشاعر يستهل قصيدته استهلال الجاهليين، ويبدو متأثرا في البيت الأول بالشاعر كعب بن زهير في بردته المشهورة.

---

(١) عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، ص ١٢٢، ١٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢٨، ١٢٩.

(٣) د. وهب رومية، قصيدة المديح حتى نهاية العصر الأموي بين الإحياء والتجديد، ص٦٢٧.

(٤) المرجع نفسه، ص٣٧٤.

(٥) الأخطل، ديوان الأخطل، ج٢، ص٩٣. استحقب: أخذ في الحقيبة، المعمود: الذي هده العشق، الهيف: الهيفاء المرأة الحسناء النحيلة، الرعاديد: الجبناء.

أما الفرزدق فإنه يبدأ بعض قصائده بالمقدمات الغزلية[١]، ولكنه يبتعد بها قليلا عن الموروث الجاهلي، والسبب في ذلك كما يقول النقاد أنه كان لا يحسن النسيب، فالجاحظ يقول عنه "إنه كان مستهتراً بالنساء وزير غوان، وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسيب مشهور"[٢]. وعند النظر في مقدمات الفرزدق الغزلية فإنَّ القارئ لها يجد بعداً عن الرقة المعهودة في الغزل، وربما يعود ذلك إلى جفاء نفسه وغلظة طبعه وتقصيره في الغزل كما يقول حسين عطوان[٣]، وهذه إحدى مقدماته الغزلية في قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز، يقول فيها:

لأسماءَ إذْ أهلي لأهلِكِ جيرةٌ ... وإذْ كُلُّ موعودٍ لها أنت آمِلُهْ
تَسُوفُ خُزَامَى الميثِ كَلَّ عشيَّةٍ ... بأزْهَرَ كالدينارِ حُوٍّ مَكَاحِلُهْ
لها نَفَسٌ بعد الكَرَى من رُقَادِهَا ... كأنَّ فُغَامَ المسكِ بالليل شَامِلُهْ[٤]

ولا يبدو في هذه الأبيات وصف لمحاسن المرأة ومفاتنها، وإنما يبرزها الفرزدق عفيفة طاهرة نقية بعيدة عن الفحش، فهو يهتم بالمحاسن النفسية للمرأة، وهذا يخالف بعض ما كان يرد في ديوانه من المغامرات العاطفية التي يأتي بها بأسلوب قصصي ينم عن تهتك وتعهر كبيرين، مجارياً بذلك كثيراً من الشعراء الجاهليين أمثال الأعشى.

ويتفوق جرير بن عطية على كل من الأخطل والفرزدق في مجال الغزل، وتكاد المقدمة الغزلية تغلب على جميع مقدمات قصائده المدحية، ومع أن جريراً لم يعشق امرأة قط إلا أنه أغزل الناس شعراً كما يزعم الجاحظ[٥]. فجرير يقترب كثيراً من العذريين في غزله، فلا تكاد تجد في ديوانه أوصافاً حسية إلا قليلاً، وقصائده مليئة بحديث الشكوى والعتاب والهجران والمعاناة من الوشاة وغير ذلك، ويشير حسين عطوان إلى ذلك قائلاً: "ومقدماته طويلة مترابطة، وألفاظها

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٩، ١٤٣، ج٢، ص١٢، ٨٠.

(٢) عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ، ص٢٠٨.

(٣) د. حسين عطوان، مقدمة القصيدة في العصر الأموي، ص٣٧.

(٤) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص٨٠. فغام: المسك، الميث: الأرض السهلة اللينة.

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٢٠٩.

حلوة وعذبة، وغزله فيها غزل عفيف طاهر"[١] يقول في مقدمة قصيدة يمدح بها خالد بن عبدالله القسري:

فإنّ التي يومَ الحمامةِ قد صَبَا ... لها قلبُ توّابٍ إلى الله ساجِدِ
رأيتُ الغَواني مُولعَاتٍ لذي الهوى ... بحسنِ المُنَى والبخلِ عند المواعدِ
أتُعْذَرُ إنْ أبديتَ بعدَ تجلُّدٍ ... شَواكِلَ مِنْ حُبّ طَريفٍ وتَالِدِ
ونطلبُ وِدّاً منك لو نَستَفِيدُهُ ... لكانَ إلينا مِن أحبِّ الفوائِدِ
فلا تَجْمَعِي ذكرَ الذُّنوبِ لتبخلي ... علينا وهجرانَ المُدِلّ المُبَاعِدِ[٢]

والمقدمة الغزلية أيضا تقليد موروث في قصيدة المديح، سار عليه شعراء العصر الأموي، ويبدو تأثير الإسلام فيها قليلاً، إذ لم يؤثر الإسلام في شكل هذه المقدمة وإنما أثرّ في مضمونها، كما هو الحال في مقدمات جرير التي مالت إلى العفة والبعد عما يخدش الحياء، ولعل الإسلام كان له الأثر الكبير في تهذيب خلق جرير وغيره من الشعراء. ومما يدل على أن هذه المقدمة الغزلية تقليد فقط ما يرويه الجاحظ من أنّ جريرا لم يعشق امرأة قط[٣]، وكذلك تظهر العفة في غزل عبيدالله بن قيس الرقيات في مقدمات قصائده، وهذا دليل على تأثره بالإسلام أيضا.

ويمكن القول إن الجديد في هذه المقدمة هو ما جاء به عبيدالله بن قيس الذي مال إلى الغزل السياسي حين تغزل بنساء الأمويين نكاية بهم، وليوغر صدورهم بهذا الغزل، ولا ريب أن العوامل السياسية كانت سببا في إدخال هذا اللون الجديد من الغزل في هذه المقدمات. أمّا الكميت بن زيد، فلم يأبه للمقدمات الغزلية؛ لأنّ لديه ما هو أهم من ذلك، وهو الدفاع عن الهاشميين ضد خصومهم، وإظهار ولائه لهم، مما شغله عن اللهو والطرب والتفكير بالنساء.

ودليل على تقليديّة هذه المقدمة هو ما كان يرد فيها من غزل فاحش كما هو الحال عند الفرزدق دون أن يثير ذلك مشاعر الممدوحين، وهذا ما فعله الفرزدق أمام سليمان بن عبد الملك في إحدى مدائحه ذاكراً بعض مغامراته الفاضحة، فقال له

(١) د. حسين عطوان، مقدمة القصيدة في العصر الأموي، ص٧٣.
(٢) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص١٣٦.
(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٢٠٩.

سليمان: "ما أراك إلا قد أحللت نفسك للعقوبة، أقررت على نفسك بالزنى عندي، وأنا إمام، ولا تريد مني إقامة الحد عليك، فقال: إن أخذت بقول الله عزّ وجلّ لم تفعل. قال: وما قال؟ قال: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ(٢٢٤)أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(٢٢٥)وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ(٢٢٦) ﴾ [١]. فضحك سليمان وقال: تلافيتها ودرأت عنك، وخلع عليه وأجازه"[٢].

٣- **مقدمة الظعن:** وهذه المقدمة كغيرها من سابقاتها أولاها بعض شعراء العصر الأموي عنايتهم، فساروا على نهج الشعراء الجاهليين، مترسمين خطاهم في كثير من عناصرها التقليدية، ومن هؤلاء الذين أحيوا مقدمة الظعن في قصائدهم الشاعر الأخطل الذي يقول في إحدى مدائحه:

صَحَا القلبُ إلا مِنْ ظَعَائِنَ فاتَنِي ... بِهِنّ أميرٌ مستبدٌ فَأَصْعَدَا
وقَرَّبْنَ للبينِ الجمالَ وزُيِّنَتْ ... بأَحْمَرَ مِنْ لكّ العِراقِ وأَسْوَدَا[٣]

وقد جدد الأخطل في هذه المقدمة، وذلك بأن جعل رحلة الظعائن بالسفن بدلاً من الإبل[٤]. وتظهر عناصر مقدمة الظعن في كثير من قصائده وقد احتذى فيها القوالب الجاهلية، فهو يبكي إثر الظعائن ويلاحقها بنظره، ويعلن خبر الرحيل، ويصف حسن النساء الراحلات.

أما الفرزدق فإن نصيبه من مقدمة الظعن قليل، فليس في ديوانه مِدحة واحدة يفتتحها بحديثه عن الظعائن، ولكن يرد ذكر الظعائن في ثنايا بعض الأماديح كقوله:

تبيّن خليلي هلْ ترى مِنْ ظعائنٍ ... لِمَيّةَ، أمثالِ النّخيلِ المَخَارِفِ
تَواضَعُ حتى يَأتِيَ الآلَ دونَها ... مراراً وتَزْهَاهَا الضُّحى بالأَصَالِفِ[٥]

---

(١) الشعراء، الآيات ٢٢٤-٢٢٦.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الحادي عشر، ص٢٤٥.

(٣) الأخطل، ديوان الأخطل، ج١، ص٣٠٢. اللكّ: نبات يستخرج منه صباغ معروف.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص١٩٤.

(٥) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص١٣. الأصالف: ما صلب من الأرض. المخارف: النخيل المثقل بالثمار.

ويبدو الفرزدق مقلدا للجاهليين وذلك في تشبيه الظعائن بالنخيل، وفي تصويره للظعائن بين مشهد السراب والأرض الصلبة.

أما جرير فإنه يكثر من وصف الظعائن في مقدماته ولكنه "يوجز إيجازا ظاهرا، فلا يدقق ولا يتأنى في رسم مشهد الرحيل، وهو يغفل في كل مرة طائفة واسعة من مقوماته الفنية الدقيقة ومن مواقفه الأساسية الكبرى أيضا"(١). يقول في مقدمة مدحته ليزيد بن عبد الملك:

انظرْ خليلي بأَعْلى ثَرْمَدَاءَ ضُحَىً ... والعيسُ جائِلةٌ أَغْرَاضُهَا خُنُفُ

استقبلَ الحيُّ بطنَ السِّرِّ أم عَسَفُوا ... فالقلبُ فيهِمْ رهينٌ أيْنَمَا انْصَرَفُوا(٢)

وغالبا ما تأتي مقدمة الظعن بعد المقدمة الطللية والغزلية، ولكنها قد تتقدم عليها في بعض القصائد، كما هي عند الأخطل في قصيدته السابقة التي مدح بها يزيد بن عبد الملك(٣). كما يكثر جرير من افتتاح قصائده بهذه المقدمة(٤) وقد يتأخر بها بعد المقدمة الطللية والغزلية(٥).

وهذه المقدمة هي من التقاليد الجاهلية الموروثة، ومما درج عليه شعراء العصر الأموي، ولا يكاد يظهر للإسلام أثر في هذه المقدمة، بل بقيت تسير على الموروث الجاهلي شكلاً ومضموناً، واللافت للنظر أنَّ هذه المقدمة لم ترد إلا في شعر بعض شعراء الحزب الأموي الذين مدحوا بني أمية، أمّا شعراء الأحزاب الأخرى كابن قيس الرقيات والكميت بن زيد وكثير من شعراء الخوارج، فورود هذه المقدمة في شعرهم كان قليلاً؛ لأن انتمائهم الحقيقي لهذه الأحزاب غلب على اهتمامهم بهيكل القصيدة، فعمدوا إلى أغراضهم الرئيسة مباشرة.

٤- **المقدمة الخمرية:** وهذه المقدمة ينفرد بها الشاعر الأخطل، ولا تكاد تظهر في شعر غيره من شعراء العصر الأموي، وقد أقرّ له خصومه بتفوقه في هذه المقدمة

---

(١) د. وهب رومية، قصيدة المديح حتى نهاية العصر الأموي بين الإحياء والتجديد، ص٥٤٧.

(٢) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص٣٠٤. الخنف: التي تلعب برؤوسها من نشاطها.

(٣) الأخطل، ديوان الأخطل، ج١، ص٣٠٢.

(٤) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص٧٣،٧٦،٩٢،٣٠٤.

(٥) المصدر نفسه، ص١٩٣،٢٧٧،٣٩٥.

الخمرية، إذ كان جرير يقول: "النصراني أنعتنا للخمر وأمدحنا للملوك"(١). وقد قال هو عن نفسه لما سئل: أيكم أشعر؟ قال: "أنا أمدحهم للملوك وأنعتهم للخمر"(٢) وكثيراً ما يأتي بهذه المقدمة في معرض وصفه للظعائن فيقول:

وجاءوا ببيسانيّةٍ هي بعدَمَا ... يَعُلُّ بها السَّاقي ألذَّ وأسْهَلُ
تَدُبُّ دبَيبَاً في العِظَامِ كأنَّهُ ... دَبِيبُ نِمَالٍ في نقاً يَتَهَيّلُ(٣)

ولعل السبب في تفوقه في هذه المقدمة هو ما كان من نصرانيته التي كانت تشفع له عند بني أمية فيقبلون منه ذلك كما يقول حسين عطوان(٤).

وقد قلَّ ورود هذه المقدمة عند كثير من شعراء المديح في العصر الأموي، وهذا يعود إلى تحريم الإسلام للخمر وخوف الشعراء من أن تسقط منزلتهم عند الممدوحين إن خالفوا تعاليم الإسلام. والمقدمة الخمرية كانت من الموروث الجاهلي في قصائد المديح وغيرها، ولكن هذا الموروث تعارض مع الإسلام، فألغى الشعراء المسلمون هذا التقليد من قصائدهم وابتعدوا عنه.

وقد وجد بعض الشعراء تغاضياً من بعض الممدوحين عن هذه المقدمة، فجهر بها في شعره، وكان الأخطل أحد الشعراء الأمويين الذين جاهروا بها، غير آبه بتعاليم الإسلام، ولعل تغاضي بعض خلفاء بني أمية نابع من حاجتهم إلى استمالة هذا الشاعر إلى جانبهم وتجنيده ضد خصومهم.

---

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، ص٤٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٤٦٧.

(٣) الأخطل، ديوان الأخطل، ج١، ص١٧.

(٤) د. حسين عطوان، مقدمة القصيدة في العصر الأموي، ص٧.

ثانياً: الرحلـــة:

وهذه الرحلة تقليد جاهلي درج عليه شعراء الجاهلية في بناء قصائدهم وسار على نهجهم كثير من شعراء العصر الأموي، وقليل من قصائد المديح في العصر الأموي هي تلك التي لا تشمل الرحلة، ولا بد من عودة إلى ما قاله ابن قتيبة حول تفسيره لمجيء الرحلة في هيكل القصيدة الجاهلية إذ يقول: "فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر، وسُرى الليل وحرّ الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير"(١)، ويؤيد هذا الرأي ابن رشيق القيرواني إذ يقول: "والعادة أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز، وما أنضى من الركائب، وما تجشم من هول الليل وسهره، وطول النهار وتهجيره، وقلة الماء وغؤوره"(٢).

ولم يكن الشاعر الأموي ليأتي بحديث الرحلة عبثاً في قصائده، ولكنه كان يرمي من وراء ذلك إلى أن يجاري الجاهليين فنياً؛ وبذلك تلقى قصيدته قبولاً لدى الممدوح ولدى النقاد، وثمة شيء آخر وهو أنّ النصب الذي عانى منه والأهوال التي تعرض لها وهو في طريقه للمدوح مما يستدر به عطف الممدوح، ويكون أوجب لإجابة طلبه، ويشير إلى ذلك صلاح الدين مصيلحي قائلاً: "إذ كان هم الشاعر الأموي أن يرضي نزعته الفنية في مجاراة الجاهليين، وأن يرضي الممدوح بتهويل ما لاقى في طريقه إليه من أهوال"(٣).

وحديث الرحلة ينطوي على أمور ثلاثة هي: وصف الناقة، ووصف الصحراء، وقصص الحيوان الوحشي(٤). ويظهر في حديث الرحلة بعد آخر وهو وصف رفيق الرحلة:

١ – **وصف الناقة:** الناقة وسيلة الرحلة؛ ولذلك حرص الشعراء على وصفها بالقوة؛ لتكون قادرة على تحمل المشاق، كما أطلقوا عليها أوصافاً حسية كالضمور وطول القامة.

---

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، ص٧٥.

(٢) ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج١، ص٢٢٦.

(٣) صلاح الدين مصيلحي، التقليد والتجديد في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، ص ١٣٩.

(٤) د. وهب رومية، قصيدة المديح حتى نهاية العصر الأموي بين الإحياء والتجديد، ص١٢٥.

ومن الشعراء الأمويين من أكثر من وصف الناقة، كالأخطل التغلبي الذي تبدو ناقته قوية، فهو تارة يشبهها بالصخرة كقوله:

هلْ تُبَلِّغُنِي يزيداً ذاتُ مَعْجَمَةٍ ... كأنّهَا صَخْرَةٌ صَمَّاء صَيْخُودُ[١]

ومرة يشبهها بالبرج كقوله:

كأنَّهَا بُرْجُ رومِيّ يُشَيِّدُهُ ... لُزَّ بجصّ وآجرٌ وأحْجَارِ[٢]

وناقة الأخطل التي يركبها ذاهباً إلى الممدوح ضامرة وسريعة تشبه الجمل في سرعتها وقوتها:

لعمري لقد أسْرَيْتُ لا ليلَ عاجزٍ ... بساهِمَةِ الخدينِ طاويةِ القُرْبِ
جُمَالِيَّةٍ، لا يدركُ العيسُ رَفْعَهَا ... إذا كنَّ بالرُّكْبَانِ كالقِيَمِ النُّكْبِ[٣]

وكذلك تبدو ناقة الفرزدق قوية، قد غطى أنفها الزبد من هول الرحلة، يقول:

عُذَافِرَةٌ حَرْفٌ تَنِطُّ نُسُوعُهَا ... مِنَ الذَّامِلاتِ الليلِ ذاتِ العَجَارِفِ
كأنَّ نَدِيفَ القُطْنِ أُلْبِسَ خَطْمَهَا ... بِهِ نَدْفُ أوتارِ القسيِّ النَوادِفِ[٤]

وقد تموت ناقة الفرزدق في بعض رحلاته من شدة الإعياء والتعب، فيتركها في الصحراء تأكلها الوحوش والطيور، يقول:

وأشْلاءٍ لناجيةٍ تركْنَا ... عليها العاكفاتُ مِنَ النُّسُورِ[٥]

وناقة جرير لا تقل قوة عن ناقة الفرزدق، فهو يشبهها بالفحل القوي، فيقول:

وحَمّلتُ أثقالي نَجاةً كأنَّها ... إذا ضَمَرَتْ بعدَ الكَلالِ فَنِيقُ[٦]

---

(١) الأخطل، ديوان الأخطل، ج١، ص٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٦٣.

(٣) الأخطل، ديوان الأخطل، ج١، ص٣٩. القُرب: جانب السرة من أسفل البطن، القيم: جمع قامة وهي الخشبة تعلق عليها البكرة، النكب: المائلة المنحرفة.

(٤) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص٩. عذافرة: ناقة شديدة،، الحرف: الهزيلة، النسوع: السيور، الذاملات: العاديات بسرعة، العجارف: العدو بسرعة دون مبالاة.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٨٤.

(٦) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص٣١٥. الفنيق: الفحل الضخم.

وقد يصيب الإعياء ناقة جرير وهي في طريقها إلى الممدوح من شدة السير وقطع المهامة، فيقول:

طواها السُرَى طيَّ الجُفُونِ وأُدْرِجَتْ مِنَ الضُّمْرِ حتى ما تَقَرُّ لها ضَفْرَا[١]

٢- **وصف الصحراء:** وصف الشعراء الأمويون الصحراء في شعرهم وهم في طريقهم إلى الممدوح،وهم يقطعون المهامة والقفار الموحشة، وما ذلك إلا لتصوير عناء الرحلة قبل الوصول إلى هذا الممدوح،فقد وصفوا حرّها وهجيرها، ووصفوا رياحها ورملها، ووصفوا طيورها وليلها ونهارها ونجومها، كقول الأخطل:

وَبَيْداءَ مِمْحَالٍ كأنَّ نعامَها بأرجائِها القُصْوى أباعرُ هُمّلُ
ترى لامعاتِ الآلِ فيها كأنَّها رجالٌ تَعَرَّى تارةً وتَسَرْبَلُ
ملاعِبُ جِنَّانٍ، كأنّ تُرَابَها إذا اطَّرَدَتْ فيه الرياحُ مُغَرْبَلُ
ترى الثعلب الحولي فيها كأنه إذا ما علا نشزا حصان مُجَلّل[٢]

ولا تختلف صورة الصحراء عند الفرزدق عنها عند الأخطل، إذ يصف طيورها وسرابها ومخاطرها فيقول:

وبيداءَ تغتالُ المَطيَّ قطعتُها بركّابِ هولٍ ليسَ بالعاجِزِ الوغْلِ
إذا الأرضُ سَدَّتْها الهواجِرُ وارتَدَتْ مُلاءَ سَمُومٍ لم يسدّينَ بالغَزْلِ
وكانَ الذي يبدو لنا مِن سَرَابِهَا فضولُ سيولِ البحرِ مِنْ مائِهِ الضَّحْلِ
ويدعو القَطَا فيها القَطَا فيجيبه توائمُ أطفالٍ من السَّبْسَب المَحْلِ[٣]

٣- **وصف حيوان الصحراء:** قد يرد وصف حيوان الصحراء في معرض حديث الشاعر عن رحلته، وذلك حين يشبه ناقته بهذا الحيوان، إذ يستطرد كثيرٌ من الشعراء في ذلك الوصف استطراداً كبيراً ثم يعود إلى وصف ناقته، وقد يرد ذكر

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص١٧٠. الضفر: حزام الرحل.

(٢) الأخطل، ديوان الأخطل، ج١، ص٢١،٢٢.

(٣) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص١٤٤. السموم: الريح الحارة، يسدين: من سدى الثوب: أقام سداه، والسدى من الثوب: ما مُدَّ من خيوطه.

الحيوان في غير هذا الموضوع كما يقول الأخطل في معرض وصفه الصحراء، إذ يصف ذئبا جائعا كئيبا فيقول:

طاوٍ كأنَّ دُخانَ الرِّمْثِ خالطَهُ ... بادي السَّغابِ طويلِ الفَقْرِ مُكْتَئِبِ[1]

على أن الفرزدق وجريرا لم يحفلا كثيرا بوصف حيوان الصحراء في رحلتهما، وقلما يوجد ذلك الوصف في أماديح الشاعرين كليهما، وأما النابغة الشيباني فقد تفوق في وصف حيوان الصحراء في معرض تشبيه ناقته بحمار الوحش، الذي يذكر قصته مع الكلاب مفصلا في ذلك ومتأنيا في الوصف، يقول:

كأنّهَا بعدَ جَهْدِ العينِ إذ ضَمَرَتْ ... مُوَلَّعٌ لَهَقٌ في وجهه خَنَسُ
باتَ إلى حِقْفِ أَرْطَاةٍ تُصَفِّقُه ... ريحٌ فلمَّا انْجَلى عن شَخْصِهِ الغَلَسُ
صَادَفَ خُوطاً قليلَ اللَّحمِ مُغْتَدياً ... من أهلِ دومَةَ صيدَ الوحشِ يَلْتمِسُ[2]

٤- **وصف الرفيق في الرحلة:** عمد بعض الشعراء إلى وصف من يصاحبهم إلى الممدوح، مصورين حالة الإعياء التي وصلوا إليها بسبب عناء السفر، يقول الأخطل في وصف أصحابه وقد بلغ بهم الإعياء بسبب اشتداد الحر، وقد كسا رؤوسهم بردائه ليتقوا حرّ الهاجرة:

وفتيةٍ غيرِ أنذالٍ رَفَعْتُ لَهُمْ ... سَحْقَ الرِّدَاءِ على عَلياءَ يَخْتَفِقُ
رَفَعْتُهُ وهوَ يَهْفُو في عَمَائِمِهِمْ ... كأنَّهُ طائِرٌ في رِجْلِهِ عَلَقُ[3]

ويصف الفرزدق رفقاءه ويشبههم بالسكارى من شدة الإعياء فيقول:

وغِيدٍ من الإدلاجِ تَحْسَبُ أنَّهُمْ ... سُقُوا بِنِتَ أحوالٍ تدارُ على الشَّرْبِ
تميلُ بهمْ حيناً وحيناً تقيمُهُمْ ... وهنَّ بنا مِثْلُ القِدَاحِ مِنَ القُضْبِ[4]

---

(١) الأخطل،ديوان الأخطل،ج١،ص٢٥٠. الطاوي:المهزول الجائع، الرمث: شجرأغبر اللون، السَّغاب: الجوع.

(٢) النابغة الشيباني، ديوان النابغة الشيباني، ص٨٢،٨٣. المولَّع: به نقط من سواد وبياض أشبه بالبرص، اللهق: الأبيض الذي ليس بذي بريق، الخنس: تأخر الوجه عن الأنف مع ارتفاع قليل في الأرنبة، الحقف: ما استطال واعوج من الرمل، الخوط: الرجل الخفيف.

(٣) الأخطل، ديوان الأخطل، ج٢، ص٦٠٥.

(٤) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٧٨. الغيد: المائلة أعناقهم من النعاس.

ويقول النابغة الشيباني واصفاً أصحابه وهم يعانون مشاق الرحلة في الصحراء:

قد جُبْتُها ورؤوسُ القومِ مائلةٌ ... مِنْ مَتّهِمْ ومن الإدلاجِ قد نَعَسُوا
كأنّهُمْ في السُّرى والليلُ غامِرُهُمْ ... إذْ كلّموكَ مِنَ الآساد قد خَرِسُوا
لم يبقَ مِنْهُم وقَدْ مالت عَمَائِمُهُمْ ... مُعَانِقِي المَيْسِ، إلا الرّوحُ والنَّفَسُ[1]

وهذه صورة رائعة تصور معاناة قوم أرهقهم النعاس وبدوا عاجزين عن الكلام ولم يبق منهم إلا الروح والنفس.

ثالثاً: الغرض الرئيسي (المدح):

بعد أن ينتهي الشعراء من الوقوف بديار قومهم وبكائها، وبعد أن ينتهوا من الغزل بمحبوباتهم ووصف ظعائنهن، وبعد أن يرحلوا إلى الممدوح مصورين العنت الذي لاقوه في رحلتهم الشاقة، يصلون إلى الممدوح، ويبدأون في الحديث عن غرضهم الرئيسي الذي بنوا قصائدهم من أجله وهذا الغرض هو المدح. والمتتبع لمديح الشعراء في العصر الأموي يرى أنّ المدح لا يقتصر على الممدوح نفسه، بل يتعداه إلى قومه، كما يتعداه إلى الخليفة إن كان الممدوح أحد الولاة، أو يتعداه إلى والد الممدوح إن كان الممدوح ابناً للخليفة.

وقد تشعبت أغراض قصيدة المديح في العصر الأموي، إذ افتخر بعض الشعراء بأنفسهم وبقومهم، وهجوا خصومهم وخصوم الممدوح، وقد تطرق بعض الشعراء إلى الشكوى للممدوح مما يعاني منه قوم الشاعر من نواح سياسية واقتصادية وأمنية. كما قد يبدي بعض الشعراء النصح والمشورة للممدوح فيما يتعلق ببعض الأمور السياسية.

وقد مدح الشعراء ممدوحيهم بصفات كثيرة منها الكرم وشرف النسب، والتقوى ومحاربة الفساد والعدل، والشجاعة، وصوروا حروب الممدوح مع أعداء الدولة، كما قاموا بتسجيل مآثر الممدوح في مجال الإصلاحات العمرانية، كما أشاروا إلى ما أسداه الممدوح لهم ولقومهم من معروف، كأن يقوم بحماية الشاعر، أو يرفع الظلم عنه وعن قومه. ولكي تتضح الصورة لا بدّ من استعراض بعض الأمثلة من قصائد المديح في العصر الأموي؛ ولتكن قصيدة "خفّ القطين"[2] للأخطل هي إحدى هذه القصائد؛ فقد

---

(١) النابغة الشيباني، ديوان النابغة الشيباني، ص٨١،٨٢. المتّ: المدّ، الإدلاج: السير أول الليل.

(٢) الأخطل، ديوان الأخطل، ج١، ص١٩٢.

بدأ الأخطل قصيدته "بمقدمة الظعن" ثم استطرد في وصف الخمرة، ثم عاد إلى الظعائن مرة أخرى، ثم خلص بعد ذلك إلى مدح الخليفة عبد الملك بن مروان، فوصفه بأنه كثير العطاء مؤيد من الله، طاهر نقي السريرة يستسقي المسلمون به فيقول:

الخائِضُ الغَمْرِ والميمونُ طائِرُهُ خليفةُ اللهِ يُسْتَسْقَى بهِ المَطَرُ

والخليفة في كرمه مثل الفرات، بل هو أكرم من الفرات، ثم ينتقل الشاعر إلى لوحة أخرى، فيذكر منزلة قومه عند الخليفة، ثم يصور بعض استعدادات الخليفة للقتال، ثم ينتقل إلى قوم الممدوح فيصورهم بأنهم منصورون من الله، ونسبهم يفوق كل نسب كما يقول:

شُمْسُ العَدَاوةِ حتى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا

ثم ينتقل إلى مشهد آخر حين يبيّن فضله على بني أمية، وكيف ناضل عنهم بني النجار، ثم يبدي النصح لبني أمية قائلاً:

بني أُمَيّةَ إني نَاصِحٌ لَكُمُ فلا يَبِيْتَنَّ فِيْكُمْ آمِناً زُفَرُ

ثم ينتقل إلى الفخر بقومه ويبيّن فضلهم على بني أمية في مناصرتهم لهم،ثم ينتقل الشاعر إلى هجاء قيس عيلان خصوم الخليفة،ثم ينتقل إلى هجاء جرير وقومه فيقول:

أمّا كليبُ بنُ يربوعَ فليسَ لَهُمْ عند التَّفَارُطِ إيرادٌ ولا صَدَرُ

ويستمر الأخطل في هذا الهجاء حتى نهاية القصيدة.

وهكذا يمكن القول إن القصيدة عند الأخطل لم تقتصر على المدح، فقد تجاوزته إلى الفخر والهجاء، وهكذا الأخطل "إذا انتقل إلى غرضه الرئيسي حرص على تقسيم هذه العناصر متأنياً متمهلاً في غير عجلة واندفاع، فنراه ينشئ مقطعاً يبرز فيه شخصية الممدوح، وآخر يشيد فيه بمآثر قوم الممدوح، وقد يمهد للمقطعين بمقطع يتناول فيه أطماعه التي يرتجيها عند الممدوح، أو يفرغ منها مقطعاً يصور فيه وقعة كان للمدوح بلاء فيها، أو يذكر في مقطع آخر يدا للمدوح تستحق الإشادة والذكر"[1].

ولا يختلف الفرزدق عن الأخطل كثيرا في تعدد الأغراض في قصيدته التي مدح بها سليمان بن عبد الملك ومطلعها:

---

(١) السيد مصطفى غازي، الأخطل شاعر بني أمية، ص١٥١.

وكيفَ بنَفْسٍ كُلَّمَا قُلْتُ أَشْرَفَتْ على البَرْءِ مِنْ حَوصَاءَ هِيضَ انْدِمَالُها[١]

فالفرزدق يستهل قصيدته بذكر اعتلال صحته بسبب فراق أحبابه، ثم ينتقل إلى تصوير المعاناة التي ألمت به وبزوجته وأولاده جراء الفقر، فيقول:

وسوداءَ في أهْدَام كَلِّينَ أَقْبَلَتْ إلينا بهم تمشي وَعَنَّا سُؤَالُهَا
على عَاتِقَيْهَا اثنانِ مِنْهُمْ، وإنَّها لَتُرْعَدُ قد كادتْ يُقِصُّ هُزَالُها[٢]

ثم ينتقل إلى الممدوح فيذكر بعض مآثره في بيتين اثنين، ثم يتحدث عن رحلته، ثم يعود إلى المدح ثانية، فيذكر كرم الممدوح على قومه، ثم ينتقل إلى الفخر بقومه، ويفصل في ذلك بعض التفصيل، ثم ينتقل إلى هجاء الحجاج، ثم يعود مرة أخرى إلى الممدوح فيطنب في ذكر صفاته واصفا إياه بالكرم وإطلاق الأسرى البائسين، كما يضفي عليه وعلى قومه مهابة دينية فيقول:

وجَدْنَا بني مروانَ أوتادَ دينِنا كَمَا الأرضُ أوتادٌ عليها جِبَالُها
وأنْتُمْ لهذا الدينِ كالقبلةِ التي بِهَا إن يَضِلَّ الناسُ يهدي ضَلالُها[٣]

ويمكن القول إن الفرزدق مزق قصيدة المدح تمزيقا بما يتخللها من فخر وهجاء واستطرادات كثيرة، وهذا هو صوت الفرزدق في كثير من قصائده المدحية.

وفي نهاية المطاف يمكن القول إن تأثير الإسلام في هيكل قصيدة المديح في العصر الأموي كان ضعيفا؛ إذ بقيت معظم الموروثات الجاهلية التي تتعلق بالهيكل العام لهذه القصيدة، واستمر الشعراء ينظمون قصائدهم على غرار قصائد الجاهليين، مع شيء من التفاوت بين الشعراء في هذا الأمر، فقد ظهرت معظم أنواع المقدمات من طللية وغزلية وخمرية ووصف للظعائن ومقدمة الشيب والشباب ومقدمة الطيف.

وهذا الضعف في تأثير الإسلام في هيكل القصيدة يقود إلى أمر آخر، وهو أن الإسلام لم يعترض على شكل القصيدة، ولم يحاول أن يملي شكلا معينا للقصيدة ينبغي ألا تتعداه، بل أعطى الشعراء الحرية في اختيار الشكل الذي يرغبون فيه، فلا يوجد

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص٧١. حوصاء، من الحوص: المغص وأراد به هنا جرحا، هيض اندمالها: نكس برؤها.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٢. الأهدام واحدها هدم: وهو الثوب البالي، الكَلِّين: مفردها كَلٌّ وهو اليتيم الضعيف، يُقِصُّ هزالها: يُقصِّها (يدنيها) من الموت.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٦.

نص صريح يدل على اعتراض الإسلام على هيكل القصيدة، لا من الرسولﷺ، ولا من صحابته، بل هناك ما يدل على أنّ رسول الله استمع للشعراء وهم يمدحونه، فلم يعترض على مقدمات قصيدة كعب بن زهير التي ألقاها أمام الرسولﷺ، مادحاً ومستعطفاً ومعتذراً، وكان لهذه القصيدة أثر كبير في نفس رسول الله، إذ عفا عن قائلها، وألبسه بردته إعجاباً بهذه القصيدة، وخاصة ما ورد فيها من معانٍ إسلامية، وما فيها من مدح للمهاجرين[١]. وهذا يؤدي إلى القول إنّ اعتراض الإسلام كان منصباً على المضمون دون الشكل، إذ وقف الإسلام موقفاً وسطاً من الشعر بشكل عام، وكان هذا الموقف يتماشى مع تعاليم الإسلام؛ فما وافق هذه التعاليم قبله، وما عارضها لم يرض عنه؛ لذلك اتجه الشعراء إلى استلهام الإسلام، وتوظيف قيمه الجديدة في أشعارهم في إطار السير على نهج القصيدة الجاهلية، دون تغيير يذكر في هيكلية القصيدة، ولم يظهر تأثير الإسلام إلا في الغرض الرئيس، وذلك عندما تناول الشعراء المديح بالمعاني الدينية، إذ كان تأثير الإسلام واضحاً في الغرض الرئيس شكلاً ومضموناً، وهذا ما سيتم الحديث عنه لاحقاً.

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد التاسع، ص٦١.

المبحث الثاني

البـنـاء اللـغـوي

الصورة الفنيَّة:

اهتم النقاد القدامى بدراسة الصورة الشعرية، ولم يأت هذا الاهتمام بالصورة الشعرية مستقلاً، بل كان من دراستهم بعض القضايا النقدية مثل قضية اللفظ والمعنى والصدق والكذب والسرقات الأدبية. ولعل الجاحظ من أوائل الذين بحثوا في قضية اللفظ والمعنى، وقد أشار إلى أهمية الصورة قائلاً: "فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير"(١) ويضيف الجاحظ قائلاً: "والشعر الذي يسرع إلى القلب قبوله ذلك الذي يصور لنا ما يدهشنا ويحسن تركيب الكلمات، وإنما الكلمات صور وعلامات وخلق مؤثل ودلالات"(٢).

أمّا ابن رشيق القيرواني فقد عبر عن الصورة بطريقة أخرى حين قال: "أبلغ الوصف ما قلب السمع بصراً"(٣). ولا يقل عبد القاهر الجرجاني عن غيره اهتماما بالصورة فقد تحدث عنها في معرض حديثه عن اللفظ والمعنى قائلاً: "ومعلوم أن سبيل الكلام التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يُعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يُصاغ منهما خاتم أو سوار"(٤). ويعرّف عبدالقاهر الجرجاني الصورة بقوله: "واعلم أنّ قولنا الصورة: إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا"(٥). ويرى إحسان عباس أن عبد القاهر يؤمن "بأن الصورة هي أساس الشعر، بل هي الشعر نفسه"(٦).

---

(١) عمرو بن بحر الجاحظ، ت(٢٥٥هـ/٨٦٨م)، الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ط٣، دار الجيل، بيروت، ١٩٦٩، ج٣، ص١٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٥٢.

(٣) ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج٢، ص٢٩٥.

(٤) عبد القاهر الجرجاني، (ت٤٧١هـ/١٠٧٨م)، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد التنجي، ط١، دار الكتاب العربي، ١٩٩٥م، ص٥٧.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٦٨.

(٦) د. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط٢، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٤٣٤.

أما النقاد المحدثون، فقد تعرضوا لمفهوم الصورة، فعرّفها بعضهم "بأنها طريقة خاصة من طرق التعبير، أو وجه من أوجه الدلالة، حيث تنحصر أهميته فيما تحدثه من خصوصية وتأثير في معنى من المعاني، ومهما كانت هذه الخصوصية أو ذلك التأثير فإن الصورة لن تغيّر من طبيعة المعنى ذاته"(١) ويعرفها علي البطل بأنها "تشكيل لغوي، يكون خيال الفنان من معطيات متعددة، يقف العالم المحسوس في مقدمتها، فأغلب الصور مستمدة من الحواس إلى جانب ما لا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية، وإن كانت لا تأتي بكثرة الصور الحسية، أو يقدمها الشاعر أحيانا كثيرة في صور حسية"(٢). والصورة عند مصطفى ناصف "منهج فوق المنطق لبيان حقائق الأشياء"(٣).

ومن هذه الآراء القديمة والحديثة يبقى مفهوم الصورة غير محدد المعالم، ولم يجمع النقاد على تعريف جامع مانع لمفهوم الصورة بسبب ما يلف هذا المفهوم من غموض، فالنقد القديم اقتصر على الصورة البلاغية، وتعداه النقد الحديث إلى نوعين من الصورة هما: الصورة الذهنية، والصورة باعتبارها رمزا، ويمثل كل واحدٍ من هذه الأنواع اتجاها قائما بذاته في دراسة الأدب الحديث(٤). وستقوم هذه الدراسة بالتطرق إلى دراسة الصورة الشعرية في قصيدة المديح في العصر الأموي من خلال الموضوعات التي طرقها الشعراء التي تشكل مصدر الصورة الشعرية عندهم.

صورة الممدوح:

تبدو صورة الممدوح في قصيدة المديح في العصر الأموي ناصعة، تستأثر بنصيب الأسد من هذه القصيدة، فقد صوّر الشعراء الممدوح مرة بصورة التقي الورع الذي تزينه المهابة والوقار، ومرة أخرى بصورة الإمام العادل أو الفارس الشجاع، ومرة بصورة الكريم المعطاء. ففي مجال الكرم، لم يكن هناك تجديد فيما تناوله الشعراء حين ينسبون صفة الكرم إلى ممدوحيهم، واقتصروا على الصور المستمدة من

(١) د. جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط٢، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٣٢٣.

(٢) د. علي البطل، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، ط٢، دار الأندلس، ١٤٠١هـ/١٩٨١، ص١٢٠.

(٣) د. مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، مكتبة مصر، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، ص٨.

(٤) د. علي البطل، الصورة الشعرية حتى آخر القرن الثاني الهجري، ص٦٠.

الشعر الجاهلي في معظم صورهم المتعلقة بالكرم، فهذا الأخطل يشبه ممدوحه بالفرات، وهذه صورة ليست جديدة، فيقول:

إذا عَدَلْتَ بهِ رجالاً لم تجدْ فيضَ الفُراتِ كراشحِ الأَوْشَالِ[١]

ويستخدم نصيب بن رباح كنايات وردت في الشعر العربي،ويصور ممدوحه بصورة الكريم المعطاء ويكني عن ذلك بأن بابه لين،وداره دائما عامرة بالمعتفين فيقول:

فبَابُكَ أَلْيَنُ أبوابِهِمْ ودارُكَ ماهولةٌ عامِرَةْ
وكَلْبُكَ آنسُ بالمعتفينَ مِنَ الأم بابنَتِها الزَائِرَةْ[٢]

أما في مجال المدح بالمعاني الدينية، فقد تأثر كثير من شعراء المديح في العصر الأموي بالإسلام، وظهر أثر القرآن الكريم واضحا في صورهم الشعرية التي رسموها لممدوحيهم، وقد استأثر القصص القرآني بنصيب وافر من الصور الفنية التي وردت في شعرهم، كقول الفرزدق يمدح أيوب وأباه سليمان بن عبد الملك، مشبها إياهما في عدلهما بين الرعية بداود وابنه سليمان عليهما السلام:

فأصبحتُمَا فينا كداودَ وابنِهِ على سنَّةٍ يَهدي بها مَنْ يَسِيْرُهَا[٣]

وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾[٤]

ويفعل جرير الشيء نفسه حين يمدح أيوب بن سليمان، يقول:

كونوا كيوسفَ لمَّا جاءَ أخوتُهُ واستَعْرَفُوا، قالَ: ما في اليومَ تَثْرِيبُ
اللهُ فَضَّلَهُ واللهُ وَفَّقَهُ توفيقَ يوسفَ إذ وصاهُ يعقوبُ[٥]

وهذا إشارة إلى قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وإشارة إلى وصية يعقوب عليه السلام ليوسف.

ويوالي جرير التأثر بالصور القرآنية، فعندما مدح عمر بن عبد العزيز بتوليه الخلافة، استمد صورته من قصة موسى عليه السلام في مدين، يقول:

---

(١) الأخطل، ديوان الأخطل، ج١، ص١٤٢.
(٢) نصيب بن رباح، ديوان نصيب، ص٩٩.
(٣) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٢٤٧.
(٤) الأنبياء، الآية ٧٨.
(٥) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص ٣٥.

نـالَ الخـلافـةَ إذ كـانَـتْ لـه قَـــدَراً كَمَـا أتـى مـوسـى رَبُّـه علـى قَـدَرِ[١]

وهذه الصورة استمدها الشاعر من قوله تعـــالى فـــي ســـوره طـــه: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾[٢]

ويرسم جرير صورة للحجاج بن يوسف وهو يحـــارب البـــدع والفســـاد ويدعـــو علـــى المفسدين في الأرض مثل دعاء نـــوح عليه السلام، فيقـــول:

دَعَـا الحَجَّـاجُ مِثْلَ دُعَـاءِ نـــوحٍ فاسْمَعَ ذا المعـارجِ فاسْتَجَابَـا[٣]

وفي هذا إشارة إلى دعاء نوح عليه السلام حين دعا علـــى الذيـــن كفـــروا مـــن قومـــه، فـــي قوله تعـــالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾[٤]

كما يشير ذو الرمة إلى حلم لقمان وحكمته مستمدا ذلـــك مـــن آيـــات القـــرآن الكريـــم، وذلك حين يمدح بلال بن أبي بـــردة قـــائلا:

أبـيتَ أبـا عمـــرٍو بـلالَ بنَ عـامِـرٍ من العيبِ في الأخلاقِ إلا تَرَاخِيَا
تُقـىً للذي فـــوقَ السَّماء ونجـــدةً وحِلماً يساوي حِلْمَ لقمانَ وافِيَـا[٥]

وفي هذه الصورة إشارة إلى قولـــه تعـــالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾[٦]

وقد يبدو الممدوح مجاهدا في سبيل الله في شـــعر كثـــير مـــن هـــؤلاء الشـــعراء الذيـــن يستمدون صورهـــم مـــن الصـــور الإســـلامية حيـــن يريـــدون إظـــهار هـــذه الفضيلـــة فـــي ممدوحيهم، كقول أعشى همدان يستعطف الحجاج ويقـــدم لذلـــك بـــالمديح مصـــورا شـــجاعته في محاربة المفســـدين:

أبَـــى اللهُ إلا أن يُتَـــمَّ نـــــورَهُ ويُطْفِئَ نارَ الفاسقينَ فَتَخْمُدَا[٧]

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص٣٥.

(٢) طه، الآية ٤٠.

(٣) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص٢٩.

(٤) نوح، الآية ٢٦.

(٥) ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، ج٢، ص١٣١٩.

(٦) لقمان، الآية ١٢.

(٧) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد الثالث، ص٣٣٢.

وواضح أن الشاعر استمد صورته من قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾(١)

وكقول أبي دهبل الجمحي يمدح عثمان بن عبد الله بن الحكيم:

هو التاركُ المالَ النَّفيسَ حَمِيَّةً ... وللموتِ من بعضِ المعيشةِ أرْوَحُ
وجادَ بنفسٍ لا يُجَادُ بمثلِها ... لَهَا لَوْ أقرَّتْ خُزْيَةٌ مُتَزَحْزَحُ(٢)

وتبدو الصورة إسلامية، استمدها الشاعر من معاني القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾(٣)

وتتكرر الصورة نفسها عند الفرزدق في مديحه الحكم بن أيوب، إذ يصوره مجاهداً في سبيل الله يجود بنفسه، أملاً في نيل الثواب من الله جلّ وعلا، يقول:

صَبَرْتَ به نفساً عليكَ كريمةً ... وقد علموا ألا تَضُنَّ بها بخلا
تجودُ بها لله ترجو ثوابَهُ ... وليس بمعطٍ مِثْلَها أحدٌ بَذْلاَ(٤)

وثمة صورة أخرى رسمها الفرزدق لأعداء الممدوح، إذ جعلهم ملحدين في المسجد الحرام يجب قتالهم كما أمر الله، يقول في معرض مديحه سيوف بني أمية التي فتكت بابن الزبير في مكة:

بِهِنّ لَقُوا بمكّةَ مُلْحِديهَا ... ومَسْكِنَ يحسنونَ بها الضِّرَابَا(٥)

ولا شك أن الفرزدق استوحى هذه الصورة من قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٦)

ويستمر الفرزدق في استيحاء صوره من القرآن الكريم، مصوراً ممدوحه بالشجاعة في الحرب والعفو عند المقدرة، فيقول:

---

(١) الصف، الآية ٨.
(٢) أبو دهبل الجمحي، ديوان أبي دهبل الجمحي، ص٨٠.
(٣) التوبة، الآية ٢٠.
(٤) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص١٢٨.
(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٢.
(٦) الحج، الآية ٢٥.

العاصبِ الحربَ حتى تستقيدَ له بالمشرفيّةِ والعافي إذا قَدَرَا[١]

وتبدو الصورة في الشطر الأول تقليدية، ولكنها في الشطر الثاني مستوحاة من قوله تعالى: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٢]

وتبرز صورة الممدوح المجاهد في سبيل الله بروزاً واضحاً في شعر الخوارج، فهذا عيسى بن فاتك يمدح الخوارج واصفاً انتصارهم على رجال بني أمية، على الرغم من قلة جنود الخوارج، فيقول:

هُمُ الفئةُ القليلةُ غيرَ شَكٍّ على الفئةِ الكثيرةِ يُنْصَرُونَا[٣]

وفي هذه الصورة تأثر واضح بالقرآن الكريم وإشارة إلى قوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٤]

أمّا الصور المستوحاة من المعاني الإسلامية المتعلقة بالقضاء والقدر فكثيرة، وخاصة ما يتعلق بأمور الخلافة وفكرة الجبر والاختيار، إذ استوحى كثير من الشعراء المداحين في العصر الأموي صورهم من هذه المعاني، كقول عدي بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك مشيراً إلى توليه الخلافة بعد أبيه عبد الملك:

وقضى لك الله الخلافة بعده وقضاء ربك نافذ مفعول[٥]

وكقول جرير يمدح عبد الملك بن مروان مشيراً إلى أنه تولى الخلافة بقضاء الله وقدره، يقول:

الله طوّقكَ الخلافةَ والهدى والله ليس لِمَا قَضى تَبْدِيلُ[٦]

ولا يخفى ما في البيتين السابقين من تأثر بمعاني القرآن الكريم في موضوع القضاء والقدر، إذ استوحى الشاعران كلاهما صورتيهما من قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[٧]

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٢٣١.

(٢) آل عمران، الآية ١٣٤.

(٣) إحسان عباس، ديوان الخوارج، ص٦٨.

(٤) البقرة، الآية ٢٤٩.

(٥) عدي بن الرقاع، ديوان عدي بن الرقاع، ص١٦٠.

(٦) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص٣٨٠.

(٧) الأحزاب، الآية ٣٦.

وثمة تأثر واضح بمعاني القرآن الكريم يظهر في مدح جرير هشام بن عبدالملك، مشيراً إلى فضل الله عليه عندما أتمَّ له ملكه وأسبغ نعمته عليه، يقول:

أتمَّ الله نعمتَهُ عَلَيْكُمْ وزادَ اللهُ مُلْكَكُمُ تَمَامَا[١]

وهذا استيحاء من القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾[٢]

وحين يصف شعراء المديح في العصر الأموي ممدوحيهم بالتقوى، فإن كثيراً منهم يستوحي بعض صوره من المعاني الإسلامية المتعلقة بالتقوى، كقول كثيّر عزة يمدح عمر بن عبد العزيز بتركه الدنيا، يقول:

تَرَكْتَ الذي يَفْنَى وإنْ كَانَ مُونِقاً وآثَرْتَ ما يَبْقَى براي مُصَمِّمِ[٣]

وهذه الصورة مستوحاة من قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا ﴾[٤]

ويصور الفرزدق ممدوحه بصورة المؤمن التقي الذي يحمل الأمانة التي عجزت الأرض عن حملها، فيقول:

حُمِّلْتَ الذي لم تحملُ الأرضَ والتي عليها فأدّيتَ الذي أنتَ حامِلُهْ[٥]

والبيت فيه تأثر واضح بالقرآن الكريم، إذ استوحى الشاعر صورته من قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا ﴾[٦]

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص٤٠٩.

(٢) المائدة، الآية ٣.

(٣) كثيّر عزة، ديوان كثيّر عزة، ص٣٣٥.

(٤) النساء، الآية ٧٧.

(٥) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص٩٠.

(٦) الأحزاب، الآية ٧٢.

ويصف جرير ممدوحه بأنه يجمع بين الدنيا والآخرة في العمل لهما، فيقول في مدح عبد العزيز بن الوليد:

فَلَا هوْ مِنَ الدنيا مُضِيعٌ نَصِيبَهُ ولا عَرَضُ الدنيا عَنِ الدينِ شاغِلُهْ[١]

وهذا البيت فيه صورة مستوحاة من قوله تعالى: ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾[٢]

وتبدو صورة الممدوح في أبهى أشكالها وهو يقوم الليل يقرأ القرآن أملا في الفوز بالجنة، ويظهر ذلك في مدح جرير عمر بن عبد العزيز قائلا:

أنت المبارك والمهدي سيرته تعصي الهوى وتقوم الليل بالسور[٣]

ويفعل النابغة الشيباني الشيء نفسه حين يصور يزيد بن عبد الملك يقوم الليل يقرأ القرآن ويركع ويسجد، وينتحب خوفا من الله وأملا في ثوابه، يقول:

يَقْطَعُ اللّيلَ آهةً وانْتِحَابَا وابْتِهَالاً لله أيَّ ابْتِهَالِ
تارةً راكعاً وطوراً سُجُوداً ذا دُموعٍ تَنْهَلُّ أيَّ انْهِلَالِ[٤]

ومن الواضح أن هذه الصورة والتي قبلها استوحاهما الشاعران من المعاني الإسلامية ومن الفضيلة التي كان يتحلى بها رسول الله ﷺ وصحابته وكثير من المسلمين، ألا وهي قيام الليل، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾ [٥]، وفي قوله تعالى: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾[٦]

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٣٤٩.
(٢) القصص، الآية ٧٧.
(٣) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٢١٠.
(٤) النابغة الشيباني، ديوان النابغة الشيباني، ص١٤٥.
(٥) الفرقان، الآية ٦٤.
(٦) المزمل، الآية ٢٠.

ويلح شعراء المديح في العصر الأموي على إبراز صورة الممدوح الذي يحكم بما أنزل الله مستمداً أحكامه من القرآن الكريم، ويظهر ذلك في قول جرير يمدح عبدالملك بن مروان:

لولا الخليفةُ والقرآنُ يقرأُهُ ... ما قامَ للناسِ أحكامٌ ولا جُمَعُ[١]

ويرسم جرير الصورة نفسها للخليفة يزيد بن عبد الملك مصوراً حرصه على شؤون رعيته، فيقول:

أنتَ المُبَارَكُ والميمونُ سيرَتُهُ ... لولا تُقَوِّمُ دَرْءَ الناس لاخْتَلَفُوا[٢]

وهاتان الصورتان استوحاهما جرير من معاني القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾[٤]

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٢٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٨.

(٣) البقرة، الآية ٢٥١.

(٤) الحج، الآية ٤٠.

اللغـــة والأســلـــوب

تعد اللغة عنصراً من عناصر التجربة الشـــعرية؛ لأنـها وسـيلة الشـاعر لنقـل هـذه التجربة وإبرازها للقارئ أو السامع. "واللغة مادة الأديـــب، وهـــي تتكـون مـن لبنـات هـي المفردات، وقد وضع النقـــاد مقـاييس لـهذه المفـردات منـها: الدقـة والإيحـاء والسـهولة والطرافة والشاعرية والرقـــة"(١).

ولم يغفل النقاد القدامى قضية اللغة، بل اهتموا بـــهذا العنصـــر، وأدركـوا أهميتـه فـي بناء العمل الأدبي، فدعا بعضهم إلـى البعـد عـن اسـتعمال وحشـي الكـلام، والبعـد عـن استعمال اللغات النادرة عنـد العـرب(٢). كمـا طلبـوا مـن الشـعراء أن تخـرج قصـائدهم كالنثر في السهولة والانتظـــام(٣).

أما ابن رشيق القيرواني، فكان يـــرى أن للشـعر ألفاظـاً معروفـة، وأمثلـة لا ينبغـي للشاعر أن يعدوها، ولا أن يســـتعمل غيرهـا(٤). ويجاريـه ابـن الأثيـر الجـزري فـي أن هناك كلمات تصلح للشعر ولا تصلـح للنـثر(٥).

أما النقاد المحدثون فقد رأوا أن تبتعد القصيدة في لغتـها عـن الشـعبية(٦)، كمـا عـدوا سلامة اللغة من التجاوزات اللغوية من نحو وصـــرف شـرطاً مـن الشـروط الجماليـة فـي القصيـدة(٧).

---

(١) د. أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، بدون تاريخ، ص٤٧٤.

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، ص٤٥، ٤٦.

(٣) أبو هلال العسكري (ت٣٨٢هـ/٩٩٢م)، كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م، ص١٦٥،١٦٦.

(٤) ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج١، ص١٢٨.

(٥) ابن الأثير الجزري (ت٦٣٧هـ/١٢٤٠م)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٥٩هـ/١٩٣٩م، ج٢، ص٢٣٦.

(٦) شوقي ضيف، التطور والتجديد في العصر الأموي، ص٣٦٣.

(٧) يوسف بكار، بناء القصيدة العربية، ص١٩١،١٩٢.

وعند النظر في قصيدة المديح في العصر الأموي، فإن المتتبع للمفردات اللغوية فيها، لا يجد اختلافاً كبيراً بينها وبين القصيدة الجاهلية؛ فقد سار كثير من الشعراء الأمويين في بناء قصائدهم على النهج الجاهلي، واعتمدوا على الألفاظ التي تصطبغ بصبغة الجاهلية عند تعرضهم للموضوعات التقليدية المتعلقة بوصف الديار والبكاء عليها ووصف الراحلة والرحلة، ولا يكاد القارئ لشعرهم أن يفرق بينه وبين الشعر الجاهلي. فالأخطل عند طرقه للموضوعات التقليدية، يستعمل ألفاظاً قديمة مثل قوله (مسحنفر، مصطخداً، مسانيف، هَيْق، أعابلة، شاصيات، العرمس، السماحيق). وكذلك يفعل الفرزدق الشيء نفسه، إذ يحذو حذو الجاهليين في لغتهم وربما تفوق على بعضهم في وعورة ألفاظه وخشونتها، فقد استعمل ألفاظاً مثل (الخوقاء، الخوص، الصياهب، الشكائب، الثايات، الأصالف، الظلائف، النفانف، الديمومات، الرضراضة).

أما جرير فإنه أقل تأثراً بالجاهليين من الأخطل والفرزدق، فمفرداته الشعرية تميل إلى السهولة والبعد عن غريب القول، ولكن فيها شيء من الجزالة، وإن كان فيها بعض الألفاظ الغريبة الوحشية مثل (الذعاليب، الشرامخ، الأضاميم)، ولكنَّ هذه الألفاظ قليلة إذا ما قيست بألفاظ الفرزدق والأخطل.

وعندما يتحول الشعراء من مقدمات قصيدة المديح، ويصيرون إلى الغرض الرئيس، فإن الأمر يختلف اختلافاً كبيراً من حيث استعمالهم لمفردات اللغة، إذ يلاحظ القارئ لهذه القصيدة أنّ الألفاظ تميل إلى الجزالة والقوة والوضوح والبعد عن وحشي الكلام وعورته. واللافت للنظر في هذه الألفاظ هو اعتماد كثير من الشعراء على المفردات ذات الطابع الإسلامي والمستمدة في معظمها من القرآن الكريم، وهذا ما يبدو بوضوح في شعر كثير من شعراء المديح في العصر الأموي، إذ ظهر أثر الإسلام في الشعر الذي تناولته هذه الدراسة، وبرزت ألفاظ إسلامية مثل التقوى والعدل والجهاد والخلافة والإمامة، وهذه الألفاظ وردت كثيراً؛ لأنها عناوين رئيسة في هذا العمل، فليس ثمة حاجة لتكرارها، وتسهيلاً لدراسة أثر الإسلام في اللغة في شعر شعراء المديح في العصر الأموي، يمكن وضعها تحت العناوين الآتية:

ألفاظ النبوة والكتب السماوية:

وردت أسماء الكتب السماوية وخاصة القرآن الكريم والتوراة والزبور في كثير من شعر هؤلاء الشعراء، كقول جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

لولا الخليفةُ والقرآنُ يقرأُهُ ... ما قام للناس أحكامٌ ولا جُمَعُ[١]

وكقول أيمن بن خريم في معرض مدحه بني هاشم:

وَلِيتُمْ بالقرآنِ وبالتَّزَكّي ... فأسرَعَ فيكُمُ ذاكَ البَلاءُ[٢]

كما ورد ذكر التوراة والزبور في قول جرير يمدح أيوب بن سليمان:

أنتَ الخليفةُ للرحمنِ يعرفُهُ ... أهلُ الزَّبُورِ وفي التوراةِ مكتوبُ[٣]

وكقول الفرزدق:

أنتَ الذي نَعَتَ الكِتَابُ لنَا ... في نَاطِقِ التوراةِ والزُّبُرِ[٤]

أما أسماء الأنبياء والرسل، فقد وردت أيضا في هذا الشعر، ويدل ذلك على تأثر معظم هؤلاء الشعراء بالقرآن الكريم، كقول الفرزدق يمدح معاوية بن هشام:

وَرِثُوا تراثَ محمدٍ، كانوا بِهِ ... أَوْلى، وكَانَ لَهُمْ مِنَ الأَقْسَامِ
كانَتْ خلافَتُهَا لآلِ محمدٍ ... لأبي الوليدِ تراثُهَا وهِشَامُ[٥]

ويذكر جرير في شعره أسماء الأنبياء، فيقول مادحا الحجاج:

دعا الحَجَّاجُ مِثْلَ دُعَاءِ نُوحٍ ... فاسْمَعَ ذا المَعَارِجِ فاسْتَجَابَا[٦]

وكقوله أيضا في مدح أيوب بن سليمان:

الله فَضَّلَهُ والله وفَّقَهُ ... توفيقَ يوسفَ إذ وصاهُ يعقوبُ[٧]

---

(١) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٢٧٨.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد العاشر، ص٤٢٣.

(٣) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٣٤.

(٤) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٢٤٦.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٣، ٢٨٤.

(٦) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٢٩.

(٧) المصدر نفسه، ص٣٥.

أمّا ألفاظ النبوة فقد جاء بها بعض الشعراء ليقرّبوا الممدوح من النبيﷺ، فهذا الفرزدق يمدح يزيد بن عبد الملك قائلاً:

هل تعلمونَ بني أُمَيّةَ قاتَلُوا ... إلا بسيفِ نُبُوّةٍ لم يُفْلَلِ
ضربوا بحقِّ نبوةٍ كانَتْ لَهُمْ ... وسيفِ أُسْدِ خَفِيَّةٍ لم تَنْكُلِ[١]

وكذلك ترد ألفاظ النبوة في شعر جرير بن عطية في مدحه خلفاء بني أمية، إذ يقول مادحاً عمر بن عبد العزيز:

أنتَ ابنُ الخَضّارِمِ من قريشٍ ... هُمُ نَصَرُوا النبوةَ والجِهَادَا[٢]

وترددت لفظة الإسلام في شعر المديح في العصر الأموي، وخاصة عندما يتطرق الشعراء للمعاني الدينية، كقول الفرزدق بمدح يزيد بن عبد الملك:

أرى اللهَ بالإسلامِ والنصرِ جاعلاً ... على كَعْبِ مَنْ نَاوَاكَ كَعْبَكَ عَالِيَا[٣]

ويقول عبيد الله بن قيس الرقيات مادحاً مصعب بن الزبير:

على بيعةِ الإسلامِ بايعْنَ مُصعباً ... كراديسُ من خيل وجمعٍ ضَبَارِكَا[٤]

وأمّا الكميت فتظهر لفظة الإسلام عنده في معرض مدحه الهاشميين قائلاً:

والمصيبينَ بابَ ما أخطأَ النا ... سُ ومُرسي قواعدَ الإسلامِ[٥]

ويمدح القطامي عبد الواحد بن الحارث بن الحكم وتظهر في مديحه لفظة الإسلام:

قومٌ هُمُ ثبتوا الإسلامَ وامْتَنَعوا ... قومَ الرسولِ الذي مَا بَعْدَه رُسُلُ[٦]

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص١٢٤.
(٢) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص١٠٨.
(٣) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص٣٥٢.
(٤) عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان عبيد الله بن قيس، ص١٣٢.
(٥) الكميت بن زيد، ديوان الكميت، ص٤٨٨.
(٦) القطامي، ديوان القطامي، ص٢٩.

ألفاظ العقيدة والتوحيد:

وهذه الألفاظ مما تأثر به شعر المديح في العصر الأموي؛ وذلك لإبراز الممدوح في هالة من القداسة الدينية، ولما كان لهذه الألفاظ من أهمية حين يتناول الشعراء الجوانب الدينية في سيرة الممدوح. وجاءت هذه الألفاظ لتعبر عن مدى تمسك الممدوح بالعقيدة الإسلامية. يقول عدي بن الرقاع مادحاً الوليد بن عبدالملك:

فَبَيّضَ الله يومَ المرجِ أوْجُهَهُمْ ... بنصرهِ وبسيفِ الله مَرْوَانَا

وبابنِهِ بعدَهُ عبدِ المليكِ فَقَدْ ... زادوا ذَوي عَقْلِنَا شكراً وإيمَانَا[١]

ويقول عيسى بن فاتك مشيداً بالخوارج مادحاً إياهم بصفة الإيمان:

كَذَبْتُم ليسَ ذاكَ كَمَا زَعَمْتُمْ ... ولكنّ الخوارَجَ مُؤمِنِينَا[٢]

ومن الألفاظ التي تتعلق بالعقيدة والتوحيد أسماء الله الحسنى، التي وظفها بعض الشعراء في مديحهم ليدللوا على تأييد الله للممدوح، كقول الراعي النميري يمدح عبدالملك بن مروان:

إنّ الخلافةَ مِنْ ربّي حَبَاكَ بها ... لم يُصْفِهَا لك إلا الواحدُ الصَّمَدُ

القابضُ الباسطُ الهادي لطاعَتِهِ ... في فتنةِ الناسِ إذْ أهواؤهُمْ قِدَدُ[٣]

وكقول عيسى بن فاتك معرضاً ببني أمية في معرض مدحه الخوارج:

أطعتُمُ أمرَ كلّ جَبّار عنيدٍ ... وما مِنْ طَاعَةٍ للظّالمِينَا[٤]

وكقول الفرزدق في بشر بن مروان الذي يرى الشاعر أنه مؤيد من الرحمن:

سيفٌ يصولُ أميرُ المؤمنين بهِ ... وقد أَعَزّ به الرحمنُ مَنْ نَصَرَا[٥]

وكقول جرير يمدح هشام بن عبد الملك واصفاً إياه بالرحمة والرأفة برعيته:

ترى للمسلمين عليك حقاً ... كفعلِ الوالدِ الرؤوفِ الرحيمِ[٦]

---

(١) عدي بن الرقاع، ديوان عدي بن الرقاع، ص١٧١.

(٢) إحسان عباس، ديوان الخوارج، ص٦٨.

(٣) الراعي النميري، ديوان الراعي النميري، ص٦٣.

(٤) إحسان عباس، ديوان الخوارج، ص٦٨.

(٥) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٢٣١.

(٦) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٤١٢.

ومن الألفاظ التي لها علاقة بالتوحيد لفظة "الهدى" ومشتقاتها، وهذه اللفظة وظفها الشعراء وتأثروا بما تحمله من معاني تتعلق بهدى الله ووجوب اتباعه. يقول عبيد الله بن قيس مادحاً عبد العزيز بن مروان:

مِنْهُمُ إمامُ الهدى له نِعَمٌ عندي وأيدٍ تَصُوبُ بالدِّيَمِ[١]

وكذلك محمد بن الحنفية فهو إمام هدى كما يقول كثيّر عزة:

إمامُ هدىً قد سَدَّدَ اللهُ رأيَهُ وقَدْ أحْكَمَتْهُ مَاضِياتُ التَّجاربِ[٢]

ويقول عبد الله بن همام السلولي يمدح محمد بن الحنفية أيضا، ويستخدم ألفاظ الهدى والهداية ليدلل على مكانة ممدوحه:

فآبَ الهدى إلى مُسْتَقَرِّهِ بخيرِ إيابٍ آبه ورجوعِ
إلى الهاشميّ المُهْتَدى بضيائِهِ فنحنُ له مِنْ سامِعٍ ومُطِيعِ[٣]

ألفاظ النفاق والإلحاد والكفر:

وظف الشعراء هذه الألفاظ في شعرهم وظهر أثرها فيما ينسبون إلى أعداء الممدوح من صفات النفاق والإلحاد والزيغ والكفر، كقول عبد الله بن الزبير الأسدي يمدح بشر بن مروان بقضائه على المنافقين:

وأطْفَأْتَ عنّا نارَ كلِّ منافقٍ بأبْيَضَ بَهلولٍ طويلِ الحمائِلِ[٤]

ويقول جرير مادحاً عمر بن عبد العزيز بقضائه العادل البعيد عن النفاق:

يَقْضي القَضَاءَ الذي يُشْفَى النِّفَاقُ بهِ فاسْتَبْشَرَ الناسُ بالحقِّ الذي عَرَفُوا[٥]

وكقوله أيضا يمدح المهاجر بن عبد الله الكلابي، مشيرا إلى حكمه العادل على الرغم من كره المنافقين له:

فَحُكْمُكَ يا مهاجرُ حُكْمُ عَدْلٍ ولو كَرِهَ المُنَافِقُ والمُرِيبُ[٦]

---

(١) عبيد الله بن قيس، ديوان عبيد الله بن قيس، ص٩.

(٢) كثيّر عزة، ديوان كثيّر عزة، ص٣٤٢.

(٣) محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، السفر الثاني، ص٦٣٥.

(٤) عبد الله بن الزبير الأسدي، شعر عبد الله بن الزبير الأسدي، ص١١١.

(٥) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٣٠٨.

(٦) المصدر نفسه، ص٣٨.

والإلحاد من الألفاظ التي برزت في شعر المديح الأموي، فهذا الفرزدق يوظف هذه اللفظة للتملق لبني أمية بوصف عبد الله بن الزبير بالملحد الذي يجب قتاله، يقول:

بهنَّ لَقُوا بمكَّةَ مُلْحِدِيهَا ... وَمَسْكِنَ يحسنونَ بها الضِّرَابَا[١]

ومن الألفاظ المرادفة للنفاق والإلحاد لفظة "الزيغ" التي استعملها الشعراء ليحطوا من قيمة أعداء الممدوح واصفين إياهم بالانحراف عن جادة الصواب، يقول أيمن بن خريم مادحاً بشر بن مروان في معرض خطابه عبد الملك بن مروان:

وَدَعْ بشراً يُقَوِّمْهُمْ ويُحدِثْ ... لأهلِ الزيغِ إسلاماً جَديدَا[٢]

ألفاظ العبادات وما يتعلق بها:

تأثر معظم شعراء المديح في العصر الأموي بألفاظ الإسلام التي تختص بالعبادات من صلاة وزكاة وحج وصوم؛ وذلك لإظهار ممدوحيهم بصفة التقي العابد لله حق عبادته، كقول أيمن بن خريم يمدح الهاشمين:

نَهارُكُمُ مُكابَدَةٌ وصومٌ ... وليلكُمُ صَلاةٌ واقْتِراء

وليتمْ بالقرآن وبالتَّزَكِّي ... فاسْرَعَ فيكُمُ ذاكَ البَلاءُ[٣]

وكقول الفرزدق يمدح عبد الملك بن مروان ويشيد بسيوف بني أمية في القضاء على الفتن:

فَلَمْ يَتْرُكْنَ مِنْ أحدٍ يصلِّي ... وراءَ مُكَذِّبٍ إلا أَنَابَا[٤]

ولفظة "الحج" من الألفاظ التي وظفها بعض الشعراء ليصوروا ممدوحهم إماماً للحجاج في موسم الحج، كقول جرير يمدح هشام بن عبد الملك:

وليُّ الحقِّ حينَ تؤمُّ حَجّاً ... صُفوفاً بينَ زَمْزَمَ والحَطِيمِ[٥]

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٢٢.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد العاشر، ص٤٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٢٣.

(٤) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٢٢.

(٥) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٤١٢.

وثمة ألفاظ أخرى متفرقة وردت في قصيدة المديح في العصر الأموي تدل دلالة واضحة على تأثر الشعراء بالإسلام، ومنها: الحلال والحرام، كقول الأحوص الأنصاري يمدح الوليد بن عبد الملك:

إمامٌ أتاهُ المُلْكُ عفواً ولم يُصِبْ ... على مُلْكِهِ مَالاً حَراماً ولا دَمَا[١]

وكقول جرير بن عطية يمدح هشام بن عبد الملك بأنه يحل ما أحلَّ الله ويجتنب ما حرَّم الله:

أميرُ المؤمنين قَضَى بعدلٍ ... أحلّ الحِلَّ واجْتَنَبَ الحَرَامَا[٢]

وهناك ألفاظ رددها بعض الشعراء كثيراً في مديحهم مثل "أمين الله" ليقربوا الممدوح من الله سبحانه وتعالى، ويجعلونه أميناً على الإسلام والمسلمين، يقول الفرزدق يمدح هشام بن عبد الملك:

هِشَامٌ أمينُ الله في الأرضِ والذي ... بِهِ تَمْنَعُ الأيامُ ذاتَ المَحَارِمِ[٣]

وكذلك يصف جرير عبد الملك بن مروان بالتقوى والورع مستخدماً هذه اللفظة لتأدية المعنى الذي يريده، فيقول:

وَأَنْتَ الأمينُ أمينُ الله لا سَرِفٌ ... فِيمَا وَلِيتَ ولا هَيَّابَةٌ وَرَعُ[٤]

وهناك ألفاظ كثيرة متفرقة وردت في شعر المديح في العصر الأموي تدل على تأثر الشعراء بالإسلام في مديحهم لا حاجة لذكرها خوفاً من الإطالة.

وقد حذا شعراء العصر الأموي في أساليبهم حذو شعراء الجاهلية وخاصة فيما يتعلق بقصيدة المديح "ولم يحدث في الشعر الأموي من حيث الموضوع والأسلوب كبير تغيير واستمر تقليد الوقوف على الأطلال في مختلف ألوان الشعر باستثناء الغزل"[٥].

---

(١) الأحوص الأنصاري، شعر الأحوص الأنصاري، ص٢٤٧.

(٢) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٤٠٩.

(٣) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج٢، ص٣٠١.

(٤) جرير بن عطية، ديوان جرير، ص٢١١.

(٥) صلاح الدين مصيلحي، التقليد والتجديد في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، ص١٢٣.

وقد تفاوت الشعراء الأمويون في تقليدهم للجاهليين، فعند النظر في شعر ابن قيس الرقيات، فإن أسلوبه يختلف بعض الشيء عنهم، إذ يميل هذا الأسلوب إلى الرقة والعذوبة، ويبتعد عن الرصانة والجزالة، ويكثر من التقسيم؛ ليضفي على أبياته شيئاً من الموسيقى الموقعة، كما يتميز شعره بصفاء لحنه وبعذوبة موسيقاه ونقاء أنغامه وسهولة ألفاظه وطواعيتها(١).

أما الأخطل، فإن أسلوبه يقترب كثيراً من أساليب الجاهليين، فهو يقلدهم في هيكل القصيدة وفي بنائها، وألفاظه لا تختلف كثيراً عن ألفاظ الجاهليين، ويحذو حذوهم في كثير من أساليبهم مثل الاستطراد والاستدارة وغيرها.

وكذلك الأمر عند الفرزدق، إذ يميل أسلوبه إلى التقليد أكثر من ميله إلى التجديد وهو يجاري الجاهليين في الهيكل العام للقصيدة، وإن كان هناك بعض الاختلاف من حيث عدم اهتمامه بالموروث الجاهلي فيما يتعلق بالوقوف بالديار والبكاء عليها، ووصف الظعائن والغزل، أمّا في الألفاظ فإنه يلجأ إلى الوعورة والخشونة كثيراً.

وكذلك الشاعر جرير الذي يجاري الجاهليين في بعض أساليبهم من حيث هيكل القصيدة وبنائها، إلا أن ألفاظه تميل إلى السهولة أكثر من ميلها إلى الخشونة والوعورة كما تتراوح ألفاظه بين الرقة والعذوبة من ناحية وبين الجزالة والرصانة من ناحية أخرى وذلك حسب الموضوع الذي يطرقه.

وقد احتوت قصيدة المديح على أساليب كثيرة في سبيل الوصول إلى الممدوح وتحقيق الغاية من وراء هذا المديح، إذ اعتمد الشعراء كثيراً على أسلوب الوصف حين عمدوا إلى وصف ديار محبوباتهم وظعائنهن ووصف رواحلهم، ووصف حيوان الصحراء، وفي أثناء الوصف يميل الشعراء إلى استخدام أسلوب الاستطراد، فيكثرون من هذا الأسلوب في معرض وصف الراحلة وتشبيهها بحيوان الصحراء، ثم يعودون إلى وصف الراحلة، وكذلك يستخدم بعض الشعراء هذا الأسلوب في معرض وصف الظعائن حيث يستطردون إلى وصف الخمر، ثم يعودون إلى وصف الظعائن، وهذا ما فعله الشاعر الأخطل في بعض قصائده(٢).

---

(١) صلاح الدين مصيلحي، التقليد والتجديد في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، ص١٦٩.

(٢) الأخطل، ديوان الأخطل، ج١، ص١٩٢،١٩٣.

ومن الأساليب التي برزت واضحة في مديح الشعراء الأمويين أسلوب الحوار الذي لجأ إليه بعض الشعراء للتخلص من مقدماتهم التقليدية وإعطاء الممدوح صورة عن حالة الشاعر ومعاناته هو وزوجته وأولاده، أو هو وصحبه، أو هو وناقته كقول الفرزدق يحاور إحدى النساء، يقول:

تُسَائِلُنِي: ما بالُ جَنْبِكَ جافياً ... أَهَمٌّ جَفَا، أم جَفْنُ عينيك أَرْمَدُ
فقلتُ لَهَا: لا بَلْ عيالٌ أَرَاهُمُ ... وما لَهُمُ ما فيه للغيثِ مَقْعَدُ
فَقَالَتْ: أليسَ ابنُ الوليدِ الذي لَهُ ... يَمِيْنٌ بِهَا الإِمْحَالُ والفَقْرُ يُطْرَدُ[١]

ويفعل جرير الشيء نفسه حين يحاور إحدى النساء وهو ذاهب إلى الممدوح، يقول:

تَعَرَّضَتِ الهُمُومُ لنا فقالتْ ... جُعَادَةُ: أيَّ مُرْتَحَلٍ تريدُ
فقلْتُ الخليفةُ غَيْرَ شَكٍّ ... هَوَ المَهْدِيّ والحَكَمُ الرَّشيدُ[٢]

ومن الأساليب التي وردت في قصيدة المديح الأموية أسلوب الاستدارة الذي استمده الشعراء الأمويون من أساليب الجاهليين، يقول الأخطل:

وما الفراتُ إذا جاشَتْ حَوَالِبُهُ ... في حَافَتَيْهِ وفي أَوْسَاطِهِ العُشرُ
وَذَعْذَعَتْهُ رياحُ الصيفِ واضطربتْ ... فوقَ الجَآجِيءِ مِنْ آذيهِ غُدُرُ
مُسْحَنْفِرٌ مِنْ جبالِ الرُّومِ يَسْتُرُهُ ... مِنها أكافيفُ فيها دونَه زَوَرُ
يوماً باجود مِنْه حِيْنَ تَسْأَلُهُ ... ولا بأَجْهَرَ منه حين يُجْتَهَرُ[٣]

وكذلك يفعل الفرزدق عند مدحه لبشر بن مروان، إذ يجعل جود الممدوح يفوق خيرات النيل والفرات والزاب[٤].

وكذلك لجأ بعض الشعراء إلى استخدام أسلوب القسم من أجل التوطئة لمديحهم، كقول الأخطل يمدح عبد الله بن معاوية بن أبي سفيان:

ولقد حلفتُ بربِّ موسى جاهداً ... والبيتِ ذي الحُرُمَاتِ والأَسْتَارِ
وبِكُلِّ مُهْتَبِلٍ عليه مُسُوحُهُ ... دون السَّماء مُسبِّح جَارُ

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص١٤٩.

(٢) جرير بن عطية، ديوان جرير بن عطية، ص١٦٦.

(٣) الأخطل، ديوان الأخطل، ج١، ص١٩٧، ١٩٨. الحوالب: الأمواج، العشر: نوع من الشجر، الجآجيء: الصدور، الأذي: الموج المرتفع، مسحنفر: سريع الجري: الأكافيف: ما يكف الماء عن الجري.

(٤) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج١، ص٢٣٢.

لأحَبِّرَنَّ لابنِ الخليفةِ مِدحَةً ولأقذِفَنَّ بها إلى الأمْصَارِ[١]

وكقول الفرزدق:

حَلَفْتُ بمن أتى كَنَفي حِرَاءٍ وَمَنْ وافى بِحُجَّتِهِ إلالا
وَمَنْ سَمَكَ السَّماءَ له فقامَتْ وسَخَّرَ لابن داودَ الشَّمَالا
ومَنْ نَجَّى مِنَ الغَمَراتِ نوحاً وأرْسى في مَواضِعِها الجِبَالاَ
لَئِنْ عافَيْتَنِي ونَظَرْتَ حِلمِي لأَعْتَتِنَنْ إنِ الحَدَثَانُ آلا[٢]

ثالثاً: الأوزان والقوافي:

تعد الأوزان والقوافي من مقومات شعرنا العربي القديم، وكانت هذه الأوزان والقوافي علامات فارقة بين الشعر والنثر. وقد قال القدماء: "الوزن يطرب الفهم لصوابه، ويرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه"[٣]. وقال ابن رشيق: "والوزن أعظم أركان حد الشعر، وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة"[٤]،ومن خلال هذا الحديث عن الوزن يمكن القول؛إن الوزن ركن من أركان الشعر العربي لا يستقيم إلا به،وهذا الوزن إذا أضيفت إليه القافية فإنه مما يكسب الشعر جمالاً،ويزيده رونقا،ويضفي عليه من موسيقى الشعر ذات الأنغام العذبة الجذابة؛ وذلك لأن الشعر "ليس إلا كلاما موسيقيا تنفعل لموسيقاه النفوس،وتتأثر بها القلوب"[٥].

وقد عدّ بعض النقاد المعاصرين الوزن والقافية مما يدخل في إطار الموسيقى الخارجية للشعر[٦]. وقد اهتم شعراء المديح في العصر الأموي بهذا الجانب من جوانب الموسيقى الشعرية، وأولوه عنايتهم، ولم يخرجوا عن الإطار الجاهلي في أوزان الشعر وقوافيه، بل تمسكوا بهذا التراث، والتزموا الوزن والقافية في قصائدهم، ولم يحاول كثير منهم التجديد في هذا الجانب.

---

(١) الأخطل، ديوان الأخطل، ج٢، ص٤١٣.

(٢) الفرزدق، ديوان الفرزدق،ج٢،ص٧٠.إلالا: واحدها إل وهو جبل من الرمل في عرفات، أعتتن: أدفع دفعا شديدا، آل: رجع.

(٣) محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، (ت٣٢٢هـ/٩٣٣م)، عيار الشعر، ط١، تحقيق: عباس عبد الستار، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٢١.

(٤) ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج١، ص١٣٤.

(٥) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر العربي، ط٦، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص١٧.

(٦) د. عبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية، دار النهضة العربية، بدون تاريخ، ص١٢.

والمتتبع شعر المديح في العصر الأموي، يرى أن الشعراء اعتنوا بالأوزان الشعرية التي وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي فيما بعد، ونظموا أشعارهم على بحور الخليل التي وضعت في مرحلة لاحقة للعصر الأموي بعد استقراء لكثير من الشعر الجاهلي والأموي.

وفيما يلي جدول يبين تلك البحور التي صاغ عليها الشعراء قصائدهم المدحية:

البحر	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات
الطويل	٦٧	٢٢٥
البسيط	٣٣	١٠١
الوافر	٢٧	١٠٠
الكامل	٢٠	٦٨
الخفيف	١٥	٤٤
المنسرح	٧	٢٤
الرجز	٣	٢٠
المتقارب	٢	٨
مجزوء الكامل	٢	٧
الهزج	١	٣
الرمل	١	٢
المجموع	١٧٨	٦٠٢

ومن النظر في الجدول السابق يتضح أن الشعراء يميلون إلى استخدام أوزان مألوفة فيها هدوء وإيقاعات قصيرة، فأكثر شعر المديح على البحر الطويل والبسيط والوافر والكامل والخفيف، وهذه من البحور التي تميل إلى الإيقاعات القصيرة الهادئة، وهي من البحور ذات التفعيلات المزدوجة، إذا استثنينا منها البحر الكامل. كما عمد الشعراء إلى استخدام بعض البحور ذات التفعيلة الواحدة مثل الكامل والمتقارب والرجز مما أضفى على شعرهم مزيدا من الموسيقى الخارجية التي تظهر بوضوح أثناء قراءة هذا الشعر. كما يمكن ملاحظة أن الشعراء ابتعدوا كثيرا عن الأوزان المهجورة أو الثقيلة الصعبة مثل المضارع والمجتث والمديد.

ولعل طبيعة شعر المديح هي التي فرضت على الشعراء الجدية في اختيار معانيهم وأوزانهم الشعرية والعناية بقصائدهم حتى تلقى رواجا عند الممدوح؛ لذلك قلت العيوب في قصيدة المديح من حيث معانيها وألفاظها وأوزانها، وقد أشار ابن رشيق

القيرواني إلى قلة العيوب في قصيدة المديح قائلاً: "إنّ تجنب العيب فيها آتٍ من باب التأدب للملوك"(١). كما أشار إلى ذلك ابن الأثير الجزري قائلاً: "إن ذلك راجع إلى أدب النفس لا إلى أدب الدرس"(٢).

أما من ناحية تأثر الأوزان في قصيدة المديح في العصر الأموي بالإسلام، فإن ذلك يبدو ضئيلاً للغاية، ولا تكاد تجد في أشعارهم تضمينات متصلة من القرآن الكريم تدل على تأثير القرآن الكريم في أوزان شعر المديح في العصر الأموي، وكل ما هنالك ألفاظ متفرقة في ثنايا القصائد لا تعد دليلاً على تأثر هذه الأوزان بالإسلام.

ولا تقل القافية أهمية عن الوزن، وقد أشار إليها قدامة بن جعفر بوصفها ركنا من أركان حد الشعر عند تعريفه للشعر بقوله: " إنه قول موزون مقفى يدل على معنى"(٣). ومن النقاد من يطلق على القافية اسم الروي(٤)، وقد عدّ بعض النقاد الروي هو القافية نفسها(٥). ولا يعد الشعر شعراً عند بعض النقاد القدامى حتى يشتمل على الوزن والقافية(٦). وقد رأى بعض النقاد في القافية أن تكون عذبة سلسة المخرج وأن يقصد لتصيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها، وقالوا إن الفحول المجيدين من الشعراء القدامى والمحدثين يتوخون ذلك، ولا يكادون يعدلون عنه، وربما صرعوا أبياتاً أخر من القصيدة بعد البيت الأول، وذلك يكون من اقتدار الشاعر وسعة بحره(٧).

أما النقاد المحدثون فقد عرّفوا القافية بأنها: "عدة أصوات تتكرر في أواخر الأسطر أو الأبيات من القصيدة، وتكررها هذا يكون جزءاً هاماً من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية، يتوقع السامع ترددها، ويستمتع بهذا التردد الذي يطرق الأذان في فترات زمنية منتظمة"(٨). وقد أشار إبراهيم أنيس إلى الروي

(١) ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج١، ص٢٢٢.
(٢) ابن الأثير الجزري، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج٢، ص٢٣٦.
(٣) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص١٧.
(٤) الأخفش الأوسط، (ت٢١٥هـ/٨٣٠م)، كتاب القوافي، تحقيق:عزة حسن، دمشق،١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص٤.
(٥) أحمد بن عبد ربه، (ت٣٢٨هـ/٩٣٩م)، العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر، بدون تاريخ، ج٢، ص٤٩٦.
(٦) ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج١، ص١٥١.
(٧) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص٥١.
(٨) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص٢٤٦.

قائلاً: "أقل ما يمكن أن يراعى تكراره، وما يجب أن يشترك في كل قوافي القصيدة ذلك الصوت الذي تبنى عليه الأبيات، ويسميه أهل العروض بالروي"[١]، ويرى أن الشعر لا يكون مقفى "إلا بأن يشتمل على ذلك الصوت المكرر في أواخر الأبيات، وإذا تكرر ولم يشترك معه غيره من الأصوات عدت القافية حينئذ أصغر صورة ممكنة للقافية الشعرية"[٢].

وقد قسم النقاد المحدثون أحرف الروي إلى أربعة أقسام،وذلك حسب شيوعها في الشعر العربي،فقسم منها كثير الشيوع كالراء والميم والنون والباء والدال والسين والعين واللام. وقسم متوسط الشيوع،كالقاف والكاف والهمزة والحاء والفاء والياء والجيم، وقسم قليل الشيوع،كالضاد والطاء والهاء والتاء والصاد والثاء،والقسم الرابع هو الذي يندر وجوده إلا قليلاً في القافية،كالذال والغين والخاء والشين والزاي والظاء والواو[٣].

وقد عني شعراء المديح في العصر الأموي بالقافية عنايتهم بالوزن، إذ وردت معظم أحرف الهجاء في قوافي قصائد المديح الأموية، والجدول التالي يبين نسبة توزيعها وعدد استعمالات كل حرف مما ورد في هذه الدراسة.

حرف الروي	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات
اللام	٣٣	١٢٣
الميم	٢٨	٩٨
الباء	٢٦	٨٢
الراء	٢٠	٨١
الدال	١٩	٦٠
العين	٨	٢٦
النون	٧	٢٠
الهمزة	٦	٢٠
الفاء	٦	١٤

(١) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص٢٤٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٤٧.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٤٧.

حرف الروي	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات
القاف	٤	١٦
الحاء	٤	١٢
الجيم	٣	١٣
الهاء	٣	١٣
التاء	٣	١٠
الباء	٣	٩
الكاف	٢	٧
الصاد	١	٢
السين	١	٢

ومن الجدول السابق يتضح أنَّ شعراء العصر الأموي كانوا يبنون قصائدهم على حروف الروي الشائعة في الشعر القديم؛ فقد حظي حرف اللام بالنصيب الوافر من الاستعمال، يليه حرف الميم، ثم الباء، ثم الراء، ثم الدال، وهذه أحرف شائعة الاستعمال في شعر الجاهليين، كما بنى الشعراء بعض قصائدهم على الأحرف المتوسطة الشيوع في قوافي الشعر العربي، فقد حظيت الهمزة والفاء والقاف بنصيب لا بأس به من الاستعمال في شعر المديح الأموي، ولكن بنسبة أقل من الحروف الشائعة. أما الأحرف قليلة الاستعمال ومنها الهاء فقد حظيت بنصيب جيد من الاستعمال، أما الأحرف النادرة الاستعمال، كالذال والغين والخاء والشين والزاي والظاء والواو، فقد ابتعد عنها شعراء المديح في العصر الأموي في أغلب أشعارهم المدحية، ويرى إبراهيم أنيس "أن كثرة شيوع هذه الأحرف أو قلتها في الاستعمال لا تعزى إلى ثقلٍ أو خفة في الأصوات بقدر ما تعزى إلى نسبة ورودها في أواخر كلمات اللغة العربية"(١).

وكذلك عند استعراض هذه القوافي، فإن الباحث لا يجد تأثيرا لفواصل القرآن الكريم فيها؛ لأن الشعراء التزموا بالقوافي الشائعة في الشعر الجاهلي وتأثروا بها أكثر من تأثرهم بفواصل القرآن الكريم.

(١) د. إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص٢٤٧.

بعد هذا العرض للجوانب الفنية في قصيدة المديح الأموية، يمكن القول إنّ هذه القصيدة قد نهجت نهج القصيدة الجاهلية في كثير من مقوماتها الفنية. فهي تقترب من قصيدة المديح في الجاهلية كثيراً، فمن حيث الهيكل العام لهذه القصيدة، يمكن القول إنها احتفظت بالسير على نهج الجاهليين في تعدد الموضوعات، فمن وقوف على الديار وبكاء عليها إلى غزل بالمحبوبة الظاعنة، ثم إلى الرحلة إلى الممدوح، وصولاً إلى الغرض الرئيس، وهو المدح، وإن كان هناك بعض الاختلاف، فهو يكمن في تناول كثير من الشعراء لهذه الموضوعات تقديماً وتأخيراً، كما يكمن في تفاوت الشعراء في التمسك بهذا الموروث الجاهلي، فبعض الشعراء حذا حذو الجاهليين في كثير من مقومات القصيدة الفنية والموضوعية وبعضهم كان يلم بها لماماً، ويتمرد أحياناً على بعض هذه المقومات الفنية.

فالشاعر الأخطل من أشد المتمسكين بالهيكل العام للقصيدة الجاهلية، وإن كانت قصائده تحتوي على شيء من التجديد، كوصفه للظعائن الراحلات في السفن، وكإبرازه المقدمة الخمرية بشكل واضح في قصائده، أمّا الفرزدق فكان يتمرد على هذه المقدمات أحياناً، إذ يبدأ قصائده مباشرة بغرضه الرئيسي، كما يقل فيها وصف حيوان الصحراء، أثناء رحلته إلى الممدوح. أمّا جرير فإنه وسط بين الاثنين، فهو يتمسك بالموروث الجاهلي لهيكل القصيدة، ولكنه يتجاوز هذا الموروث سريعاً إلى غرضه الرئيسي.

أمّا من حيث البناء اللغوي، فيتفاوت الشعراء في ذلك، فعند النظر في الصور الفنية، تبدو متأثرة كثيراً بالصور الجاهلية وخاصة مقدمة القصيدة، على الرغم من وجود كثير من الصور المتأثرة بالحياة الحضارية التي كانت تسود كثيراً من جوانب الحياة في العصر الأموي، ويمكن القول إن الصورة الفنية في قصيدة المديح الأموية تأثرت تأثراً كبيراً أيضاً بصور القرآن الكريم ومعانيه وخاصة عند المدح بالمعاني الدينية.

ومن حيث اللغة والأسلوب، فقد تأثر شعر المديح في العصر الأموي بالجاهليين في لغتهم وأساليبهم، فعندما يطرق الشعراء الموضوعات التقليدية فإن الألفاظ تميل إلى الجزالة والفخامة مع شيء من الخشونة والوعورة، وخاصة عند الفرزدق. أمّا عندما يصل الشعراء إلى الغرض الرئيس فإن الألفاظ تميل إلى السهولة والجزالة، وتبدو

متأثرة كثيراً بالألفاظ الإسلامية، ويبدو هذا التأثر في شعر جرير أكثر من غيره من الشعراء.

أمّا الأساليب، فقد ظهرت في قصيدة المديح الأموية بعض الأساليب الجاهلية مثل الاستدارة، والاستطراد، فضلاً عما استحدثه بعض الشعراء من أساليب الحوار وأساليب القسم، وكل ذلك من أجل التوطئة لعرض مطالبهم أمام الممدوح.

أمّا الأوزان والقوافي، فقد التزم كثير من الشعراء بالأوزان القديمة ونسجوا على منوالها، ولا تكاد تجد اختلافاً كثيراً بين أوزان الشعراء في العصر الأموي والأوزان الجاهلية، وإن مال بعض الشعراء إلى استخدام أوزان خفيفة مثل الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات. كما يبدو تأثر هذه الأوزان والقوافي بالإسلام ضعيفاً، إذ لم يظهر أثرٌ لتأثر الشعراء بفواصل القرآن.

الخـــاتـــمـــــة

وبعد فقد أمكن من هـــذه الدراســة التوصـــل إلـــى أنّ قصيـــدة المديـــح فـــي العصـــر الأموي كان يتنازعها اتجاهان اثنان: الأول يتمثل في رغبـــة الشـــعراء الملحـــة فـــي المنفعـــة والكسب المادي مهما كانت صفة الممدوح ومـــهما كـــان اتجاهـــه السياســـي أو الدينـــي، وقـــد جاء هذا اللون من المديح يشوبه شيء من التملـــق والنفـــاق إلـــى حـــد كبـــير. أمّـــا الاتجـــاه الثاني فقد كان يميل إلى الحزبية السياسية والدينيـــة كثـــيراً، وكـــان يميـــل إلـــى الموضوعيـــة أكثر من ميله إلى التملق والكـــذب؛ لأن معظـــم شـــعراء الأحـــزاب كـــانوا ينتمـــون انتمـــاءً حقيقياً إلى هذه الأحزاب؛ فلذلك كان معظمهم صادقين فـــي مدحـــهم لزعمـــاء أحزابـــهم، كمـــا هو الحال عند عبيد الله بن قيس الرقيات مـــع الزبـــيريين، والكميـــت مـــع الهاشـــميين، وأبـــي العباس الأعمى مع بني أمية، أمّـــا الفحـــول مـــن شـــعراء العصـــر الأمـــوي أمثـــال جريـــر والفرزدق والأخطل فكانوا يميلون إلى الحزب الأموي من أجـــل المنفعـــة الماديـــة أكـــثر مـــن انتمائهم وإخلاصهم لهذا الحـــزب؛ لذلـــك تجدهـــم يتلونـــون بلـــون الممـــدوح فـــي أشـــعارهم حسب مصالحهم الشـــخصية.

كما أمكن التوصـــل إلـــى أنّ بعـــض الثوابـــت الإســـلامية ذات الطـــابع السياســـي قـــد برزت بروزاً واضحاً في قصيدة المديح الأمويـــة، مثـــل الخلافـــة والإمامـــة والمهديـــة وإرث النبوة والجـــهاد فـــي ســـبيل الله. ففـــي مســـألة الخلافـــة أقحـــم الشـــعراء أنفســـهم مؤيديـــن ومعارضين؛ فمنهم من كان يؤيد حق ممدوحه في الخلافة عـــن قناعـــة منـــه باســـتحقاق هـــذا الممدوح لهذا المنصب؛ وهذا ما كان يظهر في شـــعر شـــعراء الشـــيعة أمثـــال الكميـــت بـــن زيد، وفي شعر شعراء الحزب الزبيري أمثـــال ابـــن قيـــس الرقيـــات، وكذلـــك عنـــد بعـــض شعراء الحزب الأموي، ومنهم من كان يتخذ من هـــذه الثوابـــت الإســـلامية وســـيلة للتقـــرب إلى الممدوحين من أجل المنفعة كما كان يفعل الفحول مـــن شـــعراء العصـــر الأمـــوي.

كذلك أقحم بعض الشعراء أنفسهم في مســـألة ولايـــة العـــهد، بإيحـــاء مـــن الممدوحيـــن أنفسهم، وكان هذا الأمر يجرّ على كثير من الشـــعراء العنـــت، كمـــا هـــو الحـــال عنـــد ابـــن قيس الرقيات والنابغة الشـــيباني.

أمّا مســـألة الإمامـــة والمهديـــة، فكـــانت هـــي الأخـــرى مـــن الموضوعـــات الدينيـــة السياسية التي وظفها الشعراء في مدحهم؛ لما لها من قدسية فـــي نفـــوس عامـــة النـــاس، فقـــد ورد هذان المصطلحان في كثير مـــن قصـــائد المديـــح الأمويـــة، يحمـــلان دلالات سياســـية

ودينية لإرضاء الممدوح بجعله من الأئمة الهداة المهديين، وقد برز ذلك في شعر شعراء الشيعة أمثال كثيّر عزة، ثم انتقل إلى كثير من شعراء الحزب الأموي الذين اتخذوا منه وسيلة للرد على شعراء الشيعة وتأييد حق الأمويين في الخلافة بنسبة هذه الفضائل إليهم.

أمّا مسألة إرث النبوة وعلاقتها بشرعية الحكم، فقد وُظّفت توظيفاً ذكياً لدعم مركز الممدوح الديني، وذلك بتقريبه من عترة رسول الله ﷺ، وكان سند العلويين قوياً في هذا الجانب، لذلك تجد شعر المديح الذي قيل فيهم أصدق من غيره في هذا الموضوع. وكذلك سند الزبيريين كان قوياً أيضاً لكون الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله ﷺ. أمّا سند الأمويين فكان ضعيفاً إلى حدٍ ما في هذا الجانب، لذلك ركز شعراء بني أمية على أمرين: الأول انتساب الأمويين لقريش التي منها رسول الله ﷺ، والثاني ما تبقى لدى الأمويين من إرث النبوة كالخاتم والعصا والمنبر. أمّا الجهاد في سبيل الله فكان يمثل الحماية للدولة، وقد عدت معظم الحروب الداخلية جهاداً في سبيل الله، وهذا ما ظهر على ألسنة كثير من الشعراء، خاصة شعراء الحزب الأموي الذين صوروا هذه الحروب جهاداً ناسبين هذه الصفة إلى ممدوحيهم، وقد لقي ذلك قبولاً لدى كثير من الممدوحين.

كذلك وردت في قصيدة المديح كثيرٌ من القيم الدينية أهمها التقوى والعدل ومحاربة البدع والفساد. وقد استأثر موضوع التقوى باهتمام كثير من الشعراء، إذ برزت هذه الصفة بشكل واضح في شعر المديح في العصر الأموي، وقد كان بعض الشعراء صادقاً في نسبة هذه الفضيلة إلى كثير من ممدوحيهم، والبعض الآخر تنقصه الموضوعية في ذلك. أمّا العدل فهي فضيلة من الفضائل التي تناولها الشعراء ووظفوها لتحسين صورة كثير ممن مدحوا من بني أمية، وأجمل صورة من صور العدل هي التي رسمها الشعراء للخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، بعيداً عن التملق والنفاق والمنافع المادية. أمّا محاربة البدع والفساد، فقد تجلت هذه الصفة في مدح الشعراء لولاة بني أمية، وخاصة الحجاج بن يوسف الذي برز في شعر المديح الأموي محارباً للمفسدين والمبتدعين والخارجين على سلطان الدولة الأموية.

أما من النواحي الفنية في قصيدة المديح في العصر الأموي، فقد كان تأثير الإسلام في هيكل القصيدة ضعيفاً، إذ بقي كثير من الشعراء ملتزماً بهيكل القصيدة

الجاهلية، وإن كان هناك شيء من التمرد على هذا التقليد عند بعض الشعراء أمثال الكميت بن زيد. ولكن تأثير الإسلام يظهر بوضوح في لغتهم وصورهم الفنية، أكثر من ظهوره في أوزانهم وقوافيهم، ويمكن القول إن الإسلام أثرَّ في مضمون قصيدة المديح في العصر الأموي أكثر من تأثيره في شكلها الفني.

هذا ويمكن إجمال النتائج التي توصلت إليها الدراسة في النقاط الآتية:

- أنّ الثوابت الإسلامية قد وظفت توظيفاً واضحاً في قصيدة المديح الأموية لتحقيق مآرب دنيوية.
- أنّ شعر المديح في العصر الأموي مليء بالقيم الإسلامية، وكانت هذه القيم رافداً جديداً أدى إلى ازدهار هذا المديح.
- أنّ المديح الذي يحمل الطابع الإسلامي كان يلقى رواجاً واسعاً بين أروقة الحكم في العصر الأموي، سواءٌ في ذلك الخلفاء والولاة وقادة الجيوش.
- أنّ الإسلام قد استغل استغلالاً واضحاً في شعر المديح السياسي.
- اضطرار بعض الشعراء إلى الكذب والتلفيق ليظهر الممدوح الحاكم بمظهر الإمام التقي الورع.
- أنّ القيم والثوابت الإسلامية كان يأتي المديح بها مقروناً ببعض الفضائل القديمة التي تمدّح بها الشعراء الجاهليون وشعراء عصر صدر الإسلام مثل الجود وشرف النسب والشجاعة.
- أنَّ الإسلام أثرَّ في مضمون هذا الشعر أكثر من تأثيره في الشكل والصياغة.
- اضطرار الشعراء إلى مدح الخلفاء والزعماء السياسيين الذين لم يكونوا يقربون الشعراء كعبد الله بن الزبير وعمر بن عبد العزيز.
- اضطرار الشعراء من الأحزاب السياسية إلى مدح زعماء الأحزاب الأخرى المخالفة لاعتقادهم كابن قيس الرقيات والكميت.
- تغاضي الممدوحين عن هفوات كثير من الشعراء اتقاء شرهم وطمعاً في استمالتهم ضد خصومهم السياسيين.
- التناقض الواضح بين ما يرد في المصادر التاريخية والشعر في العصر الأموي حول سيرة بعض الخلفاء الأمويين أمثال الوليد بن يزيد.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير الجزري (ت٦٣٧هـ/١٢٤٠م)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٥٩هـ/١٩٣٩م.
- ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- أحمد، الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/٨٥٥م)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣١٣هـ/١٨٩٣م.
- الأحوص الأنصاري (ت١٠٥هـ/٧٢٣م)، شعر الأحوص الأنصاري، تحقيق: عادل سليمان جمال، ط٢، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- الأخطل التغلبي (ت٩٢هـ/٧١٠م)، شعر الأخطل، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الأصمعي بحلب.
- الأخفش الأوسط، (ت٢١٥هـ/٨٣٠م)، كتاب القوافي، تحقيق: عزة حسن، دمشق، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.
- الأسدي، عبد الله بن الزبير (ت٧٥هـ/٦٩٤م)، شعر عبد الله بن الزبير الأسدي، جمع وتحقيق: د. يحيى الجبوري، طبعة وزارة الإعلام، بغداد، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
- الأعجم، زياد (ت١٠٠هـ/٧١٨م)، شعر زياد بن الأعجم، جمع وتحقيق ودراسة، د. يوسف حسين بكار، ط١، دار المسيرة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- الأعشى، ميمون بن قيس، (ت٧هـ/٦٢٨م)، ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق: د. محمد محمد حسين، ط٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ابن بكار، الزبير بن بكار (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)، جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

- الثقفي، طريح بن إسماعيل (ت١٦٥هـ/٧٨١م)، شعر طريح بن إسماعيل الثقفي، دراسة وجمع وتحقيق، د. بدر أحمد ضيف، دار المعرفة، الاسكندرية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.
- الجاحظ، عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ط٣، دار الجيل، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
- الجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، (ت٤٧١هـ/١٠٧٨م)، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد التنجي، ط١، دار الكتاب العربي،١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- جرير بن عطية الخطفي (ت١١٤هـ/٧٣٢م)، ديوان جرير، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت،١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.
- ابن جعفر، قدامة (ت٣٣٧هـ/٩٤٨م) ، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، ط٣، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- ابن حزم، علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، (ت٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: د. محمد ابراهيم نصر، ود. عبدالرحمن عميرة، ط١، عكاظ للنشر والتوزيع، السعودية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ابن حزم، علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، جمهرة أنساب العرب، مصر، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م.
- الحطيئة، (ت٤٥هـ/٦٦٥م)، ديوان الحطيئة، تحقيق: د. نعمان أحمد أمين طه، ط١، مكتبة الخانجي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله، (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- الدارمي، مسكين، (ت٨٩هـ/٧٠٧م)، ديوان مسكين الدارمي، جمع وتحقيق: عبد الله الجبوري، وجليل إبراهيم العطية، ط١، بغداد، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

- أبو داود، الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، (ت٢٧٥ هـ/٨٨٨م)، سنن أبي داود، دراسة وفهرسة: كمال يوسف الحوت، ط١، دار الجنان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- أبو دهبل الجمحي (ت٦٣هـ/٦٨٢م)، ديوان أبي دهبل الجمحي، رواية أبي عمر الشيباني، تحقيق: عبد العظيم عبد المحسن، النجف الأشرف، ط١، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
- ذو الرمة، غيلان بن عقبة (ت١١٧هـ/٧٣٥م)، ديوان ذي الرمة، تحقيق د. عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت، بدون تاريخ.
- الراعي النميري (ت٩٠هـ/٧٠٨م)، ديوان الراعي النميري، جمعه وحققه: راينهرت فايبترت، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- ابن رشيق، الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٣٥٤هـ/١٩٣٤م.
- ابن الرقاع، عدي (ت ٩٥هـ/٧١٣م)، ديوان عدي بن الرقاع، تحقيق: د. نوري حمود القيسي ود. حاتم الصالح، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي (ت٢٣١هـ/٨٤٥م)، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
- ابن أبي سلمي، زهير (ت٣١ق.هـ/٨٥١م)، شعر زهير بن أبي سلمى ، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، ط١، حلب، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.
- الشريف المرتضى، أبو القاسم الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ/١٠٤٤م)، أمالي المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، (ت٥٤٨هـ/١١٤٣م)، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار صعب، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، الوافي في الوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- ابن طباطبا، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، (ت٣٢٢هـ/٩٣٣م)، عيار الشعر، تحقيق: عباس عبد الستار، ط١، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- الطبري، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الطبري/تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- الطرمّاح بن الحكيم (ت ١٢٥هـ/٧٤٢م)، ديوان الطرمّاح بن الحكيم. تحقيق: د. عزة حسن، دمشق، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- ابن عبد ربه، أحمد بن عبد ربه (ت٣٢٨هـ/٩٣٩م)، العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر، بدون تاريخ.
- العجاج بن رؤبة (ت٩٠هـ/٧٠٨م)، ديوان العجاج بن رؤبة، تحقيق: الدكتور عزة حسن، مكتب دار الشرق، بيروت، بدون تاريخ.
- أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ/٩٦٦م)، الأغاني، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- الفرزدق (ت١١٤هـ/٧٣٢م)، ديوان الفرزدق، ط١، دار صادر للطباعة والنشر، ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.
- القالي، إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (ت٣٥٦هـ/٩٦٦م)، الأمالي، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٦هـ/١٩٢٦م.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م)، الشعر والشعراء، تحقيق: احمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- القطامي، عمرو بن شبيم (ت١٣٠هـ/٧٤٧م)، ديوان القطامي، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، ط١، دار الثقافة، بيروت، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

- ابن قيس الرقيات، عبيد الله بن قيس الرقيات (ت٧٥هـ/٦٩٤م)، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، بيروت، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.
- كثيّر عزة (ت ١٠٥هـ/٧٢٣م)، ديوان كثير عزة، جمعة، وشرحه: د. إحسان عباس دار الثقافة، بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
- الكميت بن زيد الأسدي (ت١٢٦هـ/٧٤٣م)، ديوان الكميت بن زيد، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل الطريفي، دار صادر، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- ليلى الأخيلية (ت٨٠هـ/٦٩٩م)، ديوان ليلى الأخيلية، عني بجمعه وتحقيقه: خليل ابراهيم العطية وجليل العطية، دار الجمهورية، بغداد، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ/٨٩٨م)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، ط١، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- المتوكل الليثي (ت٨٥هـ/٧٠٤م)، شعر المتوكل الليثي، تحقيق: د. يحيى الجبوري، مكتبة الأندلس، بغداد.
- المرزباني، محمد بن عمران المرزباني (ت٣٨٤هـ/٩٩٤م)، أخبار الشيعة، تلخيص: محسن الأمين العاملي، تحقيق: محمد هادي الأميني، ط١، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- المرزباني، محمد بن عمران المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، وقف على طبعه واستخراج فهارسه: محب الدين الخطيب، ط٢، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٦٥هـ/١٣٨٥هـ.
- المرزباني، محمد بن عمران المرزباني، معجم الشعراء، صححه وعلق عليه: ف. كرنكو، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ/٨٧٤م)، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- المصعب بن عبد الله الزبيري (ت ٢٣٦هـ/٩٤٧م)، نسب قريش، صححه وعلق عليه: إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م.

- ابن منظور (ت٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- النابغة الجعدي (ت٥٠هـ/٦٧٠م)، ديوان النابغة الجعدي، ط١، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- النابغة الشيباني (ت١٢٥هـ/٧٤٢م)، ديوان النابغة الشيباني، شرحه وضبط نصوصه وقدّم له: د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- نصيب بن رباح (ت١٠٨هـ/٧٢٦م)، شعر نصيب بن رباح، جمع وتقديم: د. داود سلوم، بغداد، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.
- النعمان بن بشير الأنصاري (ت٦٥هـ/٦٨٤م)، شعر النعمان بن بشير الأنصاري، تحقيق: د. يحيى الجبوري، ط١، مطبعة المعارف، بغداد، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- أبو هلال العسكري (ت٣٨٢هـ/٩٩٢م)، كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.

ثانياً: المـــراجـــــع:

- أحمد، د. محمـــد عبـد القـادر، دراســات فــي أدب ونصــوص العصــر الأمــوي، دار النهضة المصرية، القـــاهرة، ١٤٠٢هـــ/١٩٨٢م.
- أنيــس، إبراهيــم، موســيقى الشــعر العربـــي، ط٦، مكتبـــة الأنجلـــو المصريـــة، ١٤٠٨هـــ/١٩٨٨م.
- بدوي، د. أحمد، أسس النقد الأدبي عنــد العــرب، دار نهضــة مصــر للطباعــة والنشــر، بدون تــاريخ.
- بروكلمــان، كــارل، تــاريخ الأدب العربــي، ترجمــة: عبــد الحليــم النجـــار، ط٤، دار المعارف، مصــر.
- البطل، د. علي، الصورة في الشعر العربـــي حتـــى آخــر القــرن الثــاني الــهجري، ط٢، دار الأندلس، ١٤٠١هـــ/١٩٨١م.
- بكار، د. يوسف، بناء القصيدة العربيــة، دار الثقافــة، القــاهرة،١٣٩٩هـــ/١٩٧٩م.
- الجبــوري، د. يحيــى، الشــعر الجــاهلي خصائصــه وفنونــه، ط٢، مؤسســة الرســالة، بيروت، ١٣٩٩هـــ/١٩٧٩م.
- الجندي، درويش، ظـــاهرة التكســب وأثرهــا فــي الشــعر العربــي ونقــده، دار نهضــة مصر، القاهرة، ١٣٩٠هـــ/١٩٧٠م.
- أبــو حاقــة، أحمــد، فــن المديــح وتطــوره فــي الشــعر العربـــي، ط١، بـــيروت، ١٣٨٢هـــ/١٩٦٢م.
- الحوفــي، أحمــد، أدب السياســة فــي العصــر الأمــوي، ط١، مطبعــة نهضــة مصــر، القاهرة، ١٣٨٠هـــ/١٩٦٠م.
- خليف، مي، التيـــار الإســلامي فــي القصيــدة الأمويــة، دار الثقافــة للنشــر والتوزيــع، القاهرة، ١٤١٣هـــ/١٩٩٣م.
- خليف، د. يوسف، تاريخ الشعر العربـــي فـــي العصـــر الإســلامي، دار الثقافــة، القــاهرة، ١٤٠٥هـــ/١٩٨٥م.

- خليف، د. يوسف، ذو الرمة شاعر الحب والصحراء، دار المعارف، مصر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- رومية، د. وهب، قصيدة المديح حتى نهاية العصر الأموي بين الأصول والإحياء والتجديد، دمشق، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- الزركلي، الأعلام، ط١١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- الشايب، أحمد، تاريخ الشعر السياسي، ط٥، دار القلم، بيروت، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
- ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي/العصر الإسلامي، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.
- ضيف، شوقي، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٣٩٧هـ/١٩٥٩م.
- ضيف، شوقي، الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م.
- عباس، د. إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط٢، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- عباس، د. إحسان، ديوان الخوارج، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
- عبد الله، صلاح الدين مصيلحي، التقليد والتجديد في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ.
- عتيق، د. عبد العزيز، علم العروض والقافية، دار النهضة العربية، بدون تاريخ.
- عصفور، د. جابر، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط٢، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- عطوان، د. حسين، مقدمة القصيدة في العصر الأموي، دار المعارف بمصر، بدون تاريخ.
- غازي، السيد مصطفى، الأخطل شاعر بني أمية، ط١، دار المعارف بمصر.
- القط، د. عبد القادر، في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

- القيسي، نوري حمودي، شعراء أمويون، القسم الأول، بغداد، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- القيسي، نوري حمودي، شعراء أمويون، القسم الثالث، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ناصف، د. مصطفى، الصورة الأدبية، مكتبة مصر، القاهرة، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.
- الهادي، صلاح الدين، اتجاهات الشعر في العصر الأموي، ط١، القاهرة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

In The name of Allah ,the most compassionate and the most merciful

Summary

This research , titled " Using Islam in praising poems in the Umayyad era ", includes an introduction , four chapters and a conclusion . The introduction deals with the reasons for choosing the subject ,its literature , its methodology and the study problem .

The first chapter , titled the dilemma of praising poems in the Umayyad era , refers to the motives which led to the prosperity of praising poems in this era . It was found that there were two kinds of motives ; beneficial motives and political and religious ones .

The second chapter , titled " political religious principles in praising poems in Umayyad era " , has four sections . The first section includes the caliphate associated with the idea of destiny and choice advocated by the Umayyads . The second section refers to the Immamah and Mahdyah and their part in consolidating the pillars of authority , and the role of the poets in employing these two concepts in the Umayyad prising poetry . The third section includes the poets' exploitation , The prophet hood heritage in favour of Muslim rules . The fourth section includes employing jihad in the Umayyad praising poetry as a means of showing the efforts of the praised in defence of Islam and Muslims .

The third chapter , titled " the religious values in praising poems in the Umayyad era " , is divided into three sections , The first section deals with using piety and showing its features possessed by the praised .

The second section deals with the poets' use of the value of justice which the praised preferred to be described with . The third section refers to the value of fighting innovation , riots and deterioration which the praised liked to be described with and its effect in consolidating authority .

The fourth chapter , titled " The Technical Study " has two sections . The first section deals with the general skeleton of the praising poem in the Umayyad era while the second section concentrates on linquistic build-up including the poetic images , devices , metres and rhyme schemes .

The conclusion refers to the most important findings of the research . Out of these findings are :

1. The Islamic fundemantals and religious values were obviously employed in the praising poems in the Umayyad era for worldly purposes .
2. These fundemantals and religious values led to the prosperity of the praising poetry in the Umayyad era .
3. The political praising was widely-spreed and some poets exploited Islam clearly in the political praising poetry .
4. Some poets found it necessary to lie and make up stories to let the praised appear as a pious and worshipping Immam .